وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 107 - December 2007

مجلة شهرية . العدد المائة وسبعة . السنة التاسعة . ديسمبر ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

السلطة والقضاء

إردوجان والأخوان

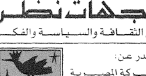
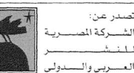
فنان لم نعرفه

ستيفن هوكنج: نيوتن

مكتبة المكتبات Books@Google™

السنة التاسعة
العدد المائة وسبعة
ديسمبر ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

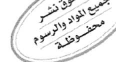


رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إبراهيم الهضيبى.. باحث فى شئون الحركات الإسلامية.
- بشير الكاتب.. جراح سورى - عميد كلية الطب بجامعة حلب سابقًا.
- چيسون إيشتاين.. كاتب أمريكى.
- حسن محمد هند.. مستشار بمجلس الدولة.
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- خيرى منصور.. كاتب عربى.
- ستيفن هوكنج.. عالم فيزيائى إنجليزى بارز.
- سعيد عبدالفتاح عاشور.. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- طارق على.. روائى وكاتب بريطانى من أصل باكستانى.
- لطيفة محمد سالم.. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية آداب بنها.
- محمد عدنان سالم.. ناشر سورى.
- مصباح الله عبدالباقى.. أستاذ مساعد بالجامعة الإسلامية العالمية - إسلام أباد - باكستان.
- يسرى القويضى.. سفير سابق ورسام مصرى مهتم بتاريخ الفنون.

رسوم العدد للفنان

سعد الدين شحاته

(الغلاف: حلمى التونى.. تفصيل من لوحة زيتية)





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



في الثالث من نوفمبر الماضي، فاجأ الرئيس الباكستاني الجنرال برويز مشرف العالم بانقلابه الثاني (الأول كان عام ١٩٩٩، واستولى عن طريقه على السلطة)، فقد أوقف العمل بالدستور وفرض فعلياً الأحكام العرفية، واعتقل المئات من السياسيين العلمانيين والإسلاميين والمحامين وناشطي حقوق الإنسان، كما أوقف بث القنوات التليفزيونية الخاصة.

ولم يكن «الانقلاب الثاني» سوى ذروة الصراع بين مشرف وخصومه السياسيين الذين صعدوا احتجاجاتهم في الشهور الأخيرة لإنهاء حكمه الديكتاتوري، فقد تصدت المحكمة الدستورية لقراراته، الأمر الذي جعل مشرف يتهمها بعرقلة جهوده للقضاء على التطرف في البلاد، كما أن المحامين الباكستانيين تزعموا حركة المعارضة لحكمه في الوقت الذي صعدت الحركات الإسلامية المتشددة من هجماتها على الجيش الباكستاني على الحدود مع أفغانستان، وقد حاول مشرف قبيل التصعيد الأخير تجميل نظام حكمه بالسماح بعودة بنازير بوتو زعيمة حزب الشعب إلى البلاد لخوض الانتخابات البرلمانية (المقررة في يناير المقبل) وتولى رئاسة الحكومة مع استمراره كرئيس للبلاد، إلا أنه عندما شعر أن المحكمة الدستورية لن تصادق على عملية انتخابه والتي جرت مؤخراً قرر تصعيد المواجهة التي لا يعلم أحد كيف ستتطور وما هي تداعياتها.

الكاتب والناشط البريطاني الباكستاني الأصل «طارق علي» زار باكستان قبيل إعلان مشرف حكم الطوارئ وكتب مقالاً في مجلة لندن ريفيو أوف بوكس، رسم فيه صورة بلد أصابه الإحباط بعد ٦٠ عاماً من الاستقلال وجنرال يرغب في البقاء على سدة السلطة بأي ثمن وكل وسيلة. «وجهات نظر» تنشر هذا المقال العميق الذي يمثل رؤية تحليلية واستشرافية لمستقبل هذا البلد المسلم.

«المحرر»

في الستين .. فات أوان الندم

باكستان على الحافة!



طارق علي

من الأفضل تجنب باكستان في شهر أغسطس حيث تهطل الأمطار لتحول السهول إلى حمام بخار هائل. حين كنت أعيش هناك، كنا نهرب إلى الجبال، ولكني هذا العام بقيت في مكاني. القاتل الحقيقي هو الرطوبة. يأتي الخلاص بدفقات صغيرة: سكون فجائي يتبعه إظلام السماء، دمدمة الرعد مثل رجع قنابل بعيدة ثم مطر غزير تفيض منه الأنهار وروافدها بسرعة هائلة. وتعيق الفيضانات السريعة المرور في المدن. وتجري مياه الصرف الصحي عبر أحياء الفقراء والأغنياء على السواء. وحتى لو انتقلت مباشرة من غرفة مكيفة الهواء إلى سيارة مكيفة الهواء، فإنك لا تستطيع الهروب من الرائحة تماماً. في أغسطس قبل ستين عاما انفصلت باكستان عن شبه القارة الهندية. هذا الصيف، ازددت وعيا وأنا أشهد بنفسي تسرب السلطة بعيدا عن برفيز مشرف، رابع دكتاتور عسكري في البلاد.

الإحباط والغضب كانا سائدين. لم يعد مجدياً، تغذية المشاعر المعادية للهنود وللهندوس في محاولة لتشجيع التلاحم الوطني. كانت الاحتفالات بذكرى الاستقلال في ١٤ أغسطس أكثر تصنعا وإزعاجا من أي وقت مضى. الشعارات المتنافرة والخالية من المضمون والتي لم تعد تؤثر في أي شخص، كليشيات بلا حدود في ملاحق الصحف وهي تتنافس على المساحة مع صور جامدة للمؤسس (محمد على جناح) والشاعر (اقبال). مناقشات تافهة تذكرنا بما قاله أو لم يقله جناح. وتكرار إدانة لورد مونتباتن الغدار وزوجته «اللعوب» ادوينا، بسبب تفضيلهما الهند عند تقسيم الغنائم. وهذا صحيح ولكننا لا نستطيع أن نلقي اللوم عليهما للخراب الذي أصبحت الباكستان عليه. في الجلسات الخاصة طبعا، هناك الكثير من الحديث الصادق وعدد مدهش من الناس الذين يشعرون أن قيام الدولة أصلا كان خطأ.

بعد عدة سنوات من الانفصال عن بنجلادش عام ١٩٧١، نشرت دار بنجوين كتابا لي بعنوان (هل تستطيع باكستان أن تعيش؟). وقد أدين الكتاب علنا ومنع من قبل الدكتاتور في ذلك الوقت الجنرال ضياء الحق، ومع ذلك تمت قرصنة الكتاب في عدة طبعات. تساءلت: أنه إذا كان للدولة أن تستمر بنفس الطريقة القديمة، فإن بعض أقاليم الأقليات قد تنفصل هي الأخرى تاركة البنجاب وحدها، تختال مثل ديك على كومة روث. والكثير ممن اعتبروني

بترتيب مع:
London Review of Books

ترجمة بثينة الناصري

خائنا ومرتدا، يسألون الآن نفس السؤال. وأقول لهم: فات أوان الندم. الدولة باقية. ولن يضمن بقاءها، الدين أو «أيديولوجية باكستان» الروحية، وإنما قدرتها النووية وواشنطن.

فى ذكرى ميلاد البلاد الستين (كما فى الذكرى العشرين والثلاثين) يحاول نظام عسكرى القتال دفاعا عن وجوده. هناك حرب على حدوده الغربية، بينما فى الداخل يتعذب النظام على أيدى الجهاديين والقضاة. ويبدو أن كل هذا لم يشكل أى فرق لدى الشباب راكبى الدراجات النارية الذين ينطلقون فى شوارع لاهور فى سباقهم الانتحارى السنوى. يبدو أن الشىء الوحيد الذى يستحق الاحتفال به هو الحق فى الموت. خمسة فقط تمكنوا من الموت هذا العام، وهو رقم أقل بكثير من السنوات الخمس السابقة. قد تكون هذه طريقة معقولة للاحتفال بذكرى صراع قطّع فيه مليون شخص بعضهم البعض اربا حينما كانت الامبراطورية البريطانية المتداعية تستعد للهروب نحو الوطن. فى عشية التقسيم، كُرس اجتماع وزارى فى لندن للأزمة المتصاعدة فى الهند. وقد كُتب فى المحاضر: «كان السيد جناح شديد الغضب والتصميم. وقد بدا فى نظر وزير الخارجية مثل رجل يعرف أنه سوف يقتل ولهذا يصمم على أن ينتحر لتفادى ذلك». ولم يكن وحده على هذه الحالة.

والآن هناك طاغية عسكرى آخر يتلقى التحية فى عرض عسكرى فى ذكرى الاستقلال فى إسلام أباد، وهو يلقى خطابا سيئًا كتبه بيروقراطى متضجر فشل فى كبت تثاؤب المتملقين المحيطين به. حتى طائرات إف ١٦ التى تحلق بتشكيلات جميلة فشلت فى إثارة الجمهور. كانت الأعلام ترفرف بأيدى طلاب المدارس والفرقة تعزف النشيد الوطنى، وقد تم بث العرض على الهواء ثم انتهى كل شىء.

الصحف الأوروبية والأمريكية الشمالية تعطى الانطباع بأن مشكلة باكستان الأولى، إن لم تكن الوحيدة، هى قوة المتطرفين الملتحين المتوارين فى جبال الهندو كوش (سلسلة جبال فى جنوب غرب آسيا تمتد لأكثر من ٨٠٥ كم غربيًا من شمال باكستان إلى شمال شرق أفغانستان- المترجمة)، والذين كما ترى الصحف على وشك الاستيلاء على السلطة. وحسب هذه الرؤية فإن مشرف وحده القادر على منع أى جهادى من وضع أصبعه على الكابس النووى. ولكن، مع الأسف، يبدو أنه الآن غارق فى بحر المشاكل وهكذا فإن وزارة الخارجية الأمريكية قد دفعت بقارب مطاطى منفوخ أكثر من اللازم اسمه بنازير بوتو.

فى الواقع، إن خطر استيلاء الجهاديين على باكستان بعيد. ليس هناك احتمال استيلاء متطرفين متدينين إلا إذا أراد الجيش ذلك، كما فى الثمانينيات، حين سلم الجنرال ضياء الحق وزارتى التعليم والإعلام إلى «جماعتى إسلامى»، وكانت النتائج مؤسفة. هناك مشاكل خطيرة تجابه باكستان، ولكن واشنطن تتغافل عنها عادة، إدارة ومؤسسات مالية. ورغم أن الافتقار إلى البنى التحتية الاجتماعية الأساسية يسبب اليأس وفقدان الأمل، ولكن مع ذلك لا يلتحق بالجهاد إلا فئة صغيرة جداً.

خلال فترات الحكم العسكرى فى أفغانستان، كانت الصفوة الحاكمة تتكون من ثلاث مجموعات: قادة عسكريين، سياسيين من المنافقين المصفقين، ورجال أعمال يضعون أعينهم على العقود الدسمة أو الأراضى التى تملكها الدولة. وقد قضت هذه الصفوة السنوات الستين الأخيرة تدافع عن ثروتها التى حازتها بطرق مريبة وعن امتيازاتها، وكان القائد الأعلى (عسكريًا كان أم غير ذلك) ينتشى دائما بالإطراء والتملق. الفساد يغلف باكستان. الفقراء يتحملون العبء ولكن الطبقات الوسطى تأثرت أيضاً. لم يعد المحامون والأطباء والمعلمون ورجال الأعمال الصغار، والتجار، يستطيعون العيش فى نظام يقوم على المحسوبية والرشوة. البعض هرب - هناك ٢٠ ألف طبيب باكستانى يعملون فى الولايات المتحدة وحدها- ولكن الآخرين يتكيفون مع النظام، ويقبلون تنازلات تدفعهم إلى التشكيك العميق بأنفسهم وبكل الآخرين.

والفراغ الأخلاقى الناتج عن هذا تملؤه الأفلام الإباحية والتشدد الدينى من كل الأنواع. فى بعض المناطق تجد الدين والإباحية جنبًا إلى جنب: أعلى المبيعات لأفلام الفيديو الإباحية هى فى بيشاور وكويتا، وهما من معاقل الأحزاب الدينية. ويستهدف قادة طالبان فى باكستان محلات الفيديو، ولكن المتاجرين بها يختفون عن الأنظار انتظارا للظهور مرة أخرى. وينبغى ألا نظن أن معظم الأفلام الإباحية تأتى من الغرب / ففى باكستان هناك صناعة مزدهرة لها نجومها المحليون من ذكور وإناث.



وفى هذه الأثناء، ينشط الإسلاميون فى تجنيد المؤيدين. ودعاة جماعة التبليغ (TJ تبليغى جماعة) - الذين يعملون بدأب وصرامة، يتركون أثرًا فعالاً كبيرًا. ويصطف فى طابور المنتمين: الخاطئون الباحثون بيأس عن التوبة وهم من كل طبقات المجتمع.

هناك طاغية عسكرى آخر يتلقى التحية فى عرض عسكرى فى ذكرى الاستقلال فى إسلام أباد، وهو يلقى خطابا سيئًا كتبه بيروقراطى متضجر فشل فى كبت تثاؤب المتملقين المحيطين به



تقع مقرات جماعة التبليغ الباكستانية فى ريوند، التى كانت فيما مضى قرية صغيرة تحيطها حقول القمح والذرة وبذور الخردل. والآن هى ضاحية متمدنة وراقية من ضواحى لاهور، حيث بنى الأخوان شريف قصرًا على الطراز الخليجى حين كانا فى السلطة فى التسعينيات. تأسست جماعة التبليغ فى العشرينيات من القرن الماضى من قبل مولانا الياس، وهو رجل دين تدرب فى حلقة سنية فى ديوباند فى اوتار براديش. فى بداية الأمر، كانت مقراتها تتركز فى شمال الهند. ولكن اليوم هناك مجموعات كبيرة منها فى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية. وتأمل جماعة التبليغ أن تحصل على رخصة لبناء مسجد فى شرق لندن إلى جانب الموقع الاوليمبى. وسوف يكون أكبر مسجد فى أوروبا.

فى باكستان، ينتشر تأثير جماعة التبليغ وكان تغلغلها فى فريق الكريكت الوطنى أكبر إنجازاتها، حيث ينشط انزمام الحق ومحمد يوسف للدعوة لها فى الوطن فى حين أن مشتاق أحمد يبذل كل جهده لرعاية مصالحها فى بريطانيا.

ونصر آخر للجماعة حدث بعد ١١/ ٩ وهو تجنيد جنيد جمشيد، المغنى الكارزمى الرئيسى فى أول جماعة بوب باكستانية ناجحة وهى «فايتال ساينس vital signs». وقد تبرأ المغنى عن ماضيه ويغنى الآن الأغانى الدينية فقط (الذكر) أو (نعت naats) بالباكستانية.

يشدد التبليغيون على جهادهم السلمى ويصرون على أن هدفهم هو نشر الإيمان الصادق من أجل مساعدة الناس على إيجاد الطريق الصحيح فى الحياة. وقد تكون هذه هى الحقيقة. ولكن من الواضح أن بعض المجندين الذكور الشبان، وهم يشعرون بالملل من التعاليم والمراسم والطقوس، يفضلون أن يضعوا أياديهم على كلاشينكوف. ويعتقد الكثيرون أن معسكرات الدعوة التبليغية هى أرض تجنيد خصبة للجماعات المسلحة التى تنشط على الحدود الغربية وفى كشمير.

لقد تأخرت المؤسسة فى التشكيك بتفسير الإسلام على طريقة جماعات مثل التبليغ. وقد نصح مشرف الشعب أن يذهبوا لرؤية فيلم «خدا كى لى» (باسم الله) وهو فيلم جديد أخرجه شعيب منصور (الذى كتب وأنتج بعض أكثر أغانى فرقة فايتال ساينس نجاحًا). ولكن هذا قد لا يساعد الفيلم، أو الإسلام المعتدل الذى يبشر به، إذا عرفنا أن نسبة شعبية مشرف تأتى بعد أسامة بن لادن حسب استفتاء حديث، ولكنى ذهبت لمشاهدة الفيلم فى حفلة ماتينيه فى لاهور وكانت السينما مكتظة بالشباب. مقاصد



الفيلم جيدة ولكنه كان مطولاً ومباشرا. ومع ذلك فقد كان له بعض التأثير. على الأقل قدم الفيلم أفكارا جديدة، لم تطرح من قبل فى دولة لا تنتج صناعتها السينمائية سوى تفاهات بوليوود (هوليوود السينما الهندية - المترجمة)، حتى إذا كانت الأفكار محدودة بأنماط المسلم الجيد والمسلم السيئ. العنف الجهادى سيئ، والموسيقى جيدة وليست محرمة. العنف والاغتصاب فى أرض الشر على الحدود الباكستانية الأفغانية تتقاطع مع مشاهد فى الولايات المتحدة بعد ٩/١١، حيث يعتقل موسيقى باكستانى من قبل عناصر الاستخبارات ويعذب (مشاهد التعذيب تستغرق وقتا طويلا). المضمون هنا أن كل طرف يتغذى على الطرف الآخر. إنه فيلم محتشم وكان من الواضح أن الشبان الذين يجلسون خلفى، كانوا يرغبون بمشاهدة بعض مشاهد الجنس. فحين قدمت طالبة بيضاء فى شيكاغو هدية للموسيقى الباكستانى، علق أحدهم: «إنها تعطيه رقم هاتفها». ولو لم يطلب منهم حاجب السينما السكوت لكان استمتاعى بالفيلم أكثر.

أحد أهم التهديدات لحكم مشرف هو الهيئة القضائية. فى ٩ مارس، أوقف مشرف افتخار محمد شودرى، رئيس القضاة فى المحكمة العليا عن العمل، ريثما ينتهى التحقيق. وكانت التهم الموجهة ضده متضمنة فى رسالة من نعيم بخارى وهو محام فى المحكمة العليا. ومما يثير الاستغراب أن الرسالة وزعت على نطاق واسع - وقد استلمت نسخة منها عبر بريدى الإلكترونى. وتساءلت فى حينها ما إذا كان هناك شىء فى الأفق، ولكن بعد ذلك قررت أنها مجرد عنقود غضب. ولكن الأمر لم يكن كذلك. كانت جزءاً من خطة. بعد عرض العديد من الشكاوى الشخصية، هيمنت بلاغة مبالغ بها:

«فضيلة القاضى، إن كرامة المحامين تنتهك باستمرار من قبلكم. إننا نعامل بقسوة وفظاظة وفجاجة وبذاءة. ولايُسمع لنا. ولايُسمح لنا أن نعرض قضيتنا. ثمة مجال ضيق للمحاماة. إن الكلمة الدارجة فى غرفة المحامين لوصف المحكمة رقم واحد هى «المذبح». وإخضاعنا يتم بالعدوان علينا من قبل المنصة التى ترأسونها. كل ما نأخذه منكم هو الاستعلاء والعدوان والتحارب».





خلال فترات الحكم العسكرى فى أفغانستان، كانت الصفوة الحاكمة تتكون من ثلاث مجموعات: قادة عسكريين، سياسيين من المنافقين المصفقين، ورجال أعمال يضعون أعينهم على العقود الدسمة أو الأراضى التى تملكها الدولة



وكان يجب أن تنبهنى هذه الفقرة لما يجرى حقيقة:

«أشعر بالألم للتغطية الإعلامية للقضايا التى يتعامل معها فضيلة القاضى فى المحكمة العليا تحت شعار الحقوق الأساسية. كان يمكن لقضاة المناطق بكل سهولة، البت فى مثل هذه القضايا، وليس المحكمة العليا. كما تؤلمنى أيضا التغطية الإعلامية للمحكمة العليا حول قضية استرداد أنثى. فى غرفة المحامين، نسمى هذا «سركا إعلاميا»».

كان رئيس القضاة قد بدأ فى إحراج النظام. فقد وقف ضد الحكومة فى عدد من القضايا المهمة، بضمنها الخصخصة المتسرعة لمصنع فولاذ باكستان فى كراتشى، وهو مشروع يرعاه رئيس الوزراء شوكت (شورتكت) عزيز. (شورتكت shortcut هى تسمية ساخرة أطلقها الشعب على رئيس الوزراء وتتلاعب على اسمه - شوكت- وشورتكت تعنى طريقًا مختصرًا- المترجمة). والقضية تذكر بروسيا على عهد يلتسن. وكان الاقتصاديون قد قدروا أن المصنع يساوى ٥ بلايين دولار. وقد بيع ٧٥٪ من الحصص بمبلغ ٣٦٢ مليون دولار فى مزاد استغرق ٣٠ دقيقة لمجموعة موالية تتكون من شركة عارف حبيب للأمن (باكستان) والطوريقى (السعودية) وحديد وفولاذ ماجنتوغورسك ايرون (روسيا). ولم يعجب الجيش هذه الخصخصة. واشتكى القائد المتقاعد حق نواز اختر بأنه «لو بيع المصنع كخردة لكان قد أتى بمبالغ أكبر» وكان الإدراك العام هو أن تلك العملية تمت لمساعدة أصدقاء الرئيس ورئيس الوزراء. وقد أبلغنى فى كراتشى، أحد مرتادى البورصة بأن شركة عارف حبيب للأمن (التى تمتلك ٢٠٪) قد أقيمت كواجهة لشوكت عزيز. ويشاع أن عملاق الفولاذ السعودى (٤٠٪) صديق حميم لمشرف، وكانت الشركة قد قدمت إلى البلاد لإقامة مصنع فولاذ على ٢٢٠ هكتاراً من الأراضى المؤجرة من مصنع الفولاذ الباكستانى. كل هذا أصبح ملك الشركة الآن.

بعد أن أصرت المحكمة العليا على أن إحضار الناشطين السياسيين (المخفيين) إلى المحكمة ورفضت إغلاق قضايا الاغتصاب، كان هناك قلق فى إسلام أباد من احتمال أن يعلن رئيس القضاة عدم دستورية الرئاسة العسكرية. وهنا سادت بارانويا. كان يجب اتخاذ بعض الإجراءات. قرر الجنرال ومجلس وزرائه إخافة شودرى بإيقافه عن العمل. وأبقى رئيس القضاة تحت الإقامة الانفرادية لعدة ساعات، وعامله ضباط الاستخبارات بخشونة بالغة، وانتهكت كرامته على شاشة التليفزيون الحكومى. ولكن بدلا من التراجع وقبول تسوية استقالة براتب تقاعدى كبير، أصر القاضى على الدفاع عن نفسه، مما أشعل حركة كبيرة دفاعا عن استقلال القضاء. وهذا يثير الدهشة. فالمعروف عن القضاة الباكستانيين أنهم محافظون وقد أقروا بشرعية كل انقلاب تحت حيثية «مبدأ الضرورة» (رغم أن البعض رفض حلف يمين الولاء لمشرف).

حين زرت باكستان فى أبريل، كانت الاحتجاجات تتسع يوما بعد يوم. وكانت محصورة أساسا فى محامى البلاد البالغ عددهم ٨٠ ألفًا وفى عشرات القضاة، ولكن الشعب انتشر خارج هذا النطاق، وكان شيئا غريبا فى بلاد ينأى شعبها عن حكم الصفوة. ولكن المحامين كانوا يحتجون دفاعًا عن فصل السلطات الدستورى. وكان مما يبعث على السرور أن شيئًا قديم الطراز يكتنف هذه الاحتجاجات: فلم يكن المحرك هو المال أو الدين، ولكن المبدأ.



وقد حاول المهنيون من المعارضة (بعضهم كان قد نظم هجمات فجة على المحكمة العليا حين كانت مع السلطة) أن ينسبوا القضية لأنفسهم. قال لى عبد حسن مانتو وهو أحد أكثر محامى البلاد المحترمين «لا تتصور أنهم قد تغيروا فجأة. ومن الجانب الآخر، حين يحين الوقت فأى شىء قد يشعل الشرارة».

لقد أصبح واضحا لمعظم أعضاء حكومة إسلام أباد بأن ما أقدموا عليه كان خطأ هائلا. ولكن كما يحدث عادة فى الأزمات، بدلا من الاعتراف بالخطأ والتحرك لتصحيحه، قررت السلطة أن تستعرض قوتها. كان أول الأهداف هى قنوات التليفزيون المستقلة. فى كراتشى وفى مدن أخرى أظلمت فجأة ثلاث قنوات وهى تعرض تقريراً عن المظاهرات. وكان هناك غضب شعبى

عارم. فى ٥ مايو، انطلق شودرى من إسلام أباد إلى لاهور ليتحدث. وقد توقف فى كل مدينة على الطريق للقاء مؤيديه. استغرق الوقت ٢٦ ساعة لإكمال رحلة تستغرق عادة من أربع إلى خمس ساعات. فى إسلام أباد، خططوا لضربة مجهضة.

كان مقرراً أن يزور القاضى، كراتشى وهى أكبر مدينة فى البلاد فى يوم ١٢ مايو. السلطة السياسية هنا هى فى أيدى (حركة قوامى المتحدة /الحركة الوطنية المتحدة) وهى جماعة بغيضة تأسست خلال دكتاتورية سابقة، ومشهورة بأنشطتها فى مجال الحمايات وأنواع أخرى من العنف. وقد دعمت مشرف بإخلاص فى كل الأزمات التى مر بها. قائدها ألطاف حسين يدير الحركة من ملاذه الآمن فى لندن، هرباً من انتقام أعدائه الكثيرين إذا عاد إلى البلاد. فى خطاب بالفيديو موجه إلى أتباعه فى كراتشى قال «إذا كانت المؤامرات تحاك لإنهاء الحكومة الحالية المنتخبة ديمقراطياً، إذن كل عضو فى الحركة الوطنية المتحدة سوف يقف صلباً ويدافع عن الحكومة الديمقراطية». وكانت هذه طريقته. وحسب توجيهات إسلام أباد قرر قادة الحركة منع القاضى من إلقاء خطابه فى اجتماع كراتشى. لم يسمح له بمغادرة المطار. وهوجم مؤيدوه فى أجزاء عديدة من المدينة. وقتل حوالى ٥٠ شخصاً. وبعد أن عرضت لقطات من العنف على شاشة تليفزيون عاج Aaj، هوجمت المحطة بمتطوعين مسلحين من الحركة قاموا بإطلاق النار على المبنى لمدة ست ساعات كاملة وأحرقوا السيارات الموجودة فى ساحة وقوف السيارات الخاصة بالمحطة.

وفى هذه الأثناء، عجزت إدارة المحطة التليفزيونية بشكل غامض عن الاتصال بضباط الشرطة الكبار أو الوزير أو حاكم المدينة. وأدرك الناس السبب وأعلنوا إضراباً عاماً شاملاً زاد من عزلة النظام. وقد نشرت مفوضية حقوق الإنسان فى باكستان فى أغسطس تقريراً مدمراً بعنوان (مذبحة فى كراتشى) أكد بتفاصيل كثيرة ما يعرفه كل شخص: لقد صدرت أوامر للشرطة والجيش بعدم التدخل فيما كان أعضاء الحركة الوطنية المتحدة يقومون بالقتل والتدمير.

ولم يكن أمام مشرف الذى كان يحاول أن يحتفظ بقبضته على البلاد، بديل، سوى التراجع. قدم رئيس القضاة استئنافه ضد إيقافه عن العمل، أمام المحكمة العليا. وفى ٢٠ يوليو صدر قرار بالإجماع لإعادته إلى منصبه وشوهد محامو الحكومة يهرعون إلى خارج المحكمة مجللين بالعار. وشرعت المحكمة التى بثت فيها الحياة فى تنفيذ مهامها. كان حافظ عبد الباسط سجيناً (مخفياً) متهماً بالإرهاب. استدعى رئيس القضاة المدير العام لوكالة التحقيق الفيدرالية الباكستانية طارق برفيز وسأله بأدب عن مكان السجين. أجاب برفيز بأنه لا يعلم بل إنه لم يسمع بعبد الباسط. أصدر رئيس القضاة أمراً لمدير الشرطة أن يأتى بعبد الباسط إلى المحكمة فى غضون ٤٨ ساعة: «إما أن تأتى بالمعتقل أو تستعد لتذهب أنت إلى السجن» بعد يومين أحضر عبد الباسط ثم أطلق سراحه، بعد أن عجزت الشرطة عن تقديم دليل ضده. ولم يسعد هذا الخبر واشنطن ولندن. كانت الحكومتان على اقتناع بأن عبد الباسط إرهابى ويجب أن يبقى فى السجن إلى أجل غير محدد، بالضبط كما كان سيحدث لو كان الأمر يجرى فى بريطانيا والولايات المتحدة.

وتنظر المحكمة العليا حالياً ست شكاوى ضد قرار مشرف دخول سباق الرئاسة بدون التخلى عن رئاسته للجيش. ويزداد القلق فى إسلام أباد. ويهدد الموالون للرئيس بأسوأ العواقب إذا كان حكم المحكمة ضد ترشيح الرئيس. ولكن إعلان حالة طوارئ سوف يتطلب دعماً من الجيش وقد قيل لى بأن مصادر غير رسمية كشفت أن هناك معارضة من جانب الجنرالات للتدخل. وعذرهم المؤدب هو أن انشغالهم الكثيف فى «الحرب على الإرهاب» يعيقهم عن الحفاظ على القانون والنظام فى المدن. (لقد فرضت حالة الطوارئ فعلاً وقال مشرف إنها ستكون لمدة شهر فقط - المترجمة).

وعندما انتهت أزمة القضاء مؤقتاً، طفت على السطح أزمة أكثر حدة. معظم الجماعات الجهادية اليوم هى نسل هجين لأجهزة الاستخبارات الباكستانية والغربية، وقد ولدت فى الثمانينيات من القرن الماضى حين كان الجنرال ضياء فى السلطة يشن حربا نيابة عن الغرب ضد الروس (الملاحدة) الذين كانوا يحتلون أفغانستان.



كان رئيس القضاة قد بدأ فى إحراج النظام. فقد وقف ضد الحكومة فى عدد من القضايا المهمة، بضمنها الخصخصة المتسرعة لمصنع فولاذ باكستان فى كراتشى، وهو مشروع يرعاه رئيس الوزراء

حينذاك بدأت الرعاية الحكومية للجماعات الإسلامية. وأحد رجال الدين المستفيدين، كان مولانا عبد الله الذى منح أرضاً لبناء مدرسة دينية فى قلب إسلام أباد، ليس بعيداً عن المبانى الحكومية. وسرعان ما توسعت المساحة لتستوعب بناء مبنيين منفصلين (للطلاب الذكور والإناث)، مع توسيع مسجد لال (المسجد الأحمر). كل ذلك كان بأموال حكومية ومن الناحية التقنية، تعتبر الحكومة صاحبة هذه الملكية.

خلال الثمانينيات والتسعينيات، أصبح هذا المجمع معسكر ترانزيت للجهاديين الشباب وهم فى طريقهم للقتال فى أفغانستان وفيما بعد كشمير. ولم يخف عبد الله معتقداته. كان متعاطفاً مع التأويل الوهابى السعودى للإسلام وخلال الحرب العراقية الإيرانية، كان سعيداً بقتل «الزنادقة» الشيعة فى باكستان. وكانت رعايته لجماعات الإرهاب شديدة الطائفية والمعادية للشيعة هى التى قادت إلى اغتياله فى أكتوبر ١٩٩٨. وقد قتله أعضاء فصيل إسلامى منافس فور انتهائه من الصلاة فى مسجده.

خلفه فى إدارة المسجد والمدارس ابناه عبد الرشيد غازى وعبد العزيز. وقد وافقت الحكومة على أن يؤم عزيز صلاة الجمعة ويخطب فى المصلين. وكانت خطبه مؤيدة للقاعدة، رغم أنه كان أكثر حذراً بعد ١١ سبتمبر. وكان الموظفون المدنيون الكبار وضباط الجيش يحضرون صلاة الجمعة غالباً. وكان أخوه رشيد الأكثر ثقافة وذلاقة لسان، بوجهه الناحل ولحيته الشعثاء، يجيد اجتذاب الصحفيين الزائرين سواء أجانب أو محليين.

ولكن بعد نوفمبر ٢٠٠٤، حين شن الجيش تحت ضغط شديد من الولايات المتحدة، عدوانا على المناطق القبلية المتاخمة لحدود أفغانستان، توترت العلاقة بين الأخوين والحكومة. ولكن عزيز بالأخص كان هادئاً وربما لم يكن ليولى الأمر أهمية ولكن طبقاً لرشيد «جاءنا كولونيل متقاعد من الجيش الباكستانى بعريضة مكتوبة يطلب فيها فتوى توضح رأى الشريعة فى الحرب التى يشنها الجيش على القبائل». عزيز لم يضيع أى وقت. أصدر فتوى يعلن فيها أن قتل هؤلاء الناس من قبل جيش مسلم حرام «وأى

عسكرى يقتل خلال العملية ينبغى أن يحرم من الدفن الإسلامى» وأن «المقاتلين من الجانب الآخر الذين يموتون أثناء المعركة مع الجيش الباكستانى يعتبرون شهداء». خلال أيام من نشر الفتوى، صادق عليها علنًا حوالى خمسمائة «باحث إسلامى». ورغم الضغط الشديد من رعاة المسجد فى الاستخبارات العسكرية الباكستانية، رفض الأخوان سحب الفتوى. وكان رد الحكومة لدهشة الجميع خافتًا. أنهى مركز عزيز الرسمى كإمام للمسجد وصدر قرار باعتقاله لكن لم ينفذ أبدا وسمح للأخوين بالاستمرار. ربما رأت الاستخبارات العسكرية أن ثمة فائدة فى ذلك.

فى بداية ذلك العام، ادعت الحكومة أنها كشفت مؤامرة إرهابية لتفجير مقرات عسكرية بضمنها مقر الحكومة ومبان أخرى، وفى ١٤ أغسطس عثر على بنادق آلية ومتفجرات فى سيارة عبد الرشيد غازى. وأصدرت مذكرات قانونية جديدة بحق الأخوين واعتقلا. عند هذه المرحلة، أقنع وزير الشئون الدينية إيجاز الحق وهو ابن الجنرال ضياء، زملاءه لإعلان العفو عن رجلى الدين مقابل اعتذار مكتوب تعهدا فيه بعدم الانخراط فى صراع مسلح. وقد قال رشيد: إن هذه مؤامرة حيكت لإرضاء الغرب. وفى مقالة كتبها ونشرت فى إحدى الصحف طالب وزير الشئون الدينية أن يقدم الدليل على أنه كتب ذلك التعهد. وقوبل طلبه بالصمت.

فى يناير هذا العام، قرر الأخوان تحويل تركيزهما من السياسة الخارجية إلى الداخلية وطالبا بتطبيق فورى للشريعة. حتى ذلك الوقت كانا يكتفيان بإدانة السياسات الأمريكية فى العالم الإسلامى وإدانة رجل أمريكا مشرف لأنه قدم المساعدة فى الإطاحة بحكومة طالبان فى أفغانستان. ورغم أنهما لم يؤيدا علنا المحاولات الثلاث لاغتيال مشرف، ولكن لم يكن سرًا أنهما أسفا على نجاته. وكان المقصود من البيان الذى أصدراه فى يناير أن يكون استفزازًا علنيًا للنظام. وقد شرح عزيز برنامجه: «سوف لن نسمح بالرقص والموسيقى فى باكستان. وكل من يهتم بمثل هذه الأمور عليه أن ينتقل إلى الهند. لقد تعبنا من الانتظار. إما الشريعة وإما الشهادة». وقد شعرا بالخطر بعد قيام الحكومة بتهديم مسجدين بنيا بشكل غير قانونى على أرض تعود ملكيتها للدولة. وحين استلما





فى الواقع أن الجهاديين غير محبوبين فى معظم باكستان ولا الحكومة محبوبة أيضا. وتثير واقعة المسجد الأحمر الكثير من التساؤلات التى لم يتم الإجابة عنها. لماذا لم تتصرف الحكومة فى يناير؟



إبلاغات تعلن عزم الحكومة على تهديم أجزاء من المسجد الأحمر ومصلى النساء، أرسل الأخوان عشرات البنات الطالبات وهن يرتدين البرقع لاحتلال مكتبة أطفال مجاورة للمصلى. وقد فوجئت عناصر الاستخبارات بهذا التطور، ولكنها سرعان ما بدأت التفاوض لإنهاء هذا الاحتلال.

استمر الأخوان فى اختبار تحمل السلطات. طبقت الشريعة وأشعلت النيران فى أكوام من الكتب والأسطوانات المضغوطة والدى فى دى. ثم وجهت طالبات المدرسة (كلمة مدرسة وتكتب بالإنجليزية بنفس اللفظ أصبحت تعنى لدى الغرب - المدارس الدينية - المترجمة) نيرانهن إلى بيوت الدعارة الرائجة فى إسلام أباد مستهدفات العمة شميم، وهى قوادة مشهورة فى هذا المجال كانت تقدم الفتيات «المحترمات» للاغراض غير المحترمة، وكان من زبائنها العظماء والأخيار (ومنهم عدد من رجال الدين المعتدلين). كانت العمة تدير بيت الدعارة وكأنه مكتب: تراعى ساعات العمل وتغلق المحل فى منتصف النهار أيام الجمع ليتمكن الزبائن من الذهاب إلى أقرب مسجد، وهو بالمناسبة المسجد الأحمر. وقد هاجمت كتائب الأخلاق المنزل و«حررت» النساء. كان معظم البنات متعلمات وبعضهن أمهات وحيدات وبعض آخر أرامل. ولكن يشتركن جميعا فى حاجتهن الملحة للنقود، وكانت ساعات «المكتب» تناسبهن. هربت العمة شميم من المدينة، وبحثت عاملاتها عن توظيف مماثل فى مكان آخر، فى حين هللت بنات المدرسة لهذا النصر السهل الذى شجعهن على طرق أبواب أخرى، فقررن الهجوم على محلات المساج الراقية فى إسلام أباد، ولم تكن كلها أماكن للجنس، وبعضها كان يعمل فيها مواطنون صينيون. اختطفت ست نساء صينيات فى أواخر يونيو وأخذن إلى المسجد. ولكن هذا لم يرض السفير الصينى الذى أخطر الرئيس «هو جنتاو» الذى كان أكثر غضبًا، وطالبت بكين بتحرير مواطناتها بدون تأخير. وصل مندوبو الحكومة الباكستانية إلى المسجد لشرح أهمية العلاقات الاستراتيجية بين الصين والباكستان، وهكذا أطلق سراح النساء. وقد تعهد أصحاب مهنة المساج بأنه من هنا فصاعداً سوف يقوم الرجال فقط بالمساج للرجال. وهكذا أنقذ الشرف، رغم أن الصفقة كانت تناقض تعاليم القرآن. وقد وصفت الصحافة الليبرالية الحملة ضد الفجور بأنها تحويل باكستان إلى طالبانية مما أزعج رجلى الدين فى المسجد الأحمر وقال رشيد: «حين أصبح رودى جليانى عمدة نيويورك، أغلق دور الدعارة. فهل كان ذلك تحويل أمريكا إلى طالبانية؟».

شعر مشرف بالغضب والإحراج لخطف النساء الصينيات، وطالب بحل. وصل السفير السعودى فى الباكستان على سعيد العوض العسيرى إلى المسجد وقضى تسعين دقيقة مع الاخوين. رحبا به ولكنهما أبلغاه بأنهما يريدان تنفيذ الشريعة السعودية فى باكستان. هل لديه اعتراض على ذلك؟ رفض السفير لقاء الصحافة بعد الزيارة، ولهذا لم يعرف رد فعله. ولما فشلت مساعيه، وضعت الخطة (ب) قيد التنفيذ.



فى ٣ يوليو، بدأ الجنود فى مد أسلاك شائكة فى نهاية الشارع أمام المسجد. فتح بعض طلاب المدرسة النيران وقتلوا جنديا، وأشعلوا النيران فى وزارة البيئة المجاورة. ردت قوات الأمن ليلتها بالغاز المسيل للدموع وبالبنادق الآلية. فى صباح اليوم التالى أعلنت الحكومة حظر التجول فى المنطقة وبدأ حصار المسجد الذى استغرق أسبوعا، وكانت شبكات التليفزيون تعرض الصور على العالم كله. لابد أن رشيد كان سعيدا لذلك. وقد اعتقد الاخوان أن إبقاء النساء والأطفال رهائن داخل المجمع قد ينقذهم. ولكن أطلق سراح البعض منهم واعتقل عزيز حين كان يحاول الهرب مرتديًا برقعًا. فى ١٠ يوليو أغار الجنود أخيراً على المجمع. وفى المصادمات التى جرت، قتل عبد الرشيد ومائة آخرون على الأقل. قتل أيضا أحد عشر جنديا وأصيب أكثر من أربعين. وقد هوجمت عدة مراكز للشرطة وكانت هناك تحركات تنذر بالسوء فى منطقة القبائل. حيث خاطب مولانا فقير محمد وهو مؤيد كبير لطالبان، الآلاف من أبناء القبائل المسلحين «ندعو الله أن يهلك مشرف وسوف نثأر للفظائع التى وقعت فى




مسجد لال». وقد كرر أسامة بن لادن هذا المضمون حين أعلن أن مشرف «كافر» وأن «إزالته واجبة الآن».

كنت فى كراتشى فى الأسبوع الأخير من أغسطس، حين هاجم انتحاريون أهدافا عسكرية من بينها حافلة تحمل موظفى الاستخبارات الوطنية، ثأرا لموت رشيد. ولكن فى البلاد بشكل عام تم إسكات رد الفعل. أذاع قادة MMA وهو تحالف أحزاب دينية تحكم إقليم الحدود وتتشارك فى السلطة فى بلوشستان، تصريحات منددة ولكنهم لم يتخذوا أى إجراء.

ولم يخرج فى مسيرة دعى إليها فى بيشاور بعد يوم من الأحداث سوى ألف شخص. وكانت هذه أكبر مسيرة احتجاجية، وكان مزاج المشاركين هادئًا. لم يكن هناك تمجيد بصوت عال للشهداء. مما يشكل تناقضًا حادًا بالمقارنة مع حملة إعادة رئيس القضاة إلى وظيفته. بعد ثلاثة أسابيع تجمع أكثر من ١٠٠ ألف شخص فى مدينة بنجابى فى كاسور لإحياء الذكرى الـ ٢٥٠ لوفاة شاعر القرن السابع عشر الكبير بُلّة شاه وهو شاعر مميز من شعراء الصوفية الذين يرفضون الدين المنظم والتشدد. وكان هذا الشاعر يشبه الملا «رجل الدين» بكلب نابح أو ديك صائح.

فى الواقع أن الجهاديين غير محبوبين فى معظم باكستان ولا الحكومة محبوبة أيضا. وتثير واقعة المسجد الأحمر الكثير من التساؤلات التى لم يتم الإجابة عنها. لماذا لم تتصرف الحكومة فى يناير؟ كيف استطاع رجال الدين تجميع كل هذه الأسلحة بدون علم الحكومة؟ هل كانت الاستخبارات على علم بوجود ترسانة أسلحة مخبأة داخل المسجد؟ إذا كانت تعلم فلماذا سكتت؟ كيف كانت العلاقة بين رجال الدين وعناصر الحكومة؟ لماذا أطلق سراح عزيز وسمح له بالعودة إلى قريته بدون توجيه تهم له؟ هل قررت الدولة أن تتخلى عن احتكارها للعنف؟

الكثير من هذا له صلة بأفغانستان. لقد أحيا فشل احتلال الناتو، طالبان مرة أخرى كما أحيا تجارة الهيروين وساهم فى قلقلة شمال غرب باكستان. وقد قتل القصف الجوى الأمريكى العشوائى الكثير من المدنيين الأبرياء وتظل ثقافة الثأر قوية فى المنطقة. كما ساعد فساد ومحسوبية حكومة كرزاى على نفور الكثير من الأفغان الذين كانوا قد رحبوا بالإطاحة بالملا عمر أملا فى ظروف أفضل. ولكن بدلا من ذلك شهدوا الاستيلاء على الأراضى وبناء فيلات فارهة لأعوان كرزاى. وهناك شائعات تدور بأن شقيق كرزاى الأصغر أحمد والى كرزاى أصبح واحدًا من أكبر بارونات المخدرات فى البلاد. وبما أن قبائل البشتون (أكبر القبائل فى أفغانستان - المترجمة) لم تعترف أبدا بخط دورانت، وهى الحدود بين باكستان وأفغانستان التى فرضها البريطانيون، لذلك حين يهرب المقاتلون إلى منطقة القبائل الواقعة تحت السيطرة الباكستانية، لا يسلمونهم إلى إسلام أباد، وإنما يطعمونهم ويكسونهم حتى يعودوا إلى أفغانستان أو يظلوا فى حمايتهم مثل قادة القاعدة. وتشعر واشنطن بأن صفقات مشرف مع قادة القبائل على الحدود هى استسلام لشروط طالبان وهى غاضبة لأن الولايات المتحدة هى التى تدفع نفقات تحركات الجيش الباكستانى وتشعر بأنها لا تحصل على مقابل يساوى قيمة ما تدفعه. ناهيك عن ١٠ بلايين دولار استلمتها باكستان منذ ١١ سبتمبر للمشاركة فى «الحرب على الإرهاب».



المشكلة هى أن بعض عناصر الاستخبارات العسكرية الباكستانية يشعرون بأنهم قادرون على استرداد أفغانستان، حالما تنتهى عملية «الحرية الدائمة» التى تشنها الولايات المتحدة، ولهذا السبب يرفضون قطع العلاقات مع قادة المقاتلين. بل إنهم يعتقدون أن الولايات المتحدة قد تفضل يومًا ما مثل هذه السياسة. وأشك فى أن يحدث ذلك: التأثير الإيرانى قوى فى هيرات وغرب أفغانستان، ويستلم التحالف الشمالى أسلحة من روسيا، والهند هى القوة الإقليمية الكبرى. إن تسوية مستقرة لابد أن تشمل ضمانة إقليمية لاستقرار الأفغان وتشكيل حكومة وطنية بعد انسحاب الناتو.

حتى لو قبلت واشنطن نسخة منقحة من طالبان، فإن الدول الاخرى ذات الصلة لن تقبل. ولن تؤدى جولة جديدة من الصراعات الأهلية إلا إلى التفكك. وإذا حدث هذا، فإن قبائل البشتون على كلا جانبى خط دورانت قد يفكرون فى إقامة دولة خاصة بهم. إن ذلك يبدو مثل خيال بعيد، اليوم. ولكن ماذا إذا تفككت كونفيدرالية القبائل التى تشكل أفغانستان إلى دويلات صغيرة، كل منها تحت حماية قوة أكبر؟



أحيا فشل احتلال الناتو، طالبان مرة أخرى كما أحيا تجارة الهيروين وساهم فى قلقلة شمال غرب باكستان. وقد قتل القصف الجوى الأمريكى العشوائى الكثير من المدنيين الأبرياء وتظل ثقافة الثأر قوية فى المنطقة

عودًا إلى قلب باكستان، فإن اعقد القضايا وأكثرها تفجرًا هى اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية. ولهذا صلة بزيادة عدد المدارس الدينية. لو كان هناك نظام تعليمى رسمى نصف محترم لما شعرت العائلات الفقيرة بالحاجة إلى تسليم ابن أو بنت إلى رجال الدين على أمل أن يحصل طفل واحد على الأقل على ملابس وطعام وتعليم. لو كان هناك حتى شبه نظام صحى، لأنقذ الكثيرين من المرض الذى يتسبب فيه الوهن والفقر. لم تفعل أى حكومة منذ ١٩٤٧ الكثير لمعالجة اللا مساواة. إن الفكرة التى تراود البعض من أن عودة بنازير بوتو المنتظرة، جاثمة على كتف مشرف، ستعنى التقدم، هى فكرة مضحكة مثل تصور نواز شريف بأن ملايين الناس سوف يستقبلونه حين يصل مطار إسلام أباد، الشهر الماضى. (وضعت بنازير بوتو حال عودتها قيد الإقامة الجبرية ثم أطلق سراحها ولكن منعت عن الخطابة فى مؤتمرات وندوات - المترجمة). فى نهاية هذا العام يحين موعد الانتخابات العامة (أجّل مشرف الانتخابات إلى يناير العام القادم- المترجمة)، إذا ثبت التلاعب بها كما فى الانتخابات السابقة فإن النتيجة هى المزيد من ابتعاد الشعب عن العملية السياسية. الصورة قاتمة. ليس هناك بديل سياسى مهم للحكم العسكرى.

قضيت يومى الأخير فى كراتشى مع صيادى سمك فى قرية قرب نهير كورانجى. كان «شورتكت» عزيز قد وافق على إزالة المنغروف «شجر استوائى» حيث يعيش المحار والكركند «سرطان البحر»، والأرض يجرى استصلاحها لبناء دياموند ستى وشوجر ستى وبشاعات أخرى على طراز مبانى الخليج. وكان الصيادون يقومون بحملات ضد هذا التعدى على حقوقهم ولكن بدون جدوى. قال أحدهم ساخرًا: «نحتاج إلى تسونامى». تحدثنا عن ظروفهم المعيشية. قالت امرأة منهم «كل ما نحلم به هو مدارس لأطفالنا، دواء وعيادات فى قرانا، ماء نظيف وكهرباء فى بيوتنا. هل هذا كثير علينا؟» لم يذكر أى منهم الدين.. ■

المدارس الدينية في باكستان...

معاهد أم أوكار إرهاب؟!

ترى أمريكا أن طلاب المدارس الدينية كانوا هم المتورطون في تفجيرات «بالي» بإندونيسيا في عام ٢٠٠٢ ثم في ٢٠٠٥م والمدارس الدينية هي المتهمة في حوادث التفجيرات في مترو «لندن» في ٢٠٠٥/٧/٧

مصباح الله عبد الباقي

■■ لم كل هذا الاهتمام بالمدارس الدينية؟

إن قضية المدارس الدينية الأهلية في باكستان كثرت الكتابات حولها من قبل الكتاب الغربيين، وزاد الاهتمام بها من قبل ساستهم منذ ظهور حركة «طالبان» في أفغانستان عام ١٩٩٤م ووصولهم بعد ذلك إلى الحكم فيها عام ١٩٩٦م، وذلك لأن حركة طالبان كانت قد تشكلت من أفراد معظمهم من الأفغان الدارسين في المدارس الدينية الباكستانية، وقد ووجهت هذه الظاهرة في ذلك الوقت باستغراب شديد جدا؛ لأن الحركة المذكورة ظهرت فجأة من غير أن تسبقها إرهاصات قوية، وكان السبب الثاني للاستغراب هو قيام هذه الطبقة من المجتمع بهذا التحرك، لأن طلاب المدارس الدينية كانوا يعرفون بانعزالية شديدة، وكانوا معروفين بأنهم يعيشون في الماضي ولا علاقة لهم بحاضر أمتهم ولا بحاضر شعوبهم؛ لكنهم قلبوا كل الموازين والحسابات، وقاموا بهذه الحركة القوية التي سمع صداها ليس في أفغانستان وحدها بل في المنطقة كلها. ومن هنا بدأ المحللون يبحثون عن الجهة التي تقف وراءهم؛ لأنهم كانوا مقتنعين بأن التحرك الذاتي من قبل هذه الطبقة إن لم يكن مستحيلا فهو مستبعد جدا[١]. ومع هذا الظهور المفاجئ المستغرب فرحت بها القوى المحلية والدولية لأنها وجدت فيها جهة يستفاد منها في القضاء على الأحزاب الجهادية التي أدت دورها في التعجيل بالقضاء على الاتحاد السوفيتي، وفقدت الآن مبرر وجودها!! في نظر هذه القوى العالمية والمحلية. ومن هنا كان التعامل الأمريكي مع الظاهرة الطالبانية في تلك الفترة إما الإغماض أو السكوت أو المساعدة عن طريق وكلائها في المنطقة!!.

ولما بدأت حركة طالبان تخرج عن الإرادة الأمريكية، وبدأت ترفض الانقياد لها والرضوخ لمطالبها بخصوص قيادات تنظيم القاعدة الذين ورث نظام طالبان مشكلتهم من حكومة الأستاذ رباني السابقة عليه، فإن أغلبهم قد انتقلوا إلى أفغانستان في عهد الأستاذ برهان الدين رباني، فلما رفضت حركة طالبان المطالب الأمريكية بتسليم هؤلاء لها بدأت السياسة الأمريكية تجاهها تتغير وبالتبع تغيرت سياسة بعض الدول في المنطقة كذلك، وبدأت أمريكا تهتم بالمدارس الدينية التي اعتبرتها مشاتل (Nurseries) لتلك الحركة الجهادية الفتية الجديدة التي ظهرت في صفوف العلماء التقليديين، والتي بدأت ترفض الطلبات الأمريكية، وتخرج على نظامها العالمي الجديد الذي لا يتحمل ذلك بحال من الأحوال، وكانت هذه ظاهرة جديدة في هذه المنطقة، فإن الحركات الجهادية السابقة في الفترة القريبة الماضية كانت تقودها أو تؤيدها الحركات التجديدية بدل العلماء التقليديين كما حدث في الحركة الجهادية ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان.

ولما كانت المدارس الدينية في باكستان - في نظر الأمريكان ومن ورائها الدول الأوروبية - تغذي هذه الحركة زاد اهتمامها بالمدارس الموجودة فيها، وبدأت أمريكا وحلفاؤها تلحظ يد خريجي هذه المدارس أو طلابها في كل حادثة عنف تحدث في أي ناحية نائية من العالم، وبدأت تتهم هذه المدارس بأنواع من التهم، فاتهمت المدارس وخريجوها بالعمل الجهادي في كشمير، واتهموهم بحادثة الهجوم على البرلمان الهندي في «نيو دلهي» في ديسمبر عام ٢٠٠١م وكذلك ترى أمريكا أن طلاب المدارس الدينية كانوا هم المتورطون في تفجيرات «بالي» بإندونيسيا في عام ٢٠٠٢م ثم في ٢٠٠٥م والمدارس الدينية هي المتهمة في حوادث التفجيرات في مترو «لندن» في ٢٠٠٥/٧/٧م في نظر أمريكا والدول الغربية الموالية لها فعندما حدثت تلك الحوادث أتهم العديد من المدارس في باكستان بالتورط فيها؛ لأن بعض المتهمين بالتفجيرات كانوا قد زاروا بعض المدارس في باكستان أثناء زيارة سابقة لهم إلى باكستان! مع أن جميع المتهمين كانوا من خريجي الجامعات البريطانية في التخصصات العصرية، فلا تتهم تلك الجامعات بأنها أوكار إرهاب!! وتعتبر هذه المدارس أوكار إرهاب لأن بعض المتهمين بالتفجيرات زاروها مرة واحدة في حياتهم!، فكأن تأثير هذه الزيارة الوحيدة أكثر بكثير من تأثير الدراسة لسنوات طويلة في الجامعات البريطانية!. وترى أمريكا أن المقاومة ضد تواجدها في أفغانستان يقودها طلاب هذه المدارس وخريجوها، وأن كل هذه الأعمال وما أشبه ذلك مما تنسب إلى المدارس الدينية أعمال إرهابية، وبناء على هذا الافتراض تعتبر أمريكا وحلفاؤها هذه المدارس أوكار إرهاب، وتتهمها الجهات الغربية من مراكز الدراسات والبحث بأنها تدرب طلابها على الأسلحة وفنون القتال، وتعلمهم العنف واستخدام الأسلحة، ومن هنا يرون أنه يجب القضاء عليها بكل وسيلة ممكنة سواء عن طريق الضغط على الحكومة الباكستانية لتسن قوانين معينة للسيطرة عليها ولتخطو خطوات يتم بها تفريغها من المضمون وإبعادها عن أداء دورها في المجتمع، وأن لا تتورع في هذا حتى عن استخدام الأسلحة والقوة العسكرية ضدها بصورة فجة كما فعلت في حالة (لال مسجد).

بعد هذا الاهتمام الشديد من قبل الحكومات الغربية وأصحاب القرار السياسي في تلك الدول بالمدارس الدينية الأهلية، وإصدار مئات الدراسات عنها من قبل الجهات البحثية المؤثرة في القرار السياسي الغربي يتطلع كل مثقف في العالم الإسلامي يهمه ما يجرى حوله، وما

يخطط للعالم الإسلامى من قبل القوى المؤثرة فى القرار العالمى أن يعرف الحقيقة بعيدا عن التهوين والتهويل فى أمر المدارس الدينية، ومن هنا نحاول أن نستجلى فى هذا المقال بعض الحقائق حول هذه المدارس باختصار، ونجيب على بعض الأسئلة التى تدور فى ذهن القارئ عن حقيقة هذه المدارس، وخلفيتها التاريخية، والوضع الحالى لها، وعن حقيقة التهم الموجهة إليها بالإرهاب من قبل الجهات الغربية والشرقية، هذه بعض النقاط التى سنتناولها فى السطور القادمة بعون الله تعالى.

أ - التعريف بالمدارس الدينية

«المدارس» تطلق فى باكستان بل وفى شبه القارة الهندية كلها على المؤسسات التعليمية الأهلية التى تقوم بتدريس اللغة العربية وعلومها والعلوم الشرعية مجانا وبدعم مالى من أهل الخير من أبناء الشعوب المسلمة، وتسمى المدرسة أيضا بـ«الجامعة» و«دار العلوم» و«المدرسة العربية الإسلامية»، ويعتبر المسجد الجامع من أهم عمارات المدارس الدينية، بل وفى كثير من الأحيان يكون المسجد هو المبنى الأساسى للمدرسة، وهذا يعطى للمدرسة قداسة خاصة فى نفوس الناس.

المنهج الدراسى

الكتب الدراسية المقررة فى المدارس الدينية أغلبها باللغة العربية، وفى الغالب يشتمل المنهج التعليمى على تدريس العلوم والفنون التالية: التجويد وتفسير القرآن الكريم وعلوم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وعلوم الحديث والفقه الإسلامى وأصول الفقه والعقائد والكلام والسيرة النبوية وعلوم البلاغة وعلم الصرف العربى وعلم النحو والأدب العربى والمنطق القديم والفلسفة القديمة والتاريخ وعلم الأخلاق.

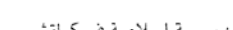
بالإضافة إلى بعض العلوم العصرية مثل: الرياضيات، والعلوم، واللغة الأردية، والدراسات الباكستانية.

وأغلب الكتب المقررة فى المنهج التعليمى للعلوم والفنون القديمة هى المتون المعقدة التى تشبه الألغاز والتى كتبت فى الفترة التى كان العلماء يهتمون فيها بكتابة المتون ويتفننون فيها. فيدرس على سبيل المثال فى النحو كتاب «الكافية لابن الحاجب» وفى علم الصرف «الشافية لابن الحاجب كذلك» وفى فن المنطق كتاب «التهذيب لجلال الدوانى» وكتاب «سلم العلوم لمحب الله البهاروى»، والكتب المقررة فى المنهج التعليمى للمدارس الدينية وإن كانت باللغة العربية إلا أن شرحها وتدريسها يتم باللغات المحلية. ويهتم المدرس فى الغالب بالكتاب وحل رموزه، بدل اهتمامه بالمعلومات الواردة فيه حول الموضوع، والمنهج الدراسى الحالى محل نقاش حاد بين الجهات المختلفة، فمنهم من يرى تغييره جذريا، ومنهم من يرى إجراء التعديلات المناسبة بطبيعة المنهج الحالى، ومنهم من يرى الاحتفاظ على المنهج الحالى على حاله.

ب - الخلفية التاريخية

المدارس الدينية ليست ظاهرة طارئة على المجتمع الباكستانى، بل المدارس الدينية متواجدة فى منطقة شبه القارة الهندية منذ استقرار الإسلام فيها فى عهد السلطان محمود الغزنوى (المتوفى فى عام ٤٢١هـ الموافق لشهر أبريل عام ١٠٣٠م) وكانت هذه المدارس هى المعاهد التعليمية الوحيدة فى المجتمع، ولم يكن هناك انفصال بين مؤسسات التعليم المدنى والتعليم الدينى، فكانت هذه المدارس تخرج كل المهنيين والخبراء الذين كان المجتمع يحتاج إليهم، واستمر الوضع على هذا المنوال فى كل العصور التاريخية التى مرت على المجتمع فى شبه القارة الهندية التى تعتبر باكستان الحالية جزءا منها، فاستمر نظام التعليم بنفس الطريقة فى عهد الغوريين، والمماليك، والخلجيين، وأسرة تغلق، وأسرة السادات، واللوديين، وازدهر التعليم فى العصر المغولى للهند العصر الذى بدأ بانتصار بابر فى معركة «بانى بت» الأولى عام ٩٣٢هـ الموافق عام ١٥٢٦م على إبراهيم لودهى ملك الهند حينذاك واستمر إلى أن سقط رسميا بعد ثورة المسلمين الشهيرة ضد الاستعمار الانجليزى عام ١٨٥٧م، وازهى عصور التعليم والتقدم فى فترة المغول عصر الملك الصالح اورنكزيب عالمكير، فقد نشأت مؤسسات تعليمية كثيرة جدا فى عصره إلا أن مدرستين من تلك المدارس كان لهما تأثير كبير على التعليم الدينى بعد ذلك، وما زال هذا التأثير قائما.

ولما استقر الإنجليز فى حكم شبه القارة الهندية فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى واستقلوا به بدأوا بصورة تدريجية القضاء على نظام التعليم الدينى أو بالأحرى على نظام التعليم الشرقى، فاستولوا على أوقاف المدارس الدينية ومصادر تمويلها، ومنعوا توظيف المتخرجين من تلك المؤسسات التعليمية فى مؤسسات الدولة، وكان ردود أفعال القائمين على المدارس الدينية شديدة تجاه هذه السياسة الجائرة للحكومة الإنجليزية لشبه القارة الهندية، فتحصنوا فى المدارس واعتبروا الحفاظ على المدارس الدينية من واجبهم


مدرسة إسلامية فى كراتشى



الديني، لأن التعليم في مؤسسات التعليم العصري، وخاصة في المدارس التي أنشأتها الحكومة الإنجليزية، كان مرافقا بالجهود التنصيرية، والنظام التعليمي الذي أنشأه الإنجليز كان مبنيا على التصور العلماني، فاستبعدوا منه التعليم الديني، ومن هنا نشأت الازدواجية في نظام التعليم: فظهرت مدارس للتعليم العصري وانتشرت بمساعدة الحكومة الإنجليزية وتشجيعهم، وبقيت المدارس الدينية على حالها تعمل بالمساعدات الشعبية بعيدة عن تأثير الدوائر الرسمية، ولما نشأت باكستان عام ١٩٤٧م ورثت هذا الانفصام بين نظام التعليم الديني ونظام التعليم العصري، وما زال الأمر كما كان لم يتغير مع مرور هذا الزمن الطويل لأسباب كثيرة ليس هذا محل ذكرها. فخلاصة الكلام أن المشكلة الأساسية التي يعاني منها نظام التعليم في باكستان وهو الازدواجية في مؤسسات التعليم الديني والعصري من مخلفات الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية.

ج - الاتجاهات الفكرية

تخضع المدارس الدينية في باكستان لاتجاهات فكرية مختلفة: يمكن أن نقسمها أولا إلى اتجاهين كبيرين: أولهما: أهل السنة، وثانيهما: الشيعة. ثم ينقسم الاتجاه الأول إلى أربع مدارس فكرية هي: المدرسة الديوبندية والمدرسة البريلوية والسلفية والجماعة الإسلامية والاتجاه الشيعي. وسيتم التعريف على هذه الاتجاهات باختصار فيما يلي:

أولا: الاتجاه الديوبندي

الديوبندي نسبة إلى جامعة إسلامية ذائعة الشهرة تسمى «دار العلوم ديوبند»، وهي من أكبر الجامعات الإسلامية الأهلية في شبه القارة الهندية، أنشئت في ١٥/ محرم ١٢٨٣هـ الموافق ٣٠/ مايو ١٨٦٧م في مدينة ديوبند (الواقعة شمالي الهند، على بعد ١٥٠ كيلومترا من دهلي العاصمة) بعدما قضى الإنجليز نهائيا على الحكم الإسلامي ولفظت الدولة المغولية أنفاسها الأخيرة، وفشلت ثورة المسلمين ضد الإنجليز عام ١٨٥٧م، وكادت تتكرر مأساة المسلمين في الأندلس على الأراضي الهندية.

أسهم في إنشاء دار العلوم ديوبند مجموعة من العلماء، على رأسهم الشيخ محمد قاسم النانوتوي (المتوفى ١٢٩٧هـ)، والعلامة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي (المتوفى ١٣٢٣هـ)، والشيخ الأديب ذو الفقار علي (المتوفى ١٣٢٢هـ)، والشيخ الحاج عابد حسين (المتوفى ١٣٣١هـ)، وغيرهم، وهذه المدرسة وإن كانت تتبع المذهب الحنفي لكنها تتميز بآرائها الخاصة في مجالات مختلفة. وكل من يتبع هذه المدرسة الفكرية في آرائها فتعتبر مدرستها تابعة للاتجاه الديوبندي.

ثانيا: الاتجاه البريلوي

البريلوية نسبة إلى الشيخ أحمد رضا خان البريلوي، كان جده سماه بهذا الاسم، وكان اسمه الأصلي محمد، واسمه الذي يدل على تاريخ ميلاده «المختار» وهو ١٢٧٢هـ الموافق ١٨٥٦م، وكان يسمي نفسه عبد المصطفى.

ولد الشيخ أحمد رضا خان بالتحديد في العاشر من شوال عام ١٢٧٢هـ الموافق ١٤/ يونيو عام ١٨٥٦م بمدينة بريلي بولاية اترا برديش بالهند التي تبعد عن دهلي حوالي ١٣٥ ميلا إلى جهة الجنوب الشرقي، ومدينة بريلي مركز منطقة «روهيل كند».

تخرج الشيخ أحمد رضا خان على يدي أبيه الشيخ نقي علي خان، ودرس عنده منهج (الدراسة النظامي)، ثم أخذ بعض العلوم عن الشيخ الشاه آل الرسول المارهروي (المتوفى عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٧٩م)، وكان هو مرشده في الطريقة والتصوف، وأخذ عن الشيخ عبد العلي الرامفوري (المتوفى عام ١٣٠٣هـ الموافق ١٨٨٥م) علوم الهيئة وبعض العلوم العقلية، ودرس عند الشيخ الشاه أبي الحسين أحمد النوري المارهروي (المتوفى عام ١٣٢٤هـ الموافق ١٨٨٣م) علم الجفر، وبرع في علوم كثيرة، وكان يكتب باللغات الفارسية والعربية والأوردية نظما ونثرا[٢].

أنشأ الشيخ أحمد رضا خان البريلوي مدرسة لنشر أفكاره، ولمقاومة أفكار مخالفيه من المنتمين لدار العلوم ديوبند عام ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م، وسمى هذه المدرسة باسم «مدرسة منظر الإسلام»، والشيخ أحمد رضا خان البريلوي وإن كان منتميا إلى المذهب الحنفي إلا أنه يميل إلى التصوف الخرافي ويغلب عليه الميل إلى بعض البدع العملية، ويرى بعض الآراء العجيبة والغريبة حول النبي صلى الله عليه وسلم، مثل اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس من البشر وإنما هو نور من نور الله تعالى، واعتقاده بأن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر مجالسهم، ويعتقد بجواز الاستعانة بالأموات وخاصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعبد القادر الجيلاني رحمة الله عليه.

وكل من يتبع آراء الشيخ أحمد رضا خان البريلوي يسمى «بريلويا»، وتعتبر مدرسته منتمية إلى الاتجاه «البريلوي» وهم يسمون أنفسهم «أهل السنة والجماعة».

ثالثا: الاتجاه السلفي

الاتجاه السلفي أو (أهل الحديث) اتجاه معروف في العالم الإسلامي عموما بسمت متقارب أو متشابه، ولهم مدارس متعددة في باكستان.

رابعا: الاتجاه الشيعي

الاتجاه الشيعي اتجاه معروف بعقائده وأفكاره، ولهم مدارس عديدة في باكستان خاصة في المناطق التي يقطنها الأغلبية الشيعية، وفي الغالب يكون المدرسون في هذه المدارس من خريجي الحوزات العلمية في مدينة «قم» بإيران، أو في مدينة النجف الأشرف بالعراق، وقد ازداد نشاط الشيعة بشكل غير مسبوق بعد الثورة الإيرانية في الثمانينيات من القرن الماضي، وخاضوا مواجهات دموية مع الأغلبية السنية بسبب مطالبتهم بتطبيق الفقه الجعفري في مجتمع ذي أغلبية سنية وبسبب سبهم وشتمهم للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

خامسا: الجماعة الإسلامية في باكستان

الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية الباكستانية جماعة إسلامية معاصرة، تعمل، كما تصرح في أدبياتها، لإقرار الشريعة الإسلامية في المجتمع وتطبيقها في حياة الناس، والوقوف ضد جميع الاتجاهات العلمانية التي تحاول إبعاد الإسلام عن سدة الحكم، أنشأها الأستاذ سيد أبو الأعلى المودودي المولود في ١٩٠٣م.

ولما أحس المودودي أن فكره قد انتشر عن طريق مجلته «ترجمان القرآن»، وأن مجموعة كبيرة من الناس قد اقتنعوا بفكرته، دعا عن طريق مجلته «ترجمان القرآن» لتجمعهم في لاهور، فاجتمع حوالي أربعين شخصا بدعوته في لاهور في ٣/ شعبان ١٣٦٠هـ الموافق ٢٦/ أغسطس عام ١٩٤١م، وأسسوا الجماعة الإسلامية، وانتخب هو أميرا لها.

ومع إعلان قيام دولة باكستان في (١١ من شوال ١٣٦٦ هـ الموافق ٢٨ من أغسطس ١٩٤٧م)، عاد المودودي مع زملائه إلى لاهور: حيث افتتح مقر الجماعة الإسلامية بها. ومن ذلك اليوم والجماعة الإسلامية مستمرة في عملها ودعوتها لإقامة دين الله وتطبيق شرع الله في واقع الحياة، وقد أنشأت الجماعة الإسلامية مدارس دينية متعددة في مختلف أنحاء باكستان، أو أنشأها الأفراد المنتمون للجماعة الإسلامية بصفتهم الشخصية وكل هذه المدارس تنسب إلى الجماعة الإسلامية.

د - حقائق وأرقام

لقد اختلفت آراء الكتاب حول عدد المدارس الدينية في باكستان حاليا، فقد بالغ الكتاب الغربيون في عدد المدارس الدينية الأهلية في باكستان، فقد أوصلها بعضهم إلى أربعين ألف مدرسة، والآخر أوصلها إلى خمسين ألف مدرسة، وهي أرقام تخمينية بتصريح من الكتاب أنفسهم، فقد قدم الدكتور جيسكا سترن (Jessca Stren) أحد الباحثين بجامعة هارفارد، دراسة عن المدارس الدينية، وكتب فيها، إلى جانب التهويلات والتمويهات والتشويهات الأخرى، أن عدد المدارس الدينية في باكستان يقع بين أربعين ألفا إلى خمسين ألف مدرسة[٣].

وكتب (PW Singer) بحثا قدمه لمعهد بروكنجز (Brookings Institution) في عام ٢٠٠١م ذكر فيه أن عدد المدارس الدينية في باكستان يبلغ ٤٥ ألف مدرسة دون أن يشير إلى مصادره التي استقى منها المعلومات.

وقد هول كثير من الكتاب الغربيين الآخرين من عدد المدارس الدينية في باكستان خطأ أو على سبيل العمد، وابتعدوا بذلك عن المناهج العلمية في بحوثهم ودراساتهم، ومن شأن مثل هذه المعلومات التي تجد مروجين كثيرين لها في الغرب، أن تقدم، مع الصورة الخاطئة

جهة الإلحاق	مدارس البنين	مدارس البنات	مدارس مختلطة	مجموع المدارس
المدارس الملحقة بوفاق المدارس (الاتجاه الديوبندي)	١.٣٧٩	٥٥٥	١.٥٢٠	٣.٤٥٤
تنظيم المدارس (الاتجاه البريلوي)	٨٣٣	٤٣٩	١.٣٨٢	٢.٦٥٤
رابطة المدارس الإسلامية (الجماعة الإسلامية)	٣٠٤	١٢١	٤٨١	٩٠٦
الاتحادات الأخرى (السلفية والشيعة)	٣٠١	١٣٤	٤٩٩	٩٣٤
غير الملحقة باتحادات المدارس	١.١٠٨	٥٦٦	١.٨٦٩	٣.٥٤٣
مجموع المدارس عام ٢٠٠٥م	٣.٩٢٥	١.٨١٥	٥.٧٥١	١١.٤٩١



عن برامجها، صورة مخيفة عن هذه المدارس إلى الجمهور الغربى بل وأصحاب القرار السياسى والعسكرى فى العالم الغربى، وأن ترسخ فى أذهانهم أن أفواجا من المتشددين والانتحاريين تدرب فى هذه المدارس، وإن لم يقض عليهم وعلى محاضنهم (المدارس الدينية) سينقضون بعد فترة وجيزة على العالم الغربى المتحضر!.

وترى الحكومة الباكستانية أن عدد المدارس الدينية الأهلية المسجلة لدى الاتحادات المختلفة وغير المسجلة لدى تلك الاتحادات كان يبلغ عام ٢٠٠٥م (١١٤٩١) مدرسة، وهذا العدد يشكل فقط (٠.٠٥) من إجمالى عدد المؤسسات التعليمية للتعليم العام الرسمية منها والخاصة الذى يبلغ (٢٢٧.٧٩١) مؤسسة تعليمية، والتفاصيل التى أصدرتها الحكومة الباكستانية[٤] لكل المدارس الدينية لعام ٢٠٠٥م موزعة على الاتجاهات المختلفة كانت على النحو التالى:

ويرى بعض الباحثين أن عدد المدارس قد يبلغ حاليا فى عام ٢٠٠٧م إلى ما يقرب من عشرين ألف مدرسة للبنين والبنات فى مختلف أنحاء باكستان.

وبناء على تلك الإحصائيات فإن عدد الطلاب والطالبات المسجلين فى المراحل الدراسية المختلفة بالمدارس الدينية كان ما يفوق مليون ونصف مليون طالب وطالبة، ونسبة الطالبات حوالى ٣٧٪ من إجمالى عدد الطلاب والطالبات، ويشكل الطلاب نسبة حوالى ٦٣٪ من إجمالى عدد الطلاب والطالبات، بينما يشكل طلاب وطالبات المدارس الدينية حوالى (٠.٠٤٪) من إجمالى عدد الطلاب المسجلين فى مؤسسات التعليم العام البالغ عددهم (٣٣.٣٧٩.٥٧٨) حسب الإحصائيات الرسمية لعام ٢٠٠٥م، وهذه النسبة أقل من نسبة المدارس الدينية بالنسبة لمؤسسات التعليم العام، والتفصيل الذى أصدرته الحكومة الباكستانية[٥] للطلاب والطالبات المسجلين فى المدارس الدينية فى عام ٢٠٠٥م موزعين على المراحل الدراسية كان كالتالى:

ويخمن بعض الكتاب أن عدد الطلاب والطالبات المسجلين فى المدارس الدينية يكون قد وصل إلى حوالى (١.٩) مليون طالب وطالبة.

عدد الأساتذة والمدرسين فى المدارس الدينية

وقد بلغ عدد المدرسين فى المدارس الدينية (٥٥٢١٠) مدرسين ومدرسات حسب الإحصائيات الرسمية التى أوردتها الحكومة الباكستانية على موقعها الرسمى[٦]، وعدد المدرسين من هذا المجموع الكلى (٤٢.٥٩١) بينما يصل عدد المدرسات إلى (١٢.٦١٩) مدرسة، وهذا يعنى أن المدرسات يشكلن ٢٣٪ من مجموع عدد المدرسين والمدرسات، والسبب فى ذلك أن المدرسين يدرسون فى مدارس البنات بسبب النقص فى المدرسات، بينما المدرسات لا يدرسن فى مدارس البنين، وتشير الأرقام المذكورة فى الجدول التالى أن نصف العدد المذكور لم يكملوا المرحلة المتوسطة من التعليم العام، والسبب فى ذلك أن ما يقرب من نصف العدد المذكور يعنى (٤٤٪) من المدرسين والمدرسات فى المدارس الدينية هم المحفظون (مدرسو تحفيظ القرآن الكريم) وهؤلاء فى الغالب يكتفون بحفظ القرآن الكريم وببعض التعليم الدينى، ولا يواصلون الدراسة فى مدارس التعليم العام.

هـ - دور المدارس:

المدارس الدينية القائمة فى باكستان حاليا التى تصل عددها حوالى عشرين ألف مدرسة عام ٢٠٠٧م تقدم خدمات عديدة ومتنوعة للمجتمع، منها على سبيل المثال الخدمات التالية:

التعليم المجانى: تقدم هذه المدارس حاليا، باعتراف من الحكومة الباكستانية، التعليم المجانى بمعنى الكلمة لحوالى (١.٩) مليون طالب وطالبة فى مختلف المراحل الدراسية، حتى أنها لا تكلفهم شراء الكتب الدراسية فإن أغلب المدارس الدينية توفر حتى الكتب الدراسية لطلابها فى بداية السنة الدراسية وتستردها منهم فى نهايتها، بل وفى كثير من الأحيان توفر لهم السكن والطعام المجانين وفى بعض الأحيان توفر بعض المدارس اللباس لطلابها، وأغلب الدارسين فى تلك المدارس أبناء الفقراء من الشعب الباكستانى الذين لا يستطيعون توفير مصاريف التعليم الرسمى لأولادهم، فإن حوالى ٤٧٪ من طلاب المدارس الدينية من المناطق الريفية التى تعتبر أكثر فقرا من المناطق الحضرية، وهذه خدمة لا تقدمها أية جهة ولا مؤسسة غير حكومية فى أى ناحية من أنحاء العالم.

الإرشاد الدينى وإصدار الفتاوى: تقدم المدارس الدينية خدمة الإرشاد الدينى للمجتمع، و تقوم بهذه المهمة دار الإفتاء التى تعتبر جزءا أساسيا للمدارس الكبيرة، ويكون عمل هذه الشعبة إصدار الفتاوى حسب الاستفتاءات التى ترد على المدرسة من قبل شرائح مختلفة فى المجتمع، ويتم إصدار الفتوى تحت رعاية أحد المشايخ المتخصصين فى الفقه ويعاونه مجموعة من الباحثين الشباب، ويكون فى الغالب نقولا عن الكتب القديمة، وقد تجد بعض دور الإفتاء التابعة لهذه المدارس تصدر فتاوى حول قضايا عصرية عويصة، وقد وصلت عدد الفتاوى الصادرة من قبل بعض دور الإفتاء التابعة للمدارس الكبيرة إلى عشرات الآلاف فى مختلف المجالات، ثم تطبع هذه الفتاوى فى العديد من المجلدات بعد المراجعة والتدقيق، وتنشر لتعميم الفائدة.

إعداد البحوث والدراسات: تنشئ بعض المدارس الكبيرة قسما خاصا لإعداد البحوث والدراسات، ويسمى فى الغالب دار التصنيف، يقوم هذا القسم فى الغالب بإعداد البحوث والدراسات ونشرها، أو يقوم بنشر الكتب التى يؤلفها الأساتذة والمدرسون فى هذه المدارس، لا شك أن أغلب الكتب التى تصدر من قبل هذه الأقسام فى المدارس تحمل طابع المدارس الدينية فى عدم الجدة، وعدم تناول القضايا العصرية التى تهم المجتمع، لكن مع ذلك تجد من بينها بعض الكتب المفيدة جدا أيضا.

إصدار المجلات: تصدر المدارس الكبيرة مجلات تسهم فى نشر الوعى الدينى، وتهتم كل مجلة بنشر أفكار الجهة التى تنتمى إليها إلى جانب القضايا الفقهية والبحوث العلمية الأخرى، إلا أنها تستغل فى بعض الأحيان للرد على المخالفين والطعن فيهم والتشنيع عليهم، تصدر بعض المدارس عدة مجلات وبلغات مختلفة مثل الأوردية والإنجليزية والعربية.

توفير الأئمة والخطباء للمساجد: ومن الخدمات المهمة التى تقدمها المدارس الدينية توفير الأئمة والخطباء لعشرات الآلاف من المساجد فى المدن الباكستانية وقراها وفى كثير من الأحيان يقوم المتخرجون من المدارس الدينية فى باكستان بواجب الإمامة والخطابة فى المراكز الإسلامية التابعة للجاليات المسلمة فى الدول الغربية، ومنذ عهد الجنرال محمد ضياء الحق، الحاكم العسكرى الأسبق لباكستان، يوظف الجيش الباكستانى خريجى المدارس الدينية فى المساجد التابعة للثكنات العسكرية أيضا.

توفير المدرسين والأساتذة للمدارس الدينية وللدراسات الإسلامية: وتقوم المدارس الدينية بتغذية المدارس الدينية بمدرسين جدد، فإن هذا العدد الكبير من المدارس الدينية يحتاج إلى مدرسين جدد باستمرار ويستكمل هذا النقص من خريجى هذه المدارس نفسها، وفى بعض الأحيان يوظف خريجو المدارس الدينية مدرسين لمادة الدراسات الإسلامية واللغة العربية فى المدارس والكليات العصرية التابعة للحكومة.

و - مشاكل المدارس

إلى جانب ذلك تعانى المدارس الدينية من مشاكل كثيرة ومتنوعة، منها ما يتعلق بالمنهج الدراسى، ومنها ما يتعلق بالمدرس، ومنها ما يتعلق بالطلاب، ومنها ما يتعلق بإدارة المدرسة، وتوظيف الطلاب بعد التخرج، هذه المشاكل تبحث فيها الجهات المختصة فى داخل مؤسسة التعليم الدينى، لكن المشاكل الكثيرة منها عالقة مازالت تنتظر الحل، لكنها ليست من قبيل المشاكل التى يتحدث عنها الإعلام الغربى، فإن هذه المشاكل التى أشرت إليها يجب البحث عنها لتطوير هذه المدارس بما يتناسب مع طبيعتها ويتناسب مع ظروفها التى نعيش فيها، أما المشاكل التى يطرحها الإعلام الغربى، فإنه يروم من ورائها تدمير نظام التعليم الدينى والقضاء عليه كليا ودمجه فى التعليم العام كليا، ومن أهم التهم الموجهة لهذه المدارس من قبل الإعلام الغربى التهمة بأنها أوكار إرهاب، ومشاتل تغذى خنادق القتال بالجنود.

	المناطق الحضرية			المناطق الريفية			مجموع كل المناطق		
	البنون	البنات	المجموع	البنون	البنات	المجموع	البنون	البنات	المجموع
المجموع	٤٨٥.٢٠٢	٣٢٦.٧٨٨	٨١١.٩٩٠	٤٦٠.٦٦٥	٢٤٥.٦٤٣	٧٠٦.٣٠٨	٩٤٥.٨٦٧	٥٧٢.٤٣١	٥١٨.٢٩٨
تعليم القرآن	٢١٣.٢٤٣	١٦١.١٧٠	٣٧٤.٤١٣	٢٣١.٤٩٦	١٤١.٨٧٣	٣٧٣.٣٦٩	٤٤٤.٧٣٩	٣٠٣.٠٤٣	٧٤٧.٧٨٢
تحفيظ القرآن	١٥٦.٢٨٨	٨٠.١٩٦	٢٣٦.٤٨٤	١٣١.٦٣٧	٤١.٧٤٢	١٧٣.٣٧٩	٢٨٧.٩٢٥	١٢١.٩٣٨	٤٠٩.٨٦٣
المرحلة الابتدائية	٣٦.٢٥١	٢٦.٠٩٦	٦٢.٣٤٧	٣٩.٩٥٣	٢٨.٤٦٤	٦٨.٤١٧	٧٦.٢٠٤	٥٤.٥٦٠	١٣٠.٧٦٤
المتوسطة	١٨.٩٣٩	١٠.٤٣٥	٢٩.٣٧٤	١٨.٣٥٨	١٠.٢٣٦	٢٨.٥٩٤	٣٧.٢٩٧	٢٠.٦٧١	٥٧.٩٦٨
الثانوية العامة	١٧.٥٨٥	١٤.٢٠٠	٣١.٧٨٥	١٣.٢٠١	٨.٠٠٧	٢١.٢٠٨	٣٠.٧٨٦	٢٢.٢٠٧	٥٢.٩٩٣
الثانوية الخاصة	١٢.٣٣١	١٠.٩٩٥	٢٣.٣٢٦	٨.٩٢١	٤.٢٢٦	١٣.١٤٧	٢١.٢٥٢	١٥.٢٢١	٣٦.٤٧٣
المرحلة العالية	٩.٩٤٢	٧.٣٢٨	١٧.٢٧٠	٥.٥٦٢	٢.٥٠٦	٨.٠٦٨	١٥.٥٠٤	٩.٨٣٤	٢٥.٣٣٨
المرحلة العالمية	٩.٨٧٤	٦.٢٤٢	١٦.١١٦	٣.٣٦٠	٢.٠٧٦	٥.٤٣٦	١٣.٢٣٤	٨.٣١٨	٢١.٥٥٢
مرحلة التخصص	١.٦٩٤	٩٨٨	٢.٦٨٢	١.١٧٠	٢٢٥	١.٣٩٥	٢.٨٦٤	١.٢١٣	٤.٠٧٧
المتفرقة	٩.٠٥٥	٩.١٣٨	١٨.١٩٣	٧.٠٠٧	٦.٢٨٨	١٣.٢٩٥	١٦.٠٦٢	١٥.٤٢٦	٣١.٤٨٨

ز- تهمة الإرهاب

تتهم المدارس الدينية فى باكستان بالإرهاب باستمرار خاصة بعد حوادث الحادى عشر من سبتمبر، وبعد الهجوم الأمريكى على أفغانستان واحتلاله لها، وتتهم المدارس الدينية بأنها تغذى المقاومة ضد القوات الأجنبية فى أفغانستان، ولا تحدث حادثة من حوادث العنف فى منطقة من مناطق العالم إلا ويبحثون عن يد المدارس الدينية وراءها، وتروج الإعلام الغربى خاصة بأن المدارس الدينية تدرب طلابها على استخدام الأسلحة وفنون القتال، لكننا لو رجعنا إلى الحقائق لثبت أنها لا تؤيد هذه المزاعم، هذه الحقائق باختصار كما يلى:

أولا: لا توجد مادة واحدة فى المنهج التعليمى للمدارس الدينية تتعلق بشىء من الفنون العسكرية، بل ويعترض على المدارس الدينية أنها لاتدرس حتى تاريخ بعض الحركات الجهادية أو الحركات التجديدية فى المنطقة، وتركز على العلوم والفنون القديمة التى لا صلة لها بالحياة اليوم مثل الفلسفة القديمة وغيرها.

ثانيا: لم تثبت الحكومات الباكستانية المتعاقبة تورط مدرسة واحدة فى التدريب العسكرى أو حوادث العنف مع التصريحات الكثيرة لوزراء الداخلية لتلك الحكومات ضد المدارس الدينية، ومن أصرح الأمثلة التى اتهمت فيها مدرسة وإدارتها بالإرهاب هى حادثة مدرسة «جامعة حفصة للبنات» فى المسجد الأحمر (لال مسجد) ولم تكن مشكلة تلك المدرسة الإرهاب أو العنف، كانت مشكلتها مشكلة سياسية أو الاحتجاج على بعض تصرفات الحكومة بطريقة مخصوصة قد تكون تلك الطريقة خاطئة لكن المشكلة لم تكن مشكلة الإرهاب أو العنف، كانت إدارة المدرسة المذكورة وطلابها وطالباتها تعترض على عدة أمور، أولها قرار الحكومة بهدم مجموعة من المساجد فى مدينتى «راولبندى» و«إسلام آباد» بحجة أنها تشكل خطرا على أمن الشخصيات رفيعة المستوى فى الدولة وفى الجيش، أو أنها بنيت على أراض حكومية، ولتسجيل احتجاجهن استولت طالبات جامعة حفصة (لال مسجد) على مكتبة للأطفال مجاورة لمدرستهن، واشترطن تخليتها بعد أن تتعهد الحكومة بالتخلى عن قرار هدم المساجد المقرر هدمها، وكان الأمر الثانى الذى احتج عليه طلاب تلك المدرسة وطالباتها هو انتشار مراكز الدعارة فى مدينة إسلام آباد التى ازداد انتشارها فى الآونة الأخيرة وخاصة بعد سن الحكومة لقانون «صيانة حقوق النساء» الذى هو فى الحقيقة تعديل فى قانونى «الزنى» و«القذف» وكان هدف الحكومة من سن القانون المذكور، فى رأى عامة العلماء والمعارضين للتوجهات الانفتاحية لحكومة الجنرال مشرف، فتح المجال لترويج الفساد الأخلاقى، وتهيئة الظروف للتحلل والتحرر بالمفهوم الغربى للكلمتين، وكانت طريقة احتجاجهم أنهم كانوا يذهبون لتلك المراكز ويحضرون النساء المتورطات فى الفساد الخلقى أوكانوا يحضرون معهم من يدير تلك المراكز، وكانوا ينصحونهم بترك هذا العمل الشنيع، ويعرضون عليهم البدائل العملية فى حالة تركهم إياه، ثم كانوا يخلون سبيلهم، وكان الأمر الثالث الذى احتجوا عليه هو تورط الجيش الباكستانى فى القتال ضد القبائل الباكستانية بتشجيع من أمريكا، وكانت طريقة احتجاجهم فى ذلك أن أصدرت دار الإفتاء التابعة للمدرسة المذكورة (مدرسة لال مسجد) فتوى شرعية بعدم جواز ذلك، لم تكن هناك تهمة سوى هذه الأمور وما صاحب ذلك من بعض الحوادث البسيطة، فلم يتهموا بقتل أحد ولا بتفجير قنبلة، لكنهم مع ذلك عاملتهم حكومة الجنرال مشرف معاملة المجرمين الخطيرين، ولما أعلن الرئيس الأمريكى جورج بوش أن العملية العسكرية ضد المسجد الأحمر فى إسلام آباد جزء من حربنا ضد الإرهاب والإرهابيين، أدرك الشعب الباكستانى أن الجنرال مشرف قام باستخدام الجيش والقوة العسكرية بهذه الصورة البشعة ضد مدرسة اعتصم فيها مجموعة من طلابها إرضاء لأمريكا وبطلب من الرئيس الأمريكى، ولم يكن الأمر متعلقا بالإرهاب أو العنف من قبل المدرسة المذكورة أو إدارتها أو طلابها أو طالباتها.

ثالثا: التاريخ الطويل للمدارس الدينية فى باكستان بل وفى شبه القارة الهندية شاهد على أنها معاهد تعليمية محضة ولم تتورط فى وقت من الأوقات فى أعمال العنف.

لكن السؤال الذى يطرح نفسه ويلح على البحث عن الإجابة هو عن سبب اهتمام الدول الغربية عموما وأمريكا خصوصا بالمدارس الدينية ومحاربتها بالصورة التى نراها ونشاهدها فى هذه البرهة من الزمن، فإنها لا تتورع حتى عن استخدام القوة العسكرية ضدها بأبشع صورها، فضلا عن محاربتها إياها بالوسائل السياسية والاقتصادية، فقد قصفت مدرستين؛ إحداهما فى منطقة «باجور» القبلية قصفتها بالصواريخ فى٢٩/ اكتوبر عام ٢٠٠٦م وقتلت فيها أكثر من (٨٠) طالبا كانت أعمارهم أقل من عشرين سنة، كانوا يحفظون القرآن الكريم، وبعضهم كانوا قد أكملوا حفظه، والأخرى كانت فى منطقة «دته خيل» وقتلت فيها أكثر من ٣٢ شخصا، ولما كثر الاحتجاج الشعبى فى باكستان وخافت الحكومة من ردود الأفعال القوية للشعب تحملت مسؤولية القصف على عاتقها، وأعلنت أنها هى التى قصفت المدرستين، ولم تقصفها أمريكا!، وأشادت أمريكا وبريطانيا، وأستراليا بالعملية العسكرية ضد (لال مسجد) المسجد الأحمر التى وقعت فى فترة (من ٢٠٠٧/٧/٣ إلى ٢٠٠٧/٧/١٠)، إلى جانب ذلك حاولت بكل الطرق الممكنة أن تضيق على المدارس الدينية فى جمع التبرعات.

ويبدو أن السبب الحقيقى وراء هذه الهجمة الشرسة التى تتعرض لها المدارس الدينية من قبل الإعلام الغربى والدول الغربية وعلى رأسها أمريكا القضاء عليها، ليس بسبب تورطها فى العنف والإرهاب، بل لأن القضاء عليها وعلى نظام التعليم الإسلامى فى كل البلدان جزء من استراتيجيتها فى ما يستعد له الغرب فى «صدامه» مع الإسلام وحضارته، فإن الغرب يتصور أن نظام التعليم الإسلامى هو الذى يغذى الجبهة الإسلامية المعارضة له، والمدارس الدينية جزء من أهم أجزاء النظام التعليمى المذكور، ومن هنا تتعرض لهذه الهجمة الشرسة من قبل الدول الغربية والحكومة الباكستانية على حد سواء.

نعم يعترض طلاب المدارس الدينية وخريجوها وعلماؤها مثل باقى أفراد المجتمع الباكستانى على ازدواجية المعايير الأمريكية فى التعامل مع قضايا المسلمين، ويعترضون على السياسات الأمريكية المتهورة التى عرضت العالم بأكمله لمخاطر كبيرة تهدد البشرية بكاملها، كما يعترضون على سياسة حكومة الجنرال مشرف فى تحالفها مع أمريكا فى حربها على ما تسميه إرهابا، ويحتجون عليها، ويعتبر الغرب هذا الاعتراض من قبل المدارس الدينية على سياسات حكومة الجنرال مشرف المتحالفة مع أمريكا فى حربها المزعومة على الإرهاب إرهابا وعنفا، كما يعتبر الاحتجاج على ما قامت به أمريكا من قتل الناس وتشريدهم لمجرد تهمة وما تقوم به حتى الآن إرهابا وعنفا، نعم إن كان هذا إرهابا وعنفا فبعض طلاب المدارس الدينية وخريجوها متورطون فى ذلك، لكنهم ليسوا وحدهم بل يوافقهم فى ذلك جمهور كبير فى المجتمع الباكستانى وخارجه، ومن هنا إن كانت أمريكا تريد أن تعالج موجة العنف الصاعدة فى العالم كله وإن أرادت أن تقلل مشاعر الكره تجاهها فى العالم الإسلامى فليس طريقها هذه الهجمة الشرسة على المدارس الدينية بل حلها مراجعة السياسات الخارجية والداخلية بتأن وهدوء وترك التهور والظلم، والابتعاد عن الغرور، ولا يستبعد ذلك من عقلاء الشعب الأمريكى. ■

التوزيع حسب المؤهلات العلمية	التوزيع حسب مجال التدريس				
	المتفرق	التخصص	الدرس النظامى	تحفيظ القرآن	المجموع
المجموع الكلى	٦.٩٣٢	٣.٠٩٩	٢٠.٩٠٦	٢٤.٢٧٣	٥٥.٢١٠
لم يكملوا المتوسطة	٢.٠٦١	٧٧٧	٧.٤١١	١٣.٥٥٨	٢٣.٨٠٧
أكملوا المتوسطة	١.٩٥٧	٦٥٤	٦.١١٦	٦.٢٧٧	١٥.٠٠٤
أكملوا الثانوية	١.١٩٤	٤١٩	٢.٦٥٧	٢.٢٦٥	٦.٥٣٥
تخرجوا من الجامعة	٩٣١	٥٠٠	١.٩٧٧	١.١٧٨	٤.٥٨٦
فوق مرحلة الليسانس	٧١٦	٦٢١	٢.٤٧٣	٨٥٠	٤.٦٦٠
ماجستير الفلسفة	٤٩	٦٤	١٨٣	٨٢	٣٧٨
الدكتوراة	٢٤	٦٤	٨٩	٦٣	٢٤٠

هوامش:

١ - لست هنا بصدد البحث عن خلفية ظهور حركة طالبان، وهل كانت نتيجة تحرك ذاتى للقائمين بها، أم كانت مدفوعة، أم أنها ظهرت بتحرك ذاتى من قبل القائمين بها ثم حاولت القوى المحلية والدول المجاورة والقوى العالمية استغلالها والاستفادة منها لأهدافها، وقد تحدثت عن كل هذه القضايا وغيرها فى كتاب بعنوان «طالبان أفغانستان من حلم الملا إلى إمارة المؤمنين»، نشره معهد الدراسات السياسية (القسم العربى) بإسلام آباد عام ١٩٩٧م.

٢ - راجع مجموعة الرسائل الرضوية ج: ٢ ص: ٣٠١ وما بعدها.

٣ - جريدة (Dawn) الباكستانية عدد ٢/ديسمبر عام ٢٠٠٢م.

٤ - راجع:
http://www.statpak.gov.pk/depts/fbs/publications/ nec2005/nec46.pdf

5 - .html2005/nec2005http://www.statpak.gov.pk/depts/fbs/publications/nec

6 - http://www.statpak.gov.pk/depts/fbs/publications/nec2005/nec2005.html



مدرسة على الحدود الأفغانية

بين المسجد والمدرسة



سعيد عبدالفتاح عاشور



دأب العلماء على الجلوس فى المساجد، وحول كل واحد منهم حلقة من طلاب العلم. فإذا حان وقت الصلاة، وارتفع صوت المؤذن مناديًا (الله أكبر) هب الجميع لأداء الفريضة



لكل حضارة عبر عصور التاريخ صفاتها المميزة التى تكسبها طابعًا خاصًا يميزها عن غيرها من الحضارات السابقة عليها أو اللاحقة بها. وإذا كانت الحضارة الإسلامية باعتراف كافة الباحثين فى الشرق والغرب هى أعظم حضارة عرفها العالم أجمع فى حقبة العصور الوسطى، فإن من أبرز الصفات المميزة لهذه الحضارة أنها حضارة إنسانية، استهدفت خير الإنسان والرحمة به، وتحقيق أكبر قدر من النفع له، والعمل على السمو به إلى أعلى المستويات روحيًا وفكريًا ومعيشيًا.

وفى هذا الإطار حفلت الحضارة الإسلامية بعديد من المؤسسات المتباينة فى أصولها وتكوينها وطابعها العام وأهدافها، ولكن يربطها بعضها ببعض رباط مشترك هو أنها استهدفت خير الفرد والمجتمع. ومن هذه المؤسسات ما غلبت عليه الصفة الدينية كالمساجد والخانقاوات والزوايا، ومنها ما اتخذ طابعًا اجتماعيًا كالحمامات والسبل والبيمارستانات، ومنها ما استهدف تحقيق رسالة علمية وتعليمية كالمدارس والمكاتب وبيت الحكمة ودار العلم، ومنها ما تميز بوضعه الاقتصادى كالوكالات والخانات والفنادق والقياس والأسواق.. وغير ذلك. وفى حالات كثيرة تتعدد ألوان النشاط فى المؤسسة الواحدة، بمعنى أن تجمع المؤسسة بين لونين أو أكثر من ألوان النشاط الحضارى، ولكن يظل أحد هذه الألوان، غالبًا على غيره، بحيث يكسب المؤسسة صفتها المميزة، المعبرة عن وجهها الحقيقى وهدفها الرئيسى وطابعها المميز. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر - أن المدرسة الزمامية التى بناها سنة ٧٩٧هـ الأمير زمام الدين مقبل الرومى. زمام (الأدر) الشريفة للسلطان الظاهر برقوق. «جعل بها درسًا وصوفية ومنبرًا يخطب عليه فى كل جمعة»، بمعنى أنها جمعت بين وظائف المدرسة والخانقاة والجامع.

ومهما تتباعد أو تتقارب هذه المؤسسات التى تميزت بها الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، فى أهدافها ومهامها وطابعها، فإن المسجد ظل دائمًا وأبدًا يتبوأ مكان الصدارة، ليبدو فى صورة المؤسسة الأولى فى الإسلام التى غدت رمزًا وعنوانًا له ومقرًا لعديد من ألوان النشاط التى ارتبطت به وعبرت عنه. وفى فجر الإسلام، أقامت طلائع المسلمين المهاجرين إلى يثرب مسجد قباء، حتى هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام فأقام مسجده فى المدينة المنورة، وشارك بنفسه فى عملية بنائه، واتخذه مقرًا لحكومة الدولة الإسلامية الوليدة، حتى قدر له أن يدفن فيه عند وفاته. وفى جو البساطة الذى أحاط بالدولة الإسلامية، فى مرحلة النشأة، كان المسجد المتعدد الأوجه، فهو بيت الله الذى تقام فيه الصلاة ويتلى القرآن الكريم، وهو دار القضاء الذى يجلس فيه القضاة ليحكموا بين الناس بما أنزل الله، وهو مقر الحكومة الذى يخرج منه المبعوثون ويستقبل فيه السفراء، وتعقد فيه الألوية وتنطلق منه الجيوش للغزو، وهو دار العلم الذى يلتقى بين جوانبه المعلمون والمتعلمون ليتدارسوا أصول دينهم وأركانه ويتدبروا القرآن وأحكامه، ويحيطوا بسنة نبيهم وأحاديثه.

وبازدياد أعداد الداخلين فى الإسلام، تعددت المساجد فى الأمصار، وصار لا يكتفى بمسجد جامع واحد فى المدينة الواحدة، وإنما كثرت المساجد الجامعة وتقاربت فى المدينة الواحدة، منها ينطلق الأذان، وفيها تؤدى الصلوات، وتلقى خطبة الجمعة، وربما بلغ من تقارب المساجد بعضها من بعض أن تتداخل أصوات المؤذنين والمصلين فيها، مما أثار استياء بعض أهل العلم والمعرفة. يحكى المقريزى عن موضعين بالقاهرة كانت تقام فيهما الصلاة، بحيث «يسمع كل من صلى بالموضعين تكبير الآخر، وهذا وأنظاره من شنيع ما حدث فى غير موضع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم..!!».

ثم كان أن أدى اتساع الدولة الإسلامية من ناحية وارتقاء نظمها نتيجة المجتمع الإسلامى والاحتكاك بالحضارات الأخرى التى سادت المنطقة من ناحية أخرى، إلى مولد مؤسسات أخرى متنوعة الأغراض، تنهض بخدمة المجتمع، مما خفف عن المساجد العبء الكبير الذى تحملته فى الدور الأول من أدوار مولد الدولة الإسلامية، وهكذا ظهرت بيوت للإمارة استوعبت العديد من أجهزة الحكم، ودور للقضاء تتحمل صياح المتقاضين ومشاداتهم ومنازل للتجار ينزلون بها خلال أسفارهم، ومكاتب لتعليم الأيتام وتأديب الصغار.. وبذلك أخذ المسجد يتخفف من كثير من الأثقال الملقاة على عاتقه، ليتفرغ للمهام الدينية

←

بحث قدمه الكاتب إلى ندوة «المدارس فى مصر الإسلامية التى نظمها المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ١٩٩١

ظلت المساجد تمثل المكان المختار لتلقين العلم، حتى العلوم العقلية والتجريبية

الأساسية التى ارتبط بها وأقيم من أجلها.

وهناك لون من ألوان النشاط الحضارى فى الإسلام، ارتبط ارتباطًا وثيقًا بشئون العبادة والدين، ونعنى بهذا اللون النشاط العلمى الذى لم يقصد به فى صدر الإسلام إلا العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه.. ثم ما تفرع عن هذه العلوم من نحو وتاريخ. وكان من الطبيعى أن يتخذ هذا النشاط من المساجد مقرًا له. جاء فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان يجلس فى مسجده بالمدينة يبصر الناس بشئون دينهم ودنياهم، ويفسر لهم القرآن الكريم، ويجيب عن أسئلتهم، ويوضح لهم ما صعب عليهم فهمه من أحكام الدين. وبعد الرسول (ص) انتشر الصحابة ثم التابعون فى الأمصار يجلسون فى المساجد ويلتف حولهم المسلمون الجدد لينهلوا من علمهم ما يرتبط بالقرآن والحديث وسيرة الرسول (ص) وأحكام الدين. وهكذا ولدت بين جنبات المساجد العلوم الدينية المتعددة، فدأب العلماء على الجلوس فى المساجد، وحول كل واحد منهم حلقة من طلاب العلم يتلقون العلم على أيديهم. فإذا حان وقت الصلاة، وارتفع صوت المؤذن مناديًا (الله أكبر) هب الجميع لأداء الفريضة، ثم تنتظم حلقات العلم مرة أخرى بعد الصلاة.



ومع اتساع دائرة الحضارة الإسلامية، وتطورها، تجاوزت الرغبة فى طلب العلم نطاق العلوم الدينية إلى غيرها من العلوم النقلية والعقلية. وكان أن ظهرت حركة الترجمة لتنقل إلى المسلمين معارف أصحاب الحضارات القديمة، وبخاصة اليونانيون والفرس وغيرهم. وسرعان ما ظهر أن المسجد بطبيعته وطابعه لا يتسع لهذه الألوان الجديدة من ضروب المعرفة، ومن ثم ظهرت مراكز. مثل بيت الحكمة ودار العلم. لتستوعب حركة الترجمة إلى العربية وكذلك العلوم العقلية والتجريبية. فضلاً عن بعض النزعات المذهبية والفكرية. وقد تمتعت هذه المراكز الجديدة برعاية الخلفاء، مثل هارون الرشيد الذى أنشأ بيت الحكمة فى بغداد، ومثل الخليفة المأمون الذى أرسل مبعوثين من العلماء إلى بلاد الروم لجلب الكتب اليونانية فى الطب والكيمياء والفلسفة وغيرها وترجمتها إلى العربية فى بيت الحكمة. أما دار العلم التى أنشأها الفاطميون فى مصر فكان محور نشاطها الدعوة الفاطمية وأصول المذهب الإسماعيلى وما يرتبط به من فقه وعقائد. ومن الواضح أنه لا يوجد موضع لعلوم أهل السنة وفقههم فى هذه المؤسسات، الأمر الذى أدى إلى ظهور مؤسسات أخرى جديدة. أو زوايا العلم التى وجدت فى بعض المساجد، مثل الزاوية التى نسبت إلى الإمام الشافعى بجامع عمرو بن العاص، والزاوية المجدية التى رتبها مجد الدين أبوالأشبال (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) وزير الأشرف موسى الأيوبى ورتب لها عدة أوقاف، مما مكنها من البقاء حتى أيام المقريزى فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد. ومع ذلك فقد ظلت المساجد ـ وبخاصة الكبرى ـ تمثل المكان المختار لتلقين العلم، حتى العلوم العقلية والتجريبية ـ مثل الطب ـ ظلت تدرس أحيانًا. وحتى وقت لاحق ـ بالمساجد. ومن ذلك ما ذكره عبداللطيف البغدادى (ت ٦٢٩هـ) من أن درسًا فى الطب كان يلقى فى الأزهر فى منتصف نهار كل يوم، ولكن فى الوقت الذى عاشه عبداللطيف البغدادى. فى القرن السابع الهجرى، الثالث عشر للميلاد. كانت قد ظهرت المدرسة لتنافس المسجد فى مكانته كمركز للنشاط العلمى فى العالم الإسلامى. وإذا كان المسجد يفسر فى اللغة بأنه موضع السجود ومكان الصلاة، فإن المدرسة تفسر بأنها موضع الدرس، ويقال درس الكتاب درسًا ودراسة، أى قرأه وأقبل عليه ليحفظه ويفهمه. أما المدرس فهو «الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف ونحو ذلك». ومن هذا يبدو أن فكرة المدرسة ارتبطت بالعلوم الدينية، أو العلوم الشرعية.

يذكر المقريزى أن المدارس كانت مما استحدث فى الإسلام، إذ لم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين «وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة» أى فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر للميلاد، ويقال إن أول مدرسة بنيت فى الإسلام هى المدرسة البيهقية فى نيسابور بإقليم خراسان. ثم تتابع إنشاء المدارس بعد ذلك، فاشتهرت منها المدرسة النظامية ببغداد، وقد نسبت إلى نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ملكشاه، وقد شرع فى بنائها سنة ٤٥٧هـ، وتم البناء فى سنة ٤٥٩هـ.

ومهما يقال من أن السلاجقة وأتباعهم توسعوا فى إنشاء المدارس لتكون مراكز لتدريس فقه أهل السنة وعلومهم، مما يساعد على التصدى للشيعة والحد من نفوذهم، فإننا. من وجهة نظرنا. يجب أن نضع موضع الاعتبار أن اتساع دائرة العلم، وازدياد أعداد طلاب العلم، تطلب إقامة مراكز خاصة بالتعليم يكون الهدف الأول من وجودها أن تستوعب هذا الكم الكبير من الدراسات ومن الطلاب. وبين رحابها يجتمع المعلمون والمتعلمون، وربما اقتصر التردد عليها والإقامة فيها على أهل العلم وحدهم. دون غيرهم. ليمارسوا فيها نشاطهم. يذكر المقريزى فى حديثه عن المدرسة الناصرية أنه كان «لا يملك غريب أن يصعد إليها». وهكذا بخلاف المسجد الذى كانت أبوابه مفتوحة على مصاريعها أمام كل مسلم، سواء كان من رجال العلم أو من غير رجال العلم. وكان بحكم طابعه وجذوره وأصوله، وما جاء عنه فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، أقرب إلى قلوب المسلمين، وأيسر فى التردد عليه وقضاء الساعات بين رحابه. وحسبه أنه بيت الله.



وقد خصصت كل مدرسة لمذهب أو أكثر من مذاهب أهل السنة، وفقما يحدد مؤسس المدرسة ومنشئها من ذلك أن المدرسة النظامية. مثلاً. كانت وقفًا «على أصحاب المذهب الشافعى أصلاً وفروعاً». وهكذا حتى أنشأ الخليفة المستنصر بالله العباسى (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ/١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م) المدرسة التى نسبت إليه فى بغداد سنة ٦٣١هـ، وجعلها لمذاهب أهل السنة الأربعة، فكانت أول مدرسة فى الإسلام جمعت بين كل المذاهب الحنفى والشافعى والحنبلى والمالكى.

أما مصر فكانت فى الحقبة التى شهدت ظهور المدارس فى المشرق تحت حكم الفاطميين، وهم شيعة إسماعيلية، ولذا قال البعض إن مصر لم تأخذ بفكرة إنشاء المدارس إلا فى عهد صلاح الدين، الذى أسقط الخلافة الفاطمية، وربط مصر بالخلافة العباسية السنية، وربما تأثر أصحاب هذا الرأى بعبارة ذكرها المقريزى نصها «وأما مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين، ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة (بناء المدارس)، وإنما هم شيعة إسماعيلية».

على أن هناك شواهد تجعلنا لا نأخذ بهذا الرأى، إذ يشير عدد من النصوص المعاصرة إلى أنه وجدت مدارس بمصر فى العصر الفاطمى قبل عهد صلاح الدين. وإذا كان البعض يؤكد أن فكرة المدرسة ارتبطت بالمذهب السنى، فإن علينا أن نضع موضع الاعتبار أن أهل مصر ظلوا طوال العصر الفاطمى متمسكين بمذهب أهل السنة، وأنه على الرغم من جهود الفاطميين فى الدعوة لمذهبهم فإن هذه الدعوة لم تلق استجابة من أهل مصر. يضاف إلى ذلك أن صلة مصر الروحية والفكرية بالعالم السنى لم تنقطع طوال العصر الفاطمى، فتردد عليها بعض شيوخ العلم ورجال الدين من أهل السنة. وبدراسة تاريخ الحقبة التى حكم فيها الفاطميون مصر، يتضح لنا أن هناك من أهل السنة من شغلوا بعض الوظائف والمناصب الإدارية.

وهكذا ظل المذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى مقصورًا على فئة الحكام من الخلفاء، ومن أحاط بهم وارتبط بهم من الأتباع وهؤلاء اتخذوا من القاهرة مركزًا رئيسيًا للدعوة الفاطمية ولنشاط الدعاة لها. أما خارج مدينة القاهرة، فإن الدعوة الفاطمية اتصفت بالضعف حتى كادت تخبو فى الأقاليم البعيدة عن عاصمة البلاد، ولعل فى هذا بعض السر فى أن أولى المدارس السنية التى عرفتها مصر فى العصر الفاطمى كانت خارج القاهرة، وفى مدينة الإسكندرية بالذات. ويفسر هذا أن المدارس القليلة التى عثرنا على أسمائها فى مصر الفاطمية، كانت محدودة الشهرة، تبدو وكأن جوًا من التستر وعدم الرغبة فى الظهور أحاط بها، وذلك حرصًا من القائمين عليها والمنتمين إليها على عدم استثارة الحكام الشيعة.



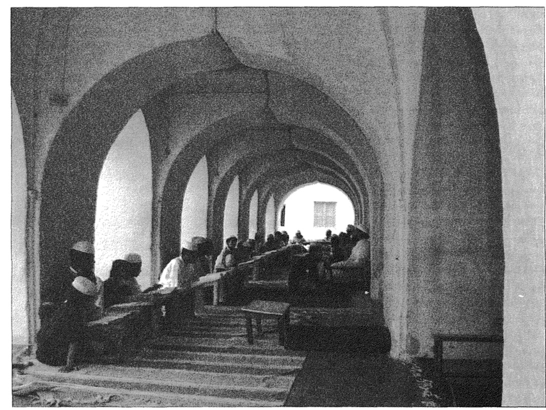
يذكر ابن خلكان فى ترجمة العادل ابن السلار (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) وزير الخليفة الظافر الفاطمى أنه «كان ظاهر التسنن، شافعى المذهب». ومع ذلك فقد صار العادل واليًا على الإسكندرية. وفى أثناء ولايته على الثغر، «وصل الحافظ أبوطاهر السلفى. رحمه الله تعالى. إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به فاحتفى «العادل» به، وزاد فى إكرامه، وعمر له هناك مدرسة (سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٦م) وفوض تدريسها إليه، وهى معروفة إلى الآن، ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها».



ألـواح الخشـب . موريتـانيـا



مدرسة داخل مسجد فى الهند يعود تاريخ انشائه إلى القرن الثامن عشر



ونخرج من هذا النص بحقيقتين: الأولى هى أن بعض أهل السنة ولوا مناصب لها وزنها فى الدولة الفاطمية، مما جاء مصحوبًا بتردد بعض علماء أهل السنة على مصر فى العصر الفاطمى، حيث مارسوا نشاطًا علميًا، وبخاصة خارج القاهرة. أما الحقيقة الثانية فهى ظهور المدرسة على أرض مصر فى أيام الدولة الفاطمية، قبل بزوغ نجم صلاح الدين.

وبالإضافة إلى هذه المدرسة، التى عرفت باسم «السلفية»، نسبة إلى الحافظ أبى طاهر أحمد السلفى، هناك مدرسة أخرى ورد ذكرها فى المصادر المعاصرة، أنشأها بالإسكندرية أيضًا الوزير رضوان الولخشى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م)، أى فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله. وقد عرفت هذه المدرسة باسم العوفية نسبة إلى الفقيه المالكى أبى طاهر بن عوف الذى قام بالتدريس فيها. بل إن الرحالة بنيامين التطيلى الذى زار الإسكندرية فى فجر مولد الدولة الأيوبية ذكر أن بها عشرين مدرسة.

ومهما يكن من أمر، فإن سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية فى مصر، صحبه التوسع فى إنشاء المدارس، ذلك أن صلاح الدين الأيوبى اقتدى بسيده نور الدين محمود الذى «بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس.. ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس.. أولاده وأمراؤه. ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك (سلاطين المماليك) وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا...».

وبتتبع المدارس فى مصر، نجد بعضها اختص بمذهب واحد من مذاهب أهل السنة الأربعة - كالمدرسة السيوفية تجاه الصناقة بالقاهرة - وقد اختصت بالمذهب الحنفى، والمدرسة الناصرية التى اختصت بالمذهب الشافعى، والمدرسة الصاحبية التى اختصت بالمذهب المالكى. هذا فى حين وجدت مدارس أخرى احتضنت مذهبين، كالمدرسة الفاضلية التى ضمت المذهبين الشافعى والمالكى، ومدرسة سيف الدين منكوتمر التى ضمت المذهبين الحنفى والمالكى، والمدرسة الأقبغاوية والمدرسة الفارقانية، وكان بكل منهما «درس للطائفة الشافعية، ودرس للطائفة الحنفية».

وهنا نلاحظ ملاحظتين، الأولى هى أن المذهب الحنبلى لم يكن له حظ وافر من إقبال المعاصرين فى مصر، يعادل بعض ما كان

صلاح الدين اقتدى بسيده نور الدين الذى بنى بدمشق وحلب عدة مدارس

للمذاهب الثلاثة الأخرى، وهى الحنفى والشافعى والمالكى. والملاحظة الثانية هى أننا لم نصادف فى تتبعنا لمدارس مصر، مدرسة جمعت بين ثلاثة من مذاهب أهل السنة، وإنما كان الغالب هو أن تختص المدرسة بمذهب واحد أو مذهبين. هذا فى حين وجدت إشارات فى بعض المصادر المعاصرة إلى وجود بعض مدارس بالشام حوت ثلاثة من مذاهب أهل السنة.

وإذا كانت المدرسة المستنصرية التى افتتحت فى بغداد سنة ٦٣١هـ هى أول مدرسة فى الإسلام جمعت بين تدريس المذاهب الأربعة: المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى، فإنه ما كادت تمضى عشر سنين على قيام هذه المدرسة، حتى افتتحت بالقاهرة سنة ٦٤١هـ المدرسة الصالحية، التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب. السلطان قبل الأخير من سلاطين بنى أيوب - وجعلها مجمعًا للمذاهب الأربعة. وبذلك كان الصالح نجم الدين أيوب «أول من عمل بديار مصر دروسًا أربعة فى مكان».

وكان أن كثرت مدارس المذاهب الأربعة فى مصر بعد ذلك مثل المدرسة الظاهرية التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ، والمدرسة المنصورية التى أنشأها السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٤هـ، والمدرسة الناصرية التى بدأ كتبغا بناءها، ثم أتمها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ، والمدرسة التى أنشأها السلطان الناصر حسن بجامعه تجاه القلعة سنة ٧٥٧هـ.



وهنا لابد لنا من وقفة إزاء هذه المؤسسة الضخمة التى أنشأها السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، للبت فى قضية مهمة تباينت فيها أقوال المؤرخين، ولم يبت فيها حتى اليوم برأى حاسم قاطع. هل هذه المؤسسة الكبرى التى أقامها السلطان الناصر حسن والتى مازالت شامخة ببنائها الفخم فى مواجهة قلعة الجبل، هل هى جامعة مدرسة أم أنها مدرسة جامعة؟ وبعبارة أخرى: هل كان الهدف الأول الأساسى من إقامتها أن تكون جامعًا يضم بين رحابه مدرسة، أم أن تكون مدرسة تستهدف التعليم، على أن تقام فيها شعائر الصلاة وخطبة الجمعة؟ لقد أطلق كثيرون اسم «مدرسة السلطان حسن» على هذه المؤسسة، فى حين أطلق آخرون. ومازالوا يطلقون. اسم «جامع السلطان حسن» عليها. ومع ما بين المصطلحين من ترابط إلا أن البحث العلمى يتطلب وضع خط مميز بينهما.

أما هذا الترابط فيبدو فى أن هناك هدفًا مشتركًا بين إنشاء المسجد وإنشاء المدرسة، وهو هدف يتمثل فى التطلع إلى حسن الأجر والثواب. فإذا كان المسجد هو بيت الله الذى يرفع ليذكر فيه اسمه، مما جعل إقامة المساجد من أجل الأعمال التى يمكن أن يتقرب بها المسلم إلى ربه، فإن المدارس اعتبرت أيضًا قلاعًا للعقيدة وحصونًا للدين، لأن الإسلام حث على العلم والتعلم، وكان أول لفظ نزل من القرآن الكريم هو كلمة «اقرأ»، والقراءة هنا ليست غاية فى حد ذاتها، وإنما هى وسيلة لطلب العلم من أفضل أبوابه.

ومن ناحية أخرى، فإن المقصود بالعلم والتعلم هنا. تدارس العلوم الدينية التى يؤدى تعلمها إلى خير دين الإنسان ودنياه. وحسب العلم فى الإسلام أنه أثر عن الرسول (ص) أنه قال: «خير العلم خير من خير العبادة»، وأنه (ص) قال «لكل شىء عماد، وعماد الإسلام العلم». ولتأكيد الطابع الدينى للمدرسة، روعى فى تخطيطها وتصميمها أن تكون مقاربة فى هندستها وصورتها للمسجد، بمآذنه ومنبره وأروقته وزخارفه.

ومادام الهدف متقاربًا بين المسجد والمدرسة، فإن الوظائف والمهام تشابهت إلى حد يقرب من التطابق، بمعنى أن المسجد صار مكانًا للعبادة والدرس، فى حين صارت المدرسة مكانًا للدرس والعبادة. وبعبارة أخرى أقيمت الصلاة وعقدت حلقات العلم فى المسجد، فى حين عقدت حلقات العلم وأقيمت الصلاة فى المدرسة. وهكذا وجد ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الجامع المدرسة». وما يمكن أن نطلق عليه اسم «المدرسة الجامع». ولعل حرص مؤسس المدرسة على أن تكون مؤسسته مكانًا للعبادة، هو الذى جعله يزودها بمنبر وميضأة ومئذنة أو أكثر. ولكن مع كل ذلك ومع الاعتراف بأهمية المدرسة ومكانتها وطابعها الدينى، إلا أن مكانة المسجد أو الجامع فى قلوب المسلمين فاقت كل ما عداه من مؤسسات أخرى فى الإسلام. وحسب المسجد أنه يمثل المؤسسة الأولى فى الإسلام، التى سبق ظهورها مولد المدرسة بأكثر من أربعة قرون. وقد أدرك المعاصرون أن إقامة الجمعة والخطبة فى المدارس جاءت نتيجة لضرورة وليست هدفًا من إنشائها. يذكر المقريزى أنه حدث سنة ٧٥٨ هـ على أيام السلطان الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون أن قام القاضى علم الدين إبراهيم - ناظر الدولة - بتجديد عمارة المدرسة الصاحبية «واستجد فيها منبرًا، فصار يصلى بها الجمعة إلى يومنا هذا، ولم يكن قبل ذلك بها منبر ولا تصلى فيها جمعة».

وإذا كان المسجد قد احتفظ بمكانته كمركز للعلم والتعليم فإن أشعة العلم التى تنبثق من بيت الله تكون دون شك أسطع نورًا وأقوى تأثيرًا فى النفس من تلك التى تنبعث من أى مكان آخر. يذكر أحد فقهاء عصر سلاطين المماليك - هو الفقيه ابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٨هـ أن مواضع التدريس ثلاثة، هى البيت والمدرسة والمسجد. وقال إن المسجد أفضلها جميعًا، لأن الفائدة من التدريس أن تظهر به سنة أو تخمد بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الدين. والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد، لأنه موضع مجتمع الناس.

ولا أدل على أن المسجد كانت له مكانته الخاصة فى قلوب المسلمين، من ذلك النموذج الذى أتى به القلقشندى لما ينبغى أن تستهل به كتب الأوقاف على المساجد، والذى يتصدره الحديث الشريف «من بنى مسجدًا لله - ولو كمفحص قطاة - بنى الله تعالى له به قصرًا فى الجنة». وبعد هذه الافتتاحية، يمضى واضع هذا النموذج لحجة الوقف على المسجد، فيقول: «وبعد، فلما كانت المثوبات مضمونة الأجر عند الكريم، والأعمال متعددة فى التقديم وكان بنيان المساجد وافرًا أجرًا.. ورأى العقلاء أن الأوقاف على المساجد والجوامع من أنفس قواعد الدين وأعلى، فلذلك قيل فى هذا الإسجال المبارك...».

وبدراسة النص الأخير دراسة متأنية نجده يؤكد أن الأعمال التى يثاب عليها الإنسان «متعددة فى التقديم»، وأن إقامة المساجد لها الأولوية فى وفرة الأجر عند الله تعالى. ومعنى هذا أنه إذا كان المسجد والمدرسة قد تداخلا فى الوظيفة، فإن بناء المسجد المدرسة كان أكثر قبولاً وأعظم ثوابًا فى نظرهم. من بناء المدرسة المسجد.

ومهما يكن من أمر، فإنه تحت تأثير هذا التداخل الوظائفى بين المسجد والمدرسة، والتشابه بينهما فى الهندسة والشكل العام، أطلق بعض المعاصرين على مؤسسة السلطان حسن اسم «جامع»، فى حين أطلق عليه آخرون اسم «مدرسة». وممن أطلق على هذه المؤسسة اسم مدرسة من المؤرخين المعاصرين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، وابن تغرى بردى (٨٧٤هـ)، وابن حجر (٨٥٢هـ) وابن اياس (٩٢٩هـ).

على أننا نلاحظ على هؤلاء المؤرخين المعاصرين الذين أطلقوا على مؤسسة السلطان حسن اسم «مدرسة»، أنهم فعلوا ذلك فى سياق الأخبار التى دونوها فى حولياتهم، أو فى سياق التراجم التى أوردتها للسلطان الناصر حسن، صاحب هذه المؤسسة. وبعبارة أخرى فإنهم لم يطلقوا اسم «مدرسة» على هذه المؤسسة داخل إطار دراسة قائمة بذاتها يعالجون فيها المؤسسات الإسلامية وأنواعها، أو يتتبعون فيها المدارس والجوامع التى أقيمت فى حقبة معينة أو فى عصر معين، مما يتطلب مراعاة الدقة فى التصنيف والحرص على اختيار الصفة الأساسية لهذه المؤسسة أو تلك.

يذكر المقريزى أن المدارس كانت مما استحدث فى الإسلام، إذ لم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين «وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة» أى فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر للميلاد



وربما كان المؤرخ أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ ـ كبير مؤرخي مصر في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد ـ هو الوحيد الذي وصلتنا عنه مثل هذه الدراسة المقننة الدقيقة. ذلك أن المقريزي حرص في موسوعته الكبرى «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» على أن يقسم المؤسسات في القاهرة إلى أنواع، أفرد لكل نوع قائمة مستقلة وضع لها عنوانًا منفردًا بنفسه، بحيث يعبر كل نوع عن الخصائص والأوصاف والمهام والوظائف التي يتميز بها ذلك النوع من المؤسسات. فتحت عنوان «ذكر المساجد الجامعة» جمع المقريزي «ما في ظواهر القاهرة ومصر من الجوامع مع التعريف بحال من أسسها، وبالله التوفيق». ثم تناول جوامع مصر والقاهرة واحدًا بعد آخر، وخصص لكل منها عنوانًا يحمل اسم الجامع: الجامع العتيق، جامع العسكر، جامع ابن طولون، الجامع الأزهر، جامع الحاكم.. وأفرد لكل جامعة دراسة قد تطول أو تقصر حسب المقتضيات. ولم يغب عن المقريزي في هذه الدراسة أن يشير إلى إسهام الجامع في النشاط العلمي، فهو في حديثه ـ مثلاً ـ عن الجامع العتيق أو جامع عمرو بن العاص، يقول «وبالجامع زوايا يدرس فيها الفقه».

وبعد أن ينتهي من ذكر الجوامع في صفحات طويلة، ينتقل المقريزي إلى المدارس، فيضع عنوانًا كبيرًا «ذكر المدارس»، فيبدأ بشرح معنى الدرس والتدريس والمدرسة، وفي ضوء هذا الشرح يتناول المدارس في مصر والقاهرة واحدة بعد أخرى، ويخصص عنوانًا لكل مدرسة، بدءًا بالمدرسة الناصرية. فإذا فرغ من ذكر المدارس انتقل إلى ذكر المارستانات. وهكذا يتتبع المقريزي كل المؤسسات التي حفلت بها مصر والقاهرة في إطارها الصحيح، مع الإشارة دائمًا إلى ما قد يكون لهذه المؤسسة أو تلك من وظائف أخرى تأتي على هامش وظيفتها الرئيسية التي استهدفها مؤسس المنشأة أو صاحبها.

وهنا يبدو الفارق واضحًا بين الأسلوب الذي اتبعه المقريزي في حولياته، والأسلوب الذي اتبعه في خططه. ففي حوليات المقريزي المعروفة باسم «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» اهتم المؤرخ بالجري وراء الأخبار المتلاحقة، موجهًا جل عنايته نحو تتبع مسيرة الأحداث، مستخدمًا في ذلك ما هو شائع ومعروف ومتداول بين الناس من مصطلحات. وهكذا أشار المقريزي في حولياته إلى مؤسسة الناصر حسن باسم «مدرسة السلطان حسن». وجاء تعبيره هذا في سياق الكلام عن فتنة دبت في صفوف المماليك فاستغل بعضهم موقع هذه المؤسسة ـ المواجهة للقلعة ـ في رمي خصومهم بالنشاب.

أما في كتابه «المواعظ» الذي خصصه لدراسة خطط مصر والقاهرة، فإن المقريزي ـ وهو العالم المحقق الذي عاصر تلك الحقبة، وكرس نحوًا من عشرين عامًا من عمره في وضع هذا الكتاب، مراعيًا الدقة المتناهية في تصنيف المؤسسات التي حفلت بها مصر والقاهرة، وضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة «الجوامع». فتحت عنوان «ذكر المساجد الجامعة» تتبع المقريزي جوامع مصر والقاهرة واحدًا بعد آخر، مع ذكر عنوان كل منها، حتى أتى بعنوان كبير نصه «جامع الملك الناصر حسن». واستهل المقريزي كلامه عن هذا الجامع بعبارة «هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن». ومن هذه العبارة يفهم أن الأصل في هذه المؤسسة أن تكون جامعًا، ولكنها اشتهرت وعرفت باسم «مدرسة السلطان حسن». فتسميتها مدرسة لا يعدو أن يكون اسم الشهرة، وليس الاسم المعبر عن وضعها الحقيقي. وقد تمسك المقريزي بإطلاق اسم «الجامع» على هذه المؤسسة في المادة العلمية الطويلة التي أوردها عنها: فهذا الجامع كذا، ويحكى عن هذا الجامع كذا، وجعل السلطان على هذا الجامع أوقافًا كذا...

ومثل هذا التحديد والتأكيد لا يمكن أن يصدر عن عالم مثل المقريزي، وفي كتاب مثل الخطط، اعتباطًا، وإنما لا بد أن لدى هذا العالم المعاصر من الأسانيد والأدلة الواقعية ما جعله يصر على وضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة جوامع القاهرة ـ وليس في قائمة مدارسها ـ من ناحية، ثم على التمسك بصفة «الجامع» ليصف بها هذه المؤسسة من ناحية أخرى. ولم ينف المقريزي أبدًا عن هذا الجامع أنه نهض أيضًا بوظيفة «المدرسة»، شأنه شأن معظم الجوامع المعاصرة، ولكنه جعل صفة الجامع هي الأولى وهي الهدف من بنائه، وبعد ذلك تأتي صفة المدرسة، فقال إن هذا الجامع «يعرف بالمدرسة»، ولم يقل «إن هذه المدرسة تعرف بالجامع». وبعبارة أخرى فإن مؤسسة السلطان حسن «جامع مدرسة» وليست «مدرسة جامع». ■



مذكرات
عريان يوسف سعد

في عام ١٩١٩، وبينما كان يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء (القبطي) يمر في شارع سليمان باشا، ألقى عليه طالب الطب (القبطي) عريان يوسف سعد، عضو منظمة اليد السوداء ـ التي كان هدفها اغتيال ضباط الاحتلال البريطاني والمتعاونين معهم من المصريين ـ ألقى عليه قنبلتين ولكن وهبة باشا نجا وحكم على عريان يوسف سعد بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات، وقد اعترف بأنه أراد كـ «قبطي» أن يغتال عميل الاستعمار، حتى لا يدان المسلمون ويقال إن الباعث ديني، ومن ثم تشوه الحركة الوطنية.

وتتناول هذه المذكرات، التي قد تكون أول مذكرات لسجين سياسي مصري في العصر الحديث، تاريخ ثورة ١٩١٩ من وجهة نظر أحد المشاركين فيها. وتلقي الضوء على بعض الأحداث المجهولة والمثيرة كاستقلال ميت غمر وإعلانها سلطنة وكيفية التحاقه بمنظمة اليد السوداء ـ إحدى أكثر المنظمات المصرية السرية غموضًا ـ وخطة الاغتيال ومذكراته الشيقة في السجن.

ويستعرض صاحب المذكرات في هذا الكتاب نشاطه السياسي في مرحلة شديدة الأهمية من تاريخه المصري، ويكشف عن صفحات مجهولة قام فيها بدور بارز دون ادعاء أو مبالغة. وقد اختارت «وجهات نظر» نشر مقتطفات من هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى عن «دار الشروق» خلال العام الحالي.



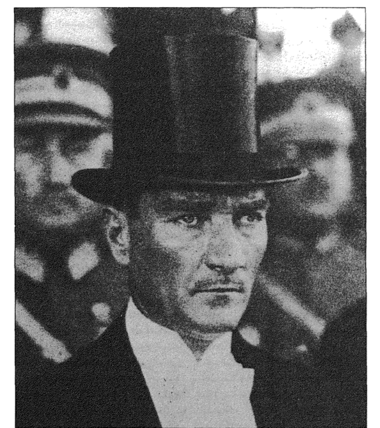


أردوجان والإخوان

إبراهيم الهضيبى



حرص أردوجان على عدم تصعيد الاستقطاب مع العلمانية بينما زاد بعض النواب الإسلاميين فى مجلس الشعب المصرى من حدة الاستقطاب حينما اتخذوا موقفًا رافضًا للعلمانية باعتبارها تمهيداً لإزاحة الشريعة



مصطفى كمال أتاتورك



حسن البنا

أردوجان تجنب صراعا مبكرا مع الجيش فى معركة هامشية. خاضها من قبله أربكان فاستنزفت مجهوده بشكل كبير، وخرج منها مجروحا على أقل تقدير



لم يعد بإمكان إسلامى يسعى للإصلاح وعلاج مشكلات الأمة أن يتجاهل التجربة التركية فى العمل الإسلامى وتجربة حزب العدالة والتنمية بشكل خاص للاستفادة منها فى فهم أسباب النجاح. والحقيقة أن اهتمامى بالتجربة التركية بدأ قبل أعوام مع وصول العدالة والتنمية للسلطة فى ٢٠٠٢ . ومن خلال متابعتى أظن أن (خلطة النجاح) التركية تمثلت فى توليفة كبيرة من المواقف السياسية قد تختلف صحتها وخطئها من قطر لآخر، إلا أن منهجيتها واحدة، ووصفتها تتمثل فى مجموعة من النقاط الواضحة.

الشرط الأول للنجاح هو فهم الواقع السياسى بمستوياته المختلفة: المحلية والإقليمية والدولية، وبتداخلات الداخل والخارج فى هذه المستويات. والواقع السياسى التركى معقد، فمحليا تعانى تركيا انقساما حادا بين الإسلاميين والعلمانيين الأتاتوركيين، تعمق بإصرار رئيس الوزراء (الإسلامى) الأسبق نجم الدين أربكان على انتهاج خط المواجهة، والذى أسفر فى النهاية عن إسقاط حكومته بعد أن حاصرتها المؤسسات العلمانية وعلى رأسها الجيش، وفرضت عليه تنفيذ أجندة علمانية لائكية فلم يجد بدا من الاستقالة. هناك أيضا الصراع العرقى التركى الكردى، وهو الصراع الذى يسبب حرجا شديدا للحكومة التركية فى مسألة حقوق الإنسان، وخاصة مع محاولات الانضمام للاتحاد الأوروبى.

وإقليميا كانت هناك أزمات متعددة، بدءا بالأزمة الكردية ، ومرورا بحرب العراق، والقضية الفلسطينية، إضافة إلى الرغبة فى الانضمام للاتحاد الأوروبى، والتى لم تكن شديدة الإلحاح فى هذا الوقت كما أصبحت بعد أن تولى الحزب السلطة.

ودوليا كانت هجمات الحادى عشر من سبتمبر قد لفتت أنظار العالم إلى (الشأن الإسلامى)، وكذلك إلى أزمة الديمقراطية فى الشرق الأوسط، فسعت إدارة بوش إلى إيجاد مساحات أوسع (ولو نسبيا) من الحرية فى الأنظمة السياسية الشرق أوسطية، ومحاولة دمج الحركات الإسلامية المعتدلة (وإن ظل تعريف الاعتدال مبهما) فى الأنظمة السياسية لبلادها لدعم الاعتدال فى مواجهة التطرف، وكانت هناك الحرب على الإرهاب، وما أنتجته من استقطاب حاد على المسرح الدولى بسبب رؤية الرئيس الأمريكى الذى قسم العالم إلى قسمين؛ إرهابيين، وحلفاء للولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب.

وعن تداخلات الداخل والخارج فقد كانت العلاقات الإقليمية مع إسرائيل محكومة بقوة الجيش العلمانى وسيطرته على نظام الحكم وعدم قدرة الإسلاميين على مواجهته، وكان للجيش كذلك دور كبير فى تحديد كيفية معالجة الشأن الكردى، والظرف الدولى كان يؤثر على شكل العلاقات الإقليمية لحرصه على إبقاء الدول (المتطرفة) مثل إيران وسوريا خارج التحالفات الرئيسية فى المنطقة، وكان المحلى والإقليمى يتداخلان فى قضية الحرص على إنجاز بعض الإصلاحات الداخلية للمضى قدما باتجاه الاتحاد الأوروبى.

ومسألة السعى للاتحاد الأوروبى فى ذاتها كانت موضع خلاف داخلى ؛ فقد جسدت الانقسام المجتمعى التركى بين طرف يرى بلاده جزءا من أوروبا، وطرف آخر يراها عاصمة الخلافة الإسلامية.

والحقيقة أن الواقع كان بطبيعة الحال أكثر تعقيدا من ذلك، ولكنى أردت فقط ان أشير إلى خطوطه العريضة. وبلا شك فقد كانت خطوات العدالة والتنمية تشير بوضوح إلى فهم دقيق لهذا الواقع. وما يعنينى هنا هو أن الحزب لم يدرك المؤثرات المحلية فى صناعة القرار وحسب، بل تخطى ذلك للمؤثرات الإقليمية والدولية، وفهم أشكال التشابك بينها، وعكف على دراسة التجارب الإسلامية التى لم تحقق النجاح المطلوب، الأمر الذى استغرق وقتا طويلا سبق الإعلان عن الحزب، وقد استفاد بذلك من أخطاء أربكان المتسرع دائما فى إنشاء حزب جديد كلما حظر النظام العلمانى أحد أحزابه.

ثانى شروط النجاح هو التسليم بمعطيات الواقع السياسى، أو شروط اللعبة السياسية فى الساحة التركية. وأقصد بذلك الموافقة على المعطيات والانطلاق من أرض الواقع، ومما هو موجود بالفعل، لا مما يراه منضبطا وصحيحا أو عادلا . ويبدو أن هذا أحد أهم أسباب النجاح، والمتابع للحركة الإسلامية فى المغرب وتركيا يلحظ ذلك؛ ففى تركيا لم يتخذ أردوجان وحزبه موقفا سلبيا من العلمانية، وفى المغرب اعترف الإصلاحيون بالملك كـ(أمير المؤمنين) واعتبروا مهمتهم بالتالى هى إصلاح المجتمع لا أسلمة الدولة، وفى كلتا الحالتين فقد أثر ذلك إيجابا على شكل التعامل معهم مقارنة بغيرهم من الإسلاميين الذى تمسكوا بمواقف صلبة فى قضايا لا تستحق هذا القدر من الجمود.

فأردوجان تجنب صراعا مبكرا مع الجيش فى معركة هامشية، خاضها من قبله أربكان فاستنزفت مجهوده بشكل كبير، وخرج منها مجروحا على أقل تقدير، وفى المغرب لا يزال الفارق بين تعامل النظام مع العدل والإحسان، وتعامله مع العدالة والتنمية مؤشرا واضحا على الفوارق والعقبات التى يسببها عدم الاعتراف بمعطيات الواقع السياسى. وهذا هو فقه الواقع الذى ينطلق من الأرض حتى يتمكن من التغيير.

ويمكن مقارنة ذلك ببعض المواقف الإسلامية فى مصر التى (تجاهد) و(تناضل) من أجل التأكيد على عدم جواز رئاسة الدولة للمرأة والقبطى، وهى قضايا خلافية ، ولا تأثير لطرح هذه الآراء، والتمسك بهذا الاختلاف (الذى يتم أحيانا من باب محاولة إبراز تمايز الحركة الإسلامية عن غيرها من القوى) إلا تعطيل الإسلاميين عن الإنخراط بشكل تام فى الحياة السياسية.

وإذا كان فهم الواقع والدخول السلس فى العملية السياسية من دون الاصطدام بقواعد اللعبة هما الشرطان الأول والثانى لنجاح حزب العدالة والتنمية فى تركيا، فإن التحديات التى يفرضها الوجود السياسى، بل والوجود فى الحكم، هى بطبيعة الحال أخطر من تلك التى يجب اجتيازها للدخول إلى حلبة السياسة.



وأول شروط هذا النجاح هى الحرص على وحدة الوطن، وعدم الالتفات لاستفزازات من شأنها زيادة الاستقطاب بين أبنائه. ومن ذلك رفض أردوجان النزول للشارع بمظاهرات ردا على المظاهرات العلمانية الرافضة لترشيح جل للرئاسة قبل أشهر، وكان رفضه حتى لا تزيد رقعة الاستقطاب فى الشارع التركى بين المشروع الإسلامى الإصلاحى المدنى، وبين المشروع العلمانى الأتاتوركى، وقد قلّص أردوجان الرقعة بين أصحاب المشروعين من أبناء الوطن الواحد بحديثه عن العلمانية بعد الانتخابات، والذى أشار خلاله إلى الفارق بين النموذج الأوروبى الأنجلو ساكسونى والنموذج التركى اللائكى فى العلمانية فوضع غلاة العلمانية فى تركيا فى موقف محرج يصعب معه إيجاد مبرر للتمييز ضد الإسلاميين والتدخل السافر للدولة فى المؤسسات الدينية.

يمكن مقارنة هذا الموقف بموقف بعض النواب الإسلاميين فى مجلس الشعب المصرى الذين زادوا من حدة الاستقطاب بين المشروع الإسلامى والعلمانى فى مصر (إن جاز القول بوجود مشروع علمانى يعبر عن تيار شعبى حقيقى) حين اتخذوا موقفا حادا رافضا للمواطنة باعتبارها تمهيدا لإزاحة الشريعة مثلا.

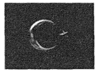
ويمكن كذلك المقارنة بين هذا الموقف وبين موقف حزب الله وحلفاؤه فى لبنان حين نزلوا للشارع لإسقاط الحكومة، ورد أنصار الحكومة اللبنانية بالنزول للشارع، وما سببه ذلك من انقسام فى الشارع اللبنانى بدأت آثاره تتضح جليا، نسأل الله السلامة للبنان وأهلها.

ثانى الشروط هى عدم استفزاز الخصوم السياسيين، والتركيز على مواطن الإجماع الشعبى والانطلاق منها عوضا عن ذلك. فعلى سبيل المثال، (معركة الحجاب) فى تركيا هى الساحة الأشهر للنزاع بين الإسلاميين والعلمانيين، ولأسباب تاريخية وواقعية لا تزال اليد العليا للعلمانيين استناداً إلى قوة الجيش والقضاء على الرغم من تفوق الإسلاميين على مستوى الشارع. وقد دفع هذا التفوق الشعبى بنجم الدين أربكان -أستاذ جل وأردوجان- للدخول فى صدام مباشر مع العلمانيين ، فدفع بمبرشحة محجبة للبرلمان، وكان نجاحها إيذانا باندلاع البركان العلمانى الذى انتصر على أربكان ومنعه من العمل السياسى، وسحب الجنسية من النائبة.

أما أردوجان فقد أدرك أن محاولة تغيير الواقع قبل تغيير معطياته هى معركة خاسرة، فقرر ألا يخوضها، ولم يستفز خصومه ، فلم يخض المعركة بشكلها التقليدى، وإنما خاضها بأشكال أخرى سيأتى تفصيلها لاحقا، المهم أنه أرسل ابنتيه للدراسة فى الولايات المتحدة لأن الجامعات التركية تحظر على الطالبات ارتداء الحجاب، وقد كسب بتلك الخطوة الكثير بعد أن خسر أردوجان بسبب المعركة ذاتها الكثير أيضا.

يأتى بعد ذلك عدم الالتفات لاستفزازات الخصوم السياسيين، أو (الفخاخ) التى ينصبونها، مثل ما سبق الحديث عنه عن مظاهرات العلمانيين فى الشارع، ومثل تصريح رئيس الجمهورية العلمانى عن أن قصر الرئاسة ليس المكان المناسب لوجود المحجبات. وقد جاء هذا التصريح قبل حفل كان من المفترض أن يستقبل فيه القصر الوزراء وزوجاتهم المحجبات، فذهب الوزراء من دون زوجاتهم لتجنب الاستفزاز، ولم يسمحوا للموقف بأن يكون استفزازا يدفعهم لزيادة الاستقطاب بين المشروعين الإسلامى والعلمانى بتنمية نقاش

أردوجان والإخوان



حول أحقية الزوجات المحجبات فى الحضور، فلم تكن تلك القضية الجزئية هى ما يشغل بال أردوجان، ولم تكن معطيات الواقع تقول أن تحقيق مكسب جزئى فى هذه النقطة يصب فى مصلحة المشروع الإصلاحى الإسلامى بأبعاده الاستراتيجية.

ويختلف هذا الموقف بالطبع عن موقع الحركة الإسلامية فى مصر مثلا، التى انجرت بسهولة شديدة للرد على استفزازات كلامية لم يتبعها أى فعل متعلقة بالحجاب أطلقها وزير الثقافة، بل وحفرت لنفسها أفخاخا أخرى بتصريحات بعض النواب بأن رئيس الوزراء (يستحق الإعدام) واعتبار ذلك أمرا شرعيا، وتقديم استجوابات ومشروعات قوانين تحمل أسماء بها معارضات مع أسماء بعض الأفلام والمسرحيات بشكل استعدى الفنانين على الحركة (خاصة فى ظل غياب التوازن الإعلامى فى التناول) وأدخلها فى معارك بعيدة عن أهدافها الأساسية، وغيرها من مشاهد التصعيد التى تنجر إليها الحركة الإسلامية فتفقد الكثير.

ولا يمكن الإشارة لهذا الأمر من دون الإشارة لموقف الجناح المسلح لحماس، الذى استجاب للاستفزازات الفتحاوية والإسرائيلية فخسر الكثير لا من معركته فحسب بل من القضية الفلسطينية ككل، وأقول الجناح العسكرى لأن أى مراقب يستطيع أن يفصل بين الخطاب الرد-فعلى لقيادات الجناح وبين الخطاب السياسى المتوازن لقيادات حماس السياسية مثل خالد مشعل رئيس المكتب السياسى.

والمعيار الرئيسى هنا، والذى يحدد أسلوب الرد ويقى من الاستفزاز هو وضوح الرؤية الكلية، وهو ما توفر للعدالة والتنمية كما لم يتوفر لأى حركة إسلامية أخرى. فقراءة أردوجان للواقع السياسى لبلده جعله يدرك أن معركة الإسلام الحقيقية (كما هى فى الحقيقة فى جل -إن لم يكن كل- بلاد المسلمين) هى معركة الدفاع عن الديمقراطية وتوسيع قاعدتها وليس مواجهتها، وبالتالى فهو يحاول تحقيق مكاسب ديمقراطية يوسع بها مساحات الحرية بشكل تدريجى، سيأتى الحديث عنه..

المهم أنه من أجل ذلك الهدف، الذى به لا بغيره تتحقق مقاصد الشريعة، أجل أردوجان ورفقاؤه بعض الأهداف الجزئية، التى لم يحن وقتها بعد، ومرة أخرى تبقى كلمة السر فقه الواقع مع وضوح الرؤية.

فعندما قدم الحزب مشروع قانون الزنى للبرلمان، أثار ذلك خلافا مجتمعيا حادا، وبدأ الجيش يتحدث (وهى الخطوة السابقة للتحرك) دفاعا عن العلمانية من التهديد الإسلامى، وزاد هذا من حالة الاستقطاب الشعبى خاصة فى ظل تربص العلمانيين بالحزب، فقررت قيادة الحزب سحب المشروع من البرلمان على الرغم من امتلاك الأغلبية البرلمانية اللازمة لتمريره، لعدم وجود توافق مجتمعى عليه، وهى الخطوة التى أثارت حفيظة الإسلاميين حول العالم، بل وحتى التقليديين فى تركيا، الذين لم يدركوا أبعاد وأولويات واقعهم.

وليس هذا مجال الحديث الفقهى عن الأولويات والمقاصد، وعن التدرج الذى هو من طبيعة فقه الواقع، ولذا فسأكتفى بالإشارة إلى النجاح السياسى الذى حققه هذا القرار بوجود مزيد من الاستقرار الذى مكن الحزب من المضى قدما فى إصلاحاته الحقيقية، العميقة والهادئة فى آن واحد.

وإذا كان ذكاء أردوجان وحسن فهمه لواقعه سببا فى تجنب العديد من الصدمات على المستوى المحلى والدولى؛ وإذا كان نجاحه فى الاختبارات المحلية الأولى قد تمثل فى قبول قواعد اللعبة السياسية من دون فقد القدرة على تحريكها، وبناء التوافق المجتمعى والخروج من حيز الاستقطاب الإسلامى العلمانى، فإن هذه النجاحات لم تكن لتكون ذات قيمة إلا بنجاح أردوجان وجل فى تأمين المشروع إقليميا ودوليا.

ولا يمكن لمتابع المشهد التركى إلا أن يلحظ تفوق التلميذ أردوجان على أستاذه أربكان فى عمل توليفة ربط وتشابك للداخل بالخارج حقق من خلالها مكاسب كبيرة. فأربكان -وهو ابن المدرسة الإسلامية التقليدية التى حاولت التجديد إجرائيا ولكنها لم تحدث تجديدا أو حراكا فكريا ملموسا- والذى أسس حركة الفكر الوطنى (حضانة) الحركات الإسلامية التركية كان يفكر منذ اللحظة الأولى فى بناء تحالف إسلامى، وسلك لذلك المسالك التقليدية. فكانت زيارته الخارجية الأولى لطهران، ثم تبعها بزيارات لعدة دول إسلامية أسس خلالها مجموعة الدول الصناعية الإسلامية الثمانى. ولا يخفى على ذى لب حجم التغيرات التى يحتاجها المسرح الدولى قبل السماح بظهور مثل هذه القوى الإسلامية، خاصة إذا كانت تضم بين أعضائها إيران.

زاد من حدة الأمر أن أربكان التزم سياسة اقتصادية منغلقة أمام الغرب فلم يعد الباب مفتوحا أمام استيراد المنتجات الغربية كما كان من قبل، وهو ما شكل تهديدا لمصالح الغرب الاقتصادية، هذا بالإضافة إلى التهديد الأمنى والسياسى الذى رآه البعض بسبب الموقع الاستراتيجى لتركيا وكونها «بوابة أوروبا الشرقية».

بيد أن الآثار السلبية للزيارة لم تبرز على المستوى الدولى فحسب، بل كانت سببا فى زيادة الاحتقان بين أبناء مشروع علمانى يريدون الانفصال بتركيا عن ماضيها الإسلامى والانطلاق بها نحو أوروبا، وهؤلاء ليس من الممكن الاستهانة بهم فى الواقع السياسى التركى، إلا أن أربكان لم يأبه بهم، وكان واضحا فى اختياره السير شرقا ليزيد المساحة بينه وبين فصيل من أبناء شعبه إتجه غربا، وبالطبع فقد كلفت تلك الأخطاء أربكان غاليا، ومثلت أحد أسباب سقوط حكومته.

وقد تعلم أردوجان من أخطاء أستاذه، فلم يتخل عن الحلم الإسلامى، ولكنه سعى لتحقيقه بطريقة أكثر فعالية، وبأدوات أكثر عصرية، وأكثر حفاظا على مصالح شعبه. فهو أولا أدرك أن ميزان القوة ليس فى صالحه لا داخليا ولا خارجيا، أى أنه غير قادر على مواجهة الجيش والغرب بسلك طريق أربكان، فسلك طريقا آخر يؤدى للمقصد ذاته.

حافظ أردوجان على قرب المساحة بينه وبين العلمانيين بأن قرر السير غربا فى اتجاه الاتحاد الأوروبى. وإذا كان أربكان قد استقل طائرة رئاسة الوزراء لأول مرة متجها إلى طهران، فإن رحلة أردوجان الأولى كانت إلى بروكسل، مقر الاتحاد الأوروبى، وهو بتلك الخطوة وحدها ضرب كل العصافير، وسأشير إليها واحدا تلو الآخر فيما بقى من هذا التحليل.

فهو أولا بعث برسالة طمأن بها شعبه على حرصه على الوحدة، ثم أنه جسد الحلم التركى بالانضمام للاتحاد الأوروبى فصار يحمل مشروعا وطنيا تركيا لا مشروعا إسلاميا يمثل طائفة دون أخرى من أبناء الشعب التركى.

والأهم أنه يعلم أنه فى طريق سيره إلى الاتحاد سيكون مطلوبا من تركيا القيام ببعض الإصلاحات السياسية الديمقراطية هو فى أشد الحاجة إليها، ويقف الجيش عثرة فى طريق تطبيقها، ولكن إذا كانت هذه الإصلاحات هى ثمن الانضمام للاتحاد الأوروبى، فإن الجيش لن يكون أمامه إلا الرضوخ، لأن المطالب فى تلك الحالة ليست مطالب الإسلاميين أو الحكومة، وإنما هى مطالب الشعب بأسره.

أول هذه المطالب كان القيام بإصلاحات ديمقراطية، وإبعاد الجيش (حامى الأتاتوركية) عن العمل السياسى، ذلك الجيش انقلب على أربع حكومات ذات طابع إسلامى خلال أقل من نصف قرن، وتقليص قوة الجيش فى الساحة السياسية التركية، هو مكسب كبير ولا شك للدولة بأسرها، وللحركة الإسلامية فيها على وجه الخصوص.

ومن مطالب الاتحاد الأوروبى كذلك ما يتعلق بحقوق الإنسان، وهو ما استخدمه أردوجان للضغط فى مسألة الحجاب أحيانا، ولكنه ظل حريصا على عدم جعلها معركته الأساسية، وعدم اتخاذ أى قرار جذرى فى هذه المسألة حتى يتحقق التوافق المجتمعى المطلوب، ومسألة حقوق الإنسان كانت هامة كذلك فى معالجة القضية الكردية بعيدا عن أسواط الجيش، وإن بقى أردوجان مضطرا للتقارب مع الجيش أحيانا فى هذه القضية، كما هو الحال فى الأسابيع الأخيرة.



لم تكن قضية «الزوجات المحجبات» هى ما يشغل بال أردوجان فى الوقت الذى انجرت فيه الحركة الإسلامية بسهولة للرد على استفزازات كلامية متعلقة بالحجاب أطلقها وزير الثقافة



أردوجـان والإخـوان



وتعامُل أردوجان مع الأزمات الدولية يعكس فهما عميقا للواقع والثوابت، ومرونة كبيرة في التحرك بين هذه وتلك لتحقيق المقاصد. فقد واجهته أزمة حادة فور وصوله للحكم، وهي الرغبة الأمريكية في استخدام الأراضي التركية في حربها على العراق. والخيارات هنا كانت صعبة؛ فأردوجان يدرك أنه غير قادر على مواجهة الغرب، وغير راغب في استعدائه خاصة في ظل الترقب الداخلي لخطوات الحكومة (الإسلامية) كما رآها العلمانيون منذ اليوم الأول، ويرفض- من ناحية أخرى -خيانة مشروعه كما فعل الحكام الذين تحدثوا ملء أفواههم ضد الحرب ثم قدموا لها الدعم اللوجستي الذي طلبته الادارة الأمريكية.أقدم أردوجان على مناورة سياسية تدل على فهمه لواقعه والقدرة على استخدام آلياته بشكل جيد. فقد أعلن أنه لا يمانع في استخدام الأراضي التركية كقواعد أمريكية في الحرب، إلا أن الأمر يستلزم موافقة البرلمان، ورفض توجيه حزبه في اتجاه القبول أو الرفض، وجاءت النتيجة بالرفض، وبالطبع أحدث ذلك توترا في العلاقات التركية الأمريكية، ولكنه كان توترا سرعان ما تم تجاوزه، لأن الموقف ذاته اتسم بالمرونة بسبب قبول أردوجان لهذا الأمر في البداية.

وكانت تلك القضية، وقضية العلاقات الإسرائيلية هي أخطر ما يهدد بقاء أردوجان، الذي تجاوز العقبة الأولى بمناورة سياسية مميزة، ثم تجاوز العقبة الثانية بقلب الطاولة على الجميع، واستغلال الأمر لبناء أهمية إقليمية لبلده تمكنه من تحقيق أهدافه، والأهم من ذلك تأمين مشروعه.

فقد كانت قضية العلاقات التركية الإسرائيلية شديدة الحساسية. فنجم الدين أربكان، الذي بدأ حكمه رافضا التعامل مع إسرائيل ومحاولا بناء تحالف إسلامي، اضطر في نهاية الأمر إلى توقيع اتفاقيات عسكرية معها تحت ضغط الجيش. وكان ذلك درسا هاما لأردوجان فهم منه أن معطيات الواقع السياسي بأبعاده المحلية والإقليمية والدولية لن تمكنه من إحداث تغيير جذري في شكل العلاقة.

تجاوز أردوجان هذه النقطة بعبقرية فذة، فقد انتقل بالعلاقة من كونها علاقة حلفاء إلى كونها علاقة تنافس على النفوذ في منطقة (الشرق الأوسط الجديد). ولم يكن بإمكان الغرب أو الجيش مواجهة هذا التغيير في السياسة؛ فطالما أن الأمر لم يكن عداءً لإسرائيل، ولم يكن تحولاً إسلامياً كلاسيكياً، فهو أمر لا مناص من قبوله كأي تغيير سياسي ناتج عن تغيير حكومي، أو تغيير في موازين القوى، أو الحسابات السياسية في المنطقة.

انتقل أردوجان بنجاح بالعلاقة من علاقة الحليفين إلى الندين، وإن بقيت بعض الأمور خارج نطاق سيطرته مثل التعاون العسكري الذي يسيطر عليه الجيش، فلم يحاول الاقتراب من هذه الملفات لعلمه أنه لن ينجح في تغيير مسارها في الوقت الحالي، وبالتالي فإن أي تدخل لن ينتج عنه إلا إحداث اضطراب لحكومته، وفي نفس الوقت فقد كان سكوته عنها مطمئنا للغرب ولإسرائيل، فلم تتخذ أية مواقف عدائية تجاه سياساته الإصلاحية، وإصلاحه في العمق الإسلامي الذي سيأتي الحديث عنه لاحقا.



ومن موقعه الجديد، أشار أردوجان أكثر من مرة إلى ربط العلاقة بإسرائيل بسير عملية السلام، فكسب بذلك نقطة لصالح القضية الفلسطينية، استفزت العلمانيين في تركيا، ولم ترض إسرائيل من دون شك، ولكنها بقيت خطوة في إطار لا فقط (الشرعية الدولية)، بل وأيضا مساحة الحرية التي تسمح بها موازين القوى الدولية. وقد استقبل أردوجان بعد ذلك مجموعة من قيادات حماس فاستغل موقعه لإتاحة آفاق سياسية جديدة للحركة في وقت عانت فيه اختناقا كبيرا.

وقد أدرك الحزب بوعي شديد التغييرات التي طرأت على العالم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فقدّم نفسه للعالم كنموذج إسلامي ديمقراطي جدير بالاحتذاء، فلم يكن بإمكان الحكومات الغربية السعي لإسقاطه. بل إنه (ركب موجة) الإصلاحات الديمقراطية فحاول استثمار علاقاته بالعالم الإسلامي من أجل (نشر الديمقراطية) وإقناع الأنظمة العربية بتوسيع دائرة المشاركة السياسية. أدرك أردوجان أن الواقع السياسي الإقليمي يحتاج لنموذج ديمقراطي له صبغة إسلامية فكان هو هذا النموذج، وقال إن حزبه (ليس حزبا محليا، بل هو نموذج عالمي سيُثبت للعالم أن الإسلام والديمقراطية يلتقيان ولا يتصارعان).

وبهذا الوجه الإصلاحي اكتسب أردوجان لحزبه دورا وأهمية إقليمية مكنته من تأمين مشروعه، كما اكتسب لإصلاحاته الداخلية المزيد من الشرعية السياسية فاستطاع تحجيم الجيش بشكل أكبر. والعبقرية تكمن مرة أخرى في أنه اختار خطابا غير صدامي، بل إنه اختار الخطاب الذي يجبر الغرب على عدم مقاومة مشروعه من دون خسائر سياسية كبيرة.

وهذا التوجه وهذه المساحات المشتركة من العمل مع الغرب على القضايا المشتركة هو ما سمح لأردوجان بأن يتوغل في العمق الإسلامي ويبدأ عملية إصلاحه من دون مقاومة داخلية أو دولية شديدة. وفي هذا الإطار- كما في غيره- تعلم أردوجان من أخطاء أربكان، وسعى لتحقيق أهدافه بشكل أكثر فاعلية وتأثيرا، فلم يحاول إنشاء أي مؤسسة أو تحالف إسلامي جديد، بل حاول إصلاح ما هو قائم بالفعل. فدفع بأكمل الدين إحسان أوغلي مرشحا لمنصب الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، هي المنظمة التي يرى فيها عدد كبير من المفكرين الإسلاميين نموذجا عصريا لوحدة الأمة الإسلامية، بديلا عن نموذج أو نسق الخلافة التاريخي. وبالطبع فإن وجود الدفع بمرشح لمؤسسة موجودة بالفعل وتركيا عضو فيها أقل استفزازا للأطراف الداخلية والخارجية من بناء مؤسسة جديدة. كما أنه في واقع الأمر أكثر تأثيرا على المدى البعيد. في حالة استجابة بعض الأطراف الإسلامية على الأقل للمحاولات الإصلاحية.

كانت السياسة الخارجية واحدة من أهم مجالات التمايز بين حكومتي أربكان وأردوجان، فسياسة الأول كانت أحد أسباب تهشمه الداخلي، فيما كانت للثاني أحد أهم عناصر القوة الداخلية. وقد أثبت أردوجان أنه من الممكن دائما تحقيق مقاصد الشريعة، وأن الشريعة بفهمها العميق قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان، إذا ما اجتهد العقل في فهم الواقع، وإذا ما استخدمت الأدوات المختلفة في تنزيل النص، مثل فقه الواقع، والمقاصد، والأولويات، والموازنات.

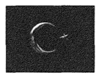
وكانت أهم نجاحات أردوجان الداخلية توسيع قاعدة مؤيديه، واستطاعته جذب أنصار من خارج التيار الإسلامي، يؤمنون بحكومته وبرنامجه ويدافعون عنه، في تجسيد عملي رائع لمفهوم الشريعة التي جاءت لخير وسعادة البشرية، فقد كان هؤلاء الذين لا يؤمنون بالفكرة الإسلامية يرون الخير في حكومته وبرنامجه. ففي الانتخابات الأخيرة، حقق العدالة والتنمية الفوز في ٦٩ من أصل ٨١ محافظة تركية، وهو رقم تخطى منتهى أحلام الإسلاميين قبل فترة قصيرة.

نجاح أردوجان في هذه الخطوة انبنى على نجاح سابق لأربكان، الذي التزم منذ البدء خطابا تركيا وطنيا، على عكس العديد من الحركات الإسلامية المعاصرة التي لا تزال تعاني انفصاما بين انتمائها الأممي وانتمائها الجغرافي، من دون أن تدرك أن التقسيم الجغرافي للأمة يفرض عليها الالتفات للانتماء الجغرافي. ونجاح الحركة التركية في هذا الإطار يعبر عنه أستاذي الدكتور عماد الدين شاهين- أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - بقوله إن أردوجان نجح في تحويل حركته من كونها تيارا إسلاميا رئيسيا لكونها تيارا وطنيا رئيسيا.

وقد تم ذلك بالتزام خطاب وطني يخاطب



أردوجان والإخوان



الجميع ولا يستعدى أحدا (يمكن مقارنة ذلك بالخطاب الإسلامى فى مصر، إذ تكفى قراءة سريعة للموقع الرسمى للإخوان ليقرأ المرء مصطلحات عدائية للعلمانيين الشيوعيين الماركسيين الملحدين أعداء الإسلام» عشرات المرات فى مقالات مكررة الأفكار والألفاظ لمجموعة من الكتاب غير المميزين، والقياديين الذين يتم إفساح المجال أمامهم للكتابة باتساع من قبيل المجاملة التنظيمية، وجل هذه الاتهامات تأتى بسبب خلافات فى الرؤية السياسية لا علاقة لها بالدين، والحقيقة أن هناك محاولات ملموسة للحد من هذه الكتابات، ولكنها لازالت غير كافية)، وكذلك تحقيق إنجاز ملموس على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

فأما الإنجاز السياسى فقد كان إعادة الاعتبار للدور التركى فى المنطقة باعتبارها لاعبا أساسيا، ورقما لا يمكن تجاوزه فى معادلة الشرق الأوسط، وهو ما أعاد إلى (التركى) اعتباره وثقته فى نفسه، حتى صارت تركيا أكثر هدوءا واتزانا فى السعى للانضمام للاتحاد الأوروبى. ذلك أن أردوجان أدرك أن تركيا الأوروبية لن تكون أبدا بلدا بنفس الأهمية السياسية لتركيا المتوسطية، ، وبإعادة توجيه البوصلة السياسية، من دون التنازل عن الطموحات الأوروبية، فقد زادت من أهمية تركيا، وهو ما انعكس من دون شك على شعبية الحكومة.

وهناك الإنجاز السياسى على المستوى الداخلى بتوسيع قاعدة التأييد والمشاركة من خلال إنجاز سياسى ملموس فى مكافحة الفساد، انعكس اقتصاديا بالطبع فى شكل زيادة الموارد الحكومية. وقد تم ذلك من خلال عدة إجراءات بدأ بها الحزب فترة حكمه الأولى، منها بيع آلاف البيوت الفيلات الحكومية التى تستخدم من قبل كبار البيروقراطيين، وتقليص عدد الوزارات بما يزيد على الثلث، وغيرها من الإجراءات التى كان الحزب قد أعدها قبل وصوله للسلطة، وأعلن عنها أردوجان فور استلام حزبه مقاليد الأمور

كان هناك الإنجاز السياسى الرائع فى الانفتاح السياسى الذى شهدته قوائم الحزب الانتخابية، التى ضمت بعض رموز (العلمانية المعتدلة)، وهو ما شكل ضربة قاصمة للسجال والاستقطاب الإسلامى العلمانى الذى كانت تدفع باتجاهه قوى المعارضة أملا فى حدوث اضطرابات تدفع الجيش للتحرك. والعبقرية هنا تكمن فى إدراك أردوجان بأن مطالبه فى زيها الوطنى لا تتعارض مع مطالب المعتدلين العلمانيين، وإنما الصدام واقع لا محالة بين الغلاة فى الطرفين الإسلامى والعلمانى. ثم إنه يدرك أن معركة الإسلام الحقيقية -كما سبق- هى معركة توسيع قاعدة الديمقراطية وجعلها أكثر تمثيلا، وهو المطلب الذى سيلتف حوله معتدلى العلمانية، حتى لو لم توافق مآلاته أهدافهم.

وهذا الانفتاح (والتواضع) السياسى كان سلاحا فائزا فى يد العدالة والتنمية منذ البداية؛ فبعد فوزه فى انتخابات ٢٠٠٢ بأغلبية مطلقة من مقاعد البرلمان للمرة الأولى فى تركيا منذ زمن بعيد، كانت الخطوة الأولى لأردوجان هى اللقاء مع زعماء المعارضة لتنسيق أجندة العمل الوطنى. هذا النهج انتهجه الإخوان المسلمون فى مصر عقب انتخابات مجلس الشعب ٢٠٠٥، حيث عقدوا لقاءات مع الزعامات السياسية المختلفة، بل ومع القوى التى تخاف الصعود الإسلامى مثل الأقباط، إلا أن عقبات كثيرة (أغلبها أمنى) حالت دون أن تحقق هذه اللقاءات مقاصدها، وهو ما يستحق الدراسة والتقييم، وليس هذا مجاله.

وعلى الصعيد الاجتماعى نجح الحزب فى استقطاب بعض الفئات الاجتماعية الهامة فى تركيا، بقطع النظر عن انتمائها الإيديولوجى، لما رأت فى برنامج العدالة والتنمية من تحقيق لأهدافها ومصالحها. فالحزب أولا بسياساته الاقتصادية نجح فى استقطاب رجال الأعمال الوطنيين، بأن فتح أمامهم سبل الاستثمار وتحقيق الأرباح، وكان من نتيجة ذلك أن نجح الحزب أيضا فى استقطاب قطاع كبير من الفقراء، بعد أن توفرت فرص كبيرة للعمل، وزاد الدعم الحكومى بسبب توفر قدر كبير من الأموال نتيجة لترشيد الإستهلاك الحكومى.

وقد كان من أسباب دعم الفقراء للحكومة كذلك خلفية أهم شخصيات الحزب، أردوجان وجل، فكلاهما ينتمى أصلا لهذه الطبقة، وكلاهما يصر فى كل مناسبة سياسية على تأكيد انحيازه لها، وهو ما تترجمه السياسات الفعلية لهما لا كما يحدث فى النظام المصرى. والحقيقة أن الجانب الشخصى لأردوجان وجل كان له دورا كبيرا فى نجاح الحزب، وهو ما سنتناوله فيما بعد.

أما على الصعيد الاقتصادى، ولعله الأهم، فقد كانت النجاحات الاقتصادية للحكومة التى انتشلت تركيا من تعثرها الشديد سببا أساسيا فى التفاف الكثير من غير الإسلاميين حولها. وقد نقل لى أساتذتى ممن هم على صلة بعلمانيى تركيا قولهم أنهم لا يمانعون فى بقاء أردوجان الإسلامى فى السلطة طالما استمر فى مكافحة الفساد، وتوسيع مساحات الحريات الشخصية، والأهم تحقيق الإنجاز الاقتصادى. ولعل ثقة الشعب التركى فى السياسة الاقتصادية لأردوجان قد عكسه ارتفاع مؤشر البورصة التركية فور إعلان فوزه.



أما عن أسباب النجاح الاقتصادى فلعل أهمها على الإطلاق التخطيط الجيد. فبحسب مسؤولى الحزب، فإن أردوجان ورفاقه كانوا قد أعدوا ٣٠٠ مشروعا اقتصاديا جاهزا للتنفيذ قبل وصول الحزب للسلطة، وهو ما يدل على أن الحزب قد تجاوز الخطاب الدينى العاطفى، الذى يتحدث عن سعادة البشرية بحكم الإسلام من دون تقديم حلول عملية، واتجه إلى العملية فى توفير أسباب النجاح، فاعتمد مشروعات وسياسات اقتصادية توفر قدرا من الرخاء، وتتجاوز بالوطن أزمته الاقتصادية.

وقد انعكس هذا (التخطيط الدقيق) -كما يسميه الإمام البنا- على المؤشرات الاقتصادية بشكل كبير؛ فقد انخفض معدل التضخم من ٧٠٪ عام ٢٠٠١ إلى ٥,٩٪ عام ٢٠٠٦، وزاد الناتج القومى بنسبة الثلث، وزادت الصادرات التركية بنسبة كبيرة بسبب الدعم الحكومى، وزادت الاستثمارات الأجنبية بسبب الإصلاحات السياسية التى جذبت الإستثمارات، ووصلت معدلات النمو الاقتصادى إلى ٧٪.

وأخيرا يبقى القول فى هذا الإطار أن هذا الإنجاز الملموس على الأصعدة المختلفة هو ما مكن العدالة والتنمية من اختراق الحصار الإعلامى الذى فرضه عليه العلمانيون. ففى انتخابات ٢٠٠٢، وفى الانتخابات المبكرة الأخيرة، شنت الصحف الرسمية العلمانية، إضافة إلى المؤسسات العلمانية من قضاء وجيش، حملة عنيفة على الحزب، طالت فى المرة الأولى أردوجان فاتهمته بالفساد، وطالت فى الثانية الحزب بأسره، وفى كلتا المرتين كان التلاحم الحقيقى (لا البروباجاندا ولا الظهور السياحى) مع الشارع، إضافة إلى العمل وتحقيق الإنجاز المستمر، هو الواقى، وهو السلاح الذى وصل بالعدالة والتنيمة إلى السلطة.

وتبقى فى مناقشة أسباب النجاح الذى حققه حزب العدالة والتنمية التركى نقطة هى من الأهمية بمكان، وتتمثل فى الفارق فى أسلوب وقدرات القيادة بين نجم الدين أربكان ورجب طيب أردوجان.

وليس المقصود من هذه المقارنة هو الانتقاص من شأن أربكان، بل هو سياسى إسلامى كانت له نجاحات كبيرة، وسيبقى التاريخ يذكر له كونه أحد أهم إسلاميى تركيا. ولعل هذا السبب تحديدا هو ما يجعل هذه المقارنة غاية فى الأهمية؛ فأربكان هو النموذج التقليدى للـ(إسلامى)؛ وهو نموذج متكرر بطول العالم الإسلامى وعرضه، يتصدر ساحات العمل الإسلامى، ونموذج أردوجان هو نموذج آخر يحاول أن يحدث (نقلة) فى الحركة الإسلامية وتتفاوت قوته بين مكان وآخر.

نجم الدين أربكان هو (الأستاذ) كما يلقبه أتباعه، الذين (يقبلون يده) كدلالة على الاحترام والتقدير، تماما كما هو الحال مع العديد من القيادات الإسلامية. وهو الزعامة التاريخية، التى ظهرت فى ستينيات القرن الماضى، ولا تزال تتصدر ساحات العمل، بجد وحماس، وإصرار على استكمال المسيرة. أما أردوجان فهو المواطن الإسلامى،

تعامُل أردوجان مع الأزمات الدولية يعكس فهما عميقا للواقع والثوابت، ومرونة كبيرة فى التحرك بين هذه وتلك لتحقيق المقاصد

أردوجـان والإخـوان



لاعب الكرة الذى شارك فى المباراة التى أقيمت بين زعماء أوروبا وأمريكا اللاتينية بمناسبة تسلم فنلندا لرئاسة الاتحاد الأوروبى، وهو ليس الزعيم الأوحد وإنما هو قائد الفريق، الذى يظهر فيه لاعبون لا يقلون عنه أهمية مثل جل وزير الخارجية ثم رئيس الجمهورية، وأرنيش رئيس البرلمان. وهو أيضا التكنوقراطى المتميز، هو وأغلب قيادات الحزب، الذى اكتسب خبرة العمل فى المؤسسات الدولية، وانشغل منذ البداية (بالسياسة الشعبية) عن طريق التواصل مع الجماهير فى المحليات.

وأربكان هو الإسلامى التقليدى، صاحب المواقف الصلبة، التى يظن تجاوزها تفريطا، مثل إصراره على أن تتصدر قضية الحجاب أولوياته، وموقفه من إسرائيل، وهى مواقف أقرب للعاطفية والنظرية منها للعملية والبراجماتية السياسية الإسلامية (وأنا أعلم أن الإسلاميين لا يحبون هذه اللفظة، ويمكن استبدالها بالمقاصدية أو الواقعية)، وهذه المواقف الصلبة هى ما أنتجت صدامات كبيرة مع الجيش والمؤسسات العلمانية كان نتيجتها إسقاط حكومته ومنعه من العمل السياسى وحظر حزبه. ولكن (العناد السياسى) الذى يتميز به أربكان كغيره من الإسلاميين التقليديين جعله يصر على الاصطدام، فأسس حزبا آخر على نفس المبادئ بل وفى نفس المقر أداره عن طريق أحد أصدقائه وخاض به نفس المعارك فخسر جولات أخرى.

وأنا هنا أقاوم إغراء فى أن أستطرد فى هذه النقطة، وأن أشير إلى أوجه التشابه بين هذا السلوك وبين سلوك العديد من القيادات الإسلامية فى مصر ولبنان والجزائر والأردن وفلسطين، أقاوم هذا الإغراء حتى لا أضع أحدا فى موقف دفاعى يمنعه من رؤية المقصود من المقال، وحتى لا تتم شخصنة الفكرة وتحويلها لاتهامات لأفراد مخلصين يحملون قضايا أمتهم، ولكن تبقى الإشارات والمشابهات واضحة لكل ذى عينين.

أما أردوجان فهو السياسى المرن؛ يعارض الانضمام للاتحاد الأوروبى ويعتبر ذلك سلخا لتركيا عن جذورها الإسلامية، ثم يعيد تقييم الأمور ويرى المصلحة فى ذلك فيذهب للتوقيع على أحد الشروط فى كنيسة أوروبية؛ يقرأ أبيات من الشعر الإسلامى فى مظاهرة تساند أربكان فيسجن، ثم يخرج فيدرك خطورة الصدام الإسلامى العلمانى فيزور قبر أتاتورك، يؤكد حفاظه على علمانية الدولة (وليس هذا تفريطا، فكما أشرت من قبل، كان العلمانية التى أعلن أردوجان قبولها هى ما نسميه فى مصر مدنية الدولة)؛ يقدم مشروعا لتجريم الزنى للبرلمان فيحدث ذلك اضطرابا داخليا وأوروبيا فيسحبه؛ يناور الولايات المتحدة فيحقق مقصده من دون مواجهة. كل هذا لخصه أردوجان نفسه حين انفعل على هجوم عنيف فى البرلمان فرد قائلا: «تغيرت، بل تطورت، ولم أبق على ما كنت عليه قبل ٣٠ سنة، إن عقلى ليس متحجرا».

والحقيقة أن هذا (التطور) عجزت بعض العقول (خاصة من ذات التشكيل الذى يسميه الدكتور القرضاوى بالظاهرية الجدد، الذين ينظرون إلى النص بمعزل عن الواقع والمقصد) عن فهمه، ولم تر الخير الذى تعود به هذه الديناميكية ودورها فى تحقيق المقاصد، وأشعر أننى أكثر من استخدام كلمتى الواقع والمقاصد، ولكنى أراهما المفتاح لفهم سياسات أردوجان، وكذا لبناء منهجية إصلاح إسلامى معاصرة.

وعلى صعيد القيادة، فأربكان هو القائد الإسلامى التقليدى، الذى تكاد زعامته تصطبغ بصبغة دينية، فيكون زعيما دينيا لا سياسيا، وهو ما تنكره كل الحركات الإسلامية المعاصرة لأن الإسلام لا يعرف الزعامة الدينية، ومع ذلك تبقى تصبغ قياداتها بتلك الصبغة الدينية. فقول أربكان فى حزبه لا يرد، وهو لا يعتذر أبدا عن تصريح أو قرار خاطئ لأن ذلك ينتقص من قدر حركته أو دعوته.

وكان طبيعيا لذلك أن يبقى أربكان على رأس الأحزاب الإسلامية المختلفة التى أسسها فى تركيا لمدة ثلاثين عاما من دون أن يحاسبه أحد، بل ومن دون أن ينافسه أحد على الزعامة (حين ناقشت فضيلة الأستاذ محمد مهدى عاكف، المرشد العام للإخوان المسلمين، حول هذه النقطة رآها نقطة الضعف الوحيدة فى صديقه أربكان). حتى عندما منعه القضاء من ممارسة العمل السياسى إختار هو رئيس الحزب البديل، صديقه رجائى كوطان، فظل بعلم الجميع الرئيس الفعلى للحزب. والأمر يكاد يكون متطابقا مع حركات إسلامية متعددة بطول العالم الإسلامى وعرضه.

ولذلك كان صعبا على الحزب أن يحتمل وقوف جل كمرشح لرئاسة الحزب أمام كوطان. فجل وأردوجان ومجموعتهما - بحسب أربكان - لازالوا صغارا، رغم أنه كان أصغر منهم حينما تصدر العمل الإسلامى ودفع بالحركة خطوات للأمام قبل أربعة عقود. بل إن كوطان اعتبر ترشح جل أمامه (خروجا سافرا على تقاليد الحزب) التى لم تكن تسمح لأحد بالترشح أمام الرئيس!!

أما جل وأردوجان فقد أعلنا من البداية أن مجموعتهم لن تقصى أى فكرة من الحوار، وأدارا حوارات علمية فكرية سياسية بمساعدة متخصصين مثل المفكر أحمد داود أوغلو لبناء برنامج للحزب ومنهجية للتعامل مع الواقع، فكان التجديد الفكرى.

وحرص جل وأردوجان على ألا تتكون حول أى منهما هالة الزعامة الأسطورية، فتبادلا مواقع القيادة غير مرة. فجل ترشح أمام كوطان على رئاسة حزب الفضيلة، ثم رأس أردوجان حزب العدالة والتنمية، وتولى جل رئاسة الوزراء، ثم تنازل عنها لأردوجان، ثم عاد الحزب يرشح جل لرئاسة الجمهورية، لتكتمل السيمفونية الرائعة التى أكدت أن المناصب والزعامة ليست هدفا، وقد تنازل كل منهما عنها مرات، وهى آخر ما ينزع من القلب من حظوظ النفس كما فى الحديث.

ويحضرنى هنا قول الله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)؛ واللسان ليس اللغة المنطوقة فحسب، والبيان ليس البيان الكلامى دون غيره. وأردوجان تحدث بلسان قومه حين كان مواطنا تركيا، تواصل مع الفقراء، وشاركهم حلم الانضمام للاتحاد الأوروبى، وتعامل مع معطيات الواقع بشكل جيد، فقدم بيانا عمليا تمثل فى نجاحات سياسية واقتصادية واجتماعية كانت دليلا على فعالية فكرته وقابليتها للتطبيق، وما فكرته إلا فهمه للإسلام.

والحقيقة أن أربكان عجز عن رؤية العالم كما يراه أردوجان، وأصر على عناده وأحادية التفكير التى تميز بها كغيره من الإسلاميين التقليديين الذين لا يرون الأمور إلا من زاوية واحدة، فاتهم العدالة والتنمية بالعمالة لأمريكا وإسرائيل، ثم قال فى كلمة معبرة وقت الانتخابات (إن من أعطى صوته للعدالة والتنمية قد اشترى تذكرة لجهنم). هكذا وصل الخلاف بين الإسلاميين التقليديين والمجددين إلى (حارة سد)، بسبب جمود فى مواقف القيادات التاريخية للحركة الإسلامية التركية، ولكن الشعب التركى انحاز للخيار التجديدى. وحتى بين الأصوات الإسلامية فقد كانت الغالبية فى صالح مشروع أردوجان التجديدى؛ ففى حين حصد الرفاه ٢٢٪ من الأصوات عام ١٩٩٥، لم يحصل السعادة إلا على ٤٪، وأغلب الظن أن باقى الأصوات الإسلامية ذهبت للعدالة والتنمية.

وبعد، فهذه محاولة لتقييم تجربة إسلامية وليدة ولكنها ناجحة، أشرت فيها لبعض أسباب النجاح، دون أن أنسى توفيق الله، ودون أن أنسى أن للتجربة أخطاء، ولكن هذه تكفل بها غيرى، إذ ما لبثت الحركة أن نجحت فى الانتخابات حتى تلقتها الأقلام الإسلامية بالاتهامات، وبالإشارة إلى أخطائها، أو على أحسن تقدير عدم القدرة على استنساخها مع الإشارة لعوامل التمايز من دون العوامل المشتركة. فرأيت أن الأولى أن أشير لبعض الدروس، لعل الله ينفع بها العاملين على الساحة الإسلامية. وتبقى إشارة أخيرة إلى الفارق بين السياق التركى والسياقات الأخرى، ففى تركيا -كما يقول الدكتور محمد حبيب- يقصى الجيش الإسلاميين، وفى مصر يقصى النظام الإسلاميين وغير الإسلاميين، وبالتالى فالسياق مختلف، وأنا أعلم أنه من غير المعقول تطبيق نفس سياسات العدالة والتنمية فى غير تركيا، وإنما أقصد دراسة المنهجية فى التعامل وليس ما ينتج عنها، علنا نتمثل قول الله تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا)، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل، والحمد لله رب العالمين. ■







بقيت خير النساء بحجابها
مثاراً للتعليقات والقلق وتصوير الأمر بالانقلاب الدستورى، الذى يوشك على تدمير الدولة العلمانية

■■ كان الحدث الأكبر والأعظم على الساحة الدولية والإسلامية خاصة طوال شهرى أغسطس وسبتمبر ٢٠٠٧م، هو وصول السيدة «خير النساء» زوج «عبدالله جول» إلى قصر الرئاسة التركى «جانقاء»، بعد مرور أكثر من ثمانين عاماً على وجود آخر سيدة محجبة فيه، وهى «لطيفة هانم» زوج «مصطفى كمال أتاتورك»، الرجل الذى ألغى الحجاب فى سلسلة إجراءاته لتحويل تركيا من دولة الخلافة الإسلامية التى ينتمى إليها العرب والعجم، إلى دولة قومية حديثة، لا علاقة لها بالإسلام ولا بالمسلمين.

لم تكن «خير النساء» بحجابها وحرصها على أداء الصلوات الخمس، هى القضية الأساسية التى تؤرق الفريق المهيمن على تركيا، والمتسلح بالجيش والدستور والقانون والنخبة الثقافية وقادة الأجهزة والمؤسسات المختلفة.. ولكن «خير النساء» كانت رمزاً لقضية أكبر وأعمق، إذ إن زوجها «عبدالله جول» إسلامى الفكر والتوجه والتصور، قد صار رئيساً للجمهورية التركية التى تعتمد «العلمانية» منهجاً ودستوراً، ومعنى وصوله إلى سدة الحكم تحويل مسار النظام التركى العلمانى وتغييره، وهو ما يغضب الفريق المهيمن وأنصاره، ويهز الصورة السياسية والعقدية لتركيا التى استقرت فى الأذهان أكثر من ثمانية عقود.. وإذا عرفنا أن هذه الصورة مقدسة، وينبغى عدم المساس بها، فلنا أن نتخيل عمق الصراع بين أصحابها، وأولئك السادة الذين دفعت بهم الانتخابات التشريعية ثم الرئاسية، إلى سدة الحكم وقيادة البلاد، وهم يمتلكون فكراً مغايراً وتصوراً معاكساً!

لقد أصدرت قيادة الجيش التركى تحذيراً من انتهاك «العلمانية» أو الخروج على تقاليدها، وأسسها، وحذر رئيس الأركان فى هذا الجيش، من أسماهم بـ «أوكار الشر» من أى تغيير فى النسق العلمانى للبلاد.

ومع ذلك، فقد أقسم «عبدالله جول» على حماية الدستور والالتزام بالنظام العلمانى، واحترام العقائد والحريات الشخصية..

وبقيت خير النساء بحجابها مثاراً للتعليقات والقلق وتصوير الأمر بالانقلاب الدستورى، الذى يوشك على تدمير الدولة العلمانية، وتبدى ذلك فى رفض قادة الجيش حضور حفل التنصيب، الذى أقيم لعبدالله جول، وهو يتسلم رئاسة الجمهورية، كما رفض بعضهم أداء التحية العسكرية له، وطرحت تساؤلات عديدة عن موقف السيدة «خير النساء» المحجبة من حضور الحفلات الرسمية والزيارات الخارجية برفقة زوجها، حيث تحظر «العلمانية» على نساء الأتراك ارتداء الحجاب، ولكن زوجها الرئيس استطاع أن يتجاوز هذه التساؤلات بطريقة «دبلوماسية»، وفوّت على المتربصين به وبالمرجعية الإسلامية فرصة النيل منه أو منها..

ولكن بقى الأمر يمثل معضلة فى الذهنية العلمانية السائدة، داخل تركيا، وعلى امتداد العالم الإسلامى، فهذه الذهنية تبدو أكثر توحشاً فى فهمها للعلمانية، حيث تنطلق من مفهوم استئصالى لا يتسامح مع الإسلام بوصفه دين الأمة الأساسى، ولا يرتضى بمشاركة التصور الإسلامى للتصورات الأخرى فى معالجة قضايا الواقع ومشكلاته، وبدا الأوروبيون الذين نشأت «العلمانية» فى أحضانهم أكثر تسامحاً، وأكثر قبولاً لوجود الإسلام بوصفه - على الأقل - عقيدة شخصية يجب احترامها وعدم المساس بها.

لقد نشأت «العلمانية» أو الدنيوية فى أوروبا نتيجة لظروف تاريخية خاصة بها، حيث كان للكنيسة دور سلبى فى حياة الناس، من حيث الهيمنة على دنياهم وأخراهم، سواء فى الواقع السياسى أو الاجتماعى، ونتجت مظالم عديدة، أدت إلى ثورات عديدة أبرزها الثورة الفرنسية، التى كان أحد شعاراتها «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، ونشأ ما يسمى بفصل الكنيسة عن الحكومة، ليكون للأولى دورها المحدود فى الوعظ والإرشاد الدينى دون أن تتدخل فى السياسة أو العلم أو الاقتصاد أو غير ذلك.

شاع آنئذ مصطلح «العلمانية» تعبيراً عن الفصل بين الكنيسة والحكومة، ومر هذا المصطلح بمراحل عديدة أبرزها تقنين استعمار الشعوب المستضعفة «ومعظمها إسلامية»، واستحلال ثرواتها، والهيمنة على مقدراتها، والعمل على تغيير هويتها وثقافتها.. بيد أن الكنيسة تلاقت مع الحكومة فى العقود الأخيرة من القرن العشرين فيما يشبه التحالف، لتحقيق غايات دينية واستعمارية، فقد كانت الكنيسة من خلال تعاونها مع أمريكا، فى عهد «ريجان»، عاملاً رئيسياً فى إسقاط المعسكر الشيوعى وتفكيكه انطلاقاً من بولندا ومنظمة «تضامن»، وعمال «جدانسك»، وقيام ما يسمى «بمجلس الكنائس العالمى» للسيطرة على كنائس العالم باختلاف مذاهبها وطوائفها، من خلال دعم سياسى واضح تقدمه أمريكا ودول الغرب، ثم وصل الأمر إلى صعود من يسمون بالمحافظين الجدد إلى سدة الحكم فى العديد من دول الغرب، وهم الذين يحكمون الآن على غيرهم من الشعوب باسم الله، ويقسمون الشعوب إلى أشرار وأخيار، ومتطرفين ومعتدلين، مما يعبر عن حالة من التوحد بين الكنيسة والحكومة مرة أخرى، وإن كان واقع الحياة الديمقراطية فى الغرب، يحول دون تكرار مظالم الكنيسة ضد رعاياها، كما كان يحدث فى أزمنة ما قبل العلمانية.



وقد كانت تركيا أو «بلاد الروم» - كما كان يسميها المسلمون الأوائل - هدفاً استراتيجياً للسعار الوحشى الاستعمارى، بوصفها زعيمة العالم الإسلامى من خلال الخلافة التى كانت تسمى آنئذ بالدولة العثمانية، حيث بدت هذه الدولة رمزاً لعدو الحق بأوربا كثيراً من الهزائم والمتاعب خاصة بعد نجاح الأخيرة فى إجلاء المسلمين من الأندلس عقب إبادة الألوف منهم، وتحويل من تبقى إلى «المسيحية»، وقصة «محاكم التفتيش» فى هذا السياق معروفة.

وقد كان تشويه الدولة العثمانية، ووصمها بكل الصفات السلبية، خطوة أخرى، تلتها خطوات أخرى بتحريك النزعة الطورانية داخل تركيا، ورعاية نخبة تركية موالية للغرب، وقضم أطراف الدولة العثمانية استعمارياً، وتفتيت ممتلكاتها تمهيداً لوراثتها فيما أطلق عليه اسم تركة «الرجل المريض»..

وقد نجحت أوروبا فى تحقيق استراتيجيتها بتفكيك الإمبراطورية الإسلامية، وإقامة الدولة القومية العلمانية التى تخلصت من الإسلام فى الحكم والسياسة والاقتصاد والتعليم والحياة الاجتماعية، على نحو أثار كثيراً من الجدل والغضب فى أرجاء العالم الإسلامى، ولكن ذلك لم يمنع استقرار الوضع الجديد، مع سقوط العرب، مركز الدولة العثمانية - فى براثن الوحشية الاستعمارية التى لم تتوان عن تكرار ما جرى فى تركيا فى البلاد العربية.

ومع مرور الوقت، وتعدد الأحداث، واستقلال الدول العربية، وإنشاء الكيان الصهيونى فى فلسطين، وهزيمة العرب داخلياً وخارجياً، وتصاعد المد الإسلامى، بالتوازى مع صعود القمع والاستبداد وهيمنة النخب المتغربة، فقد جاء وصول الإسلاميين إلى الحكم فى تركيا، وقيادتهم لمؤسسات الرئاسة والوزارة فى ظل سطوة الجيش والنخب العلمانية التى تقود مرافق الدولة الرئيسية ليشكل مفاجأة غير متوقعة بعد أكثر من ثمانين عاماً، وهو ما أثار التساؤلات التى لم تتوقف، وأظنها لن تتوقف، وخاصة فى بلادنا العربية، عن علاقة الدين بالدولة، واستمرار الصراع بين سلطان الدين على عواطف الشعوب العربية وقلوبها من ناحية، وبين حكومات تساندها نخب ثقافية تبتهل فى محراب العلمانية، وتتوسل فى سبيل ذلك بأحدث ما وصلت إليه تقنيات القمع والحصار والتشهير.

وإذا كانت العلمانية أو الدنيوية فى الغرب تعنى الفصل بين الكنيسة والحكومة، فالإسلام ليس فيه كنيسة، ولا يعرف مسمى «رجال الدين»، لأن من يقومون على شئون العقيدة والشريعة، هم علماء، مثلهم مثل علماء الجغرافيا والتاريخ والكيمياء والرياضيات والفلك.. لهم حق الاحترام والتوقير، ولكنهم لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضرراً، كما لا يشكلون سلطة للغفران أو الحرمان، والإسلام فى كل الأحوال يعالج شئون الاعتقاد والسلوك الإنسانى، فى أساسيات أو ثوابت معروفة، تجعل المجتمع الإسلامى مدنياً، وليس علمانياً أو بوليسياً أو عسكرياً.. إنه مجتمع القيم والأخلاق

في قلعة العلمانية!!

حلمي محمد القاعود



العامة التي تجعل الفرد مسئولاً عن نفسه أمام ربه وخالقه: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الأنعام: ١٦٤).

ومن المفارقات التي طفت على سطح الواقع الإسلامي بعامة، عقب فوز حزب «العدالة والتنمية» التركي بالأغلبية الشعبية في الانتخابات التشريعية الأخيرة (يوليو ٢٠٠٧م)، أن الدستور العلماني في تركيا أتاح للهامش المحدود من الحرية، أن يساعد على وصول الإسلاميين إلى سدة الحكم، ودخول «خير النساء» بحجابها المميز إلى قصر «جانقاه»، في الوقت الذي تنص فيه الدساتير العربية أو معظمها على إسلامية الدولة، ولكنها لا تسمح للقوى الإسلامية بالحركة السياسية التي تتيح لها الصعود إلى الحكم، أو المشاركة المحدودة في النشاط السياسي، مما يؤدي إلى اعتقالات ومحاكمات، وخصومات مستمرة تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة، ويكفي أن بعض الدول العربية لا تسمح بظهور مذيعة محجبة على شاشة تليفزيونها الرسمي!

في السياق ذاته، تبدو الخصومة بين الدين والدولة ـ السلطة بمعنى أدق ـ قائمة على المغالبة، وليس المحاورة، ففي الوقت الذي تسخر فيه أجهزة السلطة من إعلام وصحافة، وإذاعة وتلفزة، وتعليم وثقافة، وهيئات رسمية وتشكيلات حزبية، لترسيخ مفهوم الفصل بين الدين والواقع، وتستعين بالنخب العلمانية في تشويه صورة الإسلام، وربطها بسلوك بعض المنتسبين إليه من الأفراد أو الجماعات، دون النظر إلى طبيعة الإسلام في مصادره الجوهرية والأصيلة.. فإنها لا تسمح للنخب الإسلامية بعرض وجهة النظر الإسلامية العلمية، وإذا حدث استثناء فهو نادر ومحدود وغير مؤثر.

ولا شك أن هذه الخصومة ذات مستوى آخر وأخطر في حقيقة الأمر، فهي صراع بين النموذج الغربي الذي يسعى لفرض هيمنته فرضًا كاملاً شاملاً على العالم الإسلامي، والنموذج الإسلامي الذي يبدو غائمًا ومنهكًا ومثخنًا بالجراح، بعد حروب وانكسارات وهزائم على مختلف المستويات..



فى طريق السياسة ثم الثورة

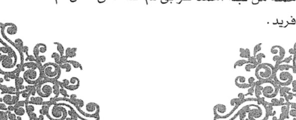
مذكرات عريان يوسف سعد

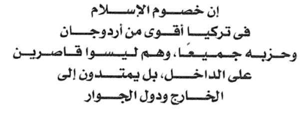
كانت أول خطوة لى فى طريق السياسة، ثم الثورة، دعوة من زميل فى مدرسة الطب للذهاب إلى مكتب شقيقه المحامى فى القاهرة لنوقع عريضة توكيل للوفد المصرى. ولست أستطيع أن أصور مشاعرى، وأنا أدلف إلى ذلك المكتب فى سواد الليل فأجد زميلى فى غرفة وكيل المحامى ونحن جميعًا نكاد يختفى كل منا عن أنظار صاحبه من شدة الحذر. وأمسك بالورقة فأقرأ فيها أننى أوكل سعد زغلول ومن معه للسعى فى المطالبة باستقلال مصر ما وجد إلى السعى سبيلاً، وأمسك القلم فأوقع باسمى وصناعتى:

عريان يوسف سعد   طالب طب

إذن فقد أصبحت صاحب قضية، وقد وكلت فى تلك القضية محاميًا. أما القضية فقضية استقلال الوطن، وأما الوكيل فهو سعد زغلول. وإذن فقد حُق لى أن أتتبع خطوات ذلك المحامى ومدى نشاطه، وهل يقوم على الوكالة الخطيرة كما يجب أن يقوم الوكيل الأمين، أم أنه تصدى لها لحاجة فى نفسه.

ولكن دروس مدرسة الطب لا تترك فراغًا لطالبها، ولذلك اقتصرت رقابتى على السؤال فى فترات الراحة فأسمع أن معركة حامية نشبت بين رجال الحزب الوطنى وبين سعد وزملائه حول صيغة التوكيل، وأن تلك الصيغة قد عُدلت بما أرضى رجال الحزب الوطنى فقبلوا أن يوقعوا التوكيل. وهكذا انفرد سعد بتمثيل المصريين جميعًا بعد أن بايعه الحزب الوطنى، وأصبح سعد حامل العَلَم الذى حمله من قبله أحمد عرابى ثم مصطفى كامل ثم محمد فريد.







ومع أن حزب «العدالة والتنمية» تعرض لمضايقات عديدة، وحملات مكثفة من النظام العلمانى، إلا أنه أثبت وجوده، لأنه يقدم أسلوبًا جديداً للحركة الإسلامية فى التعامل مع القضايا المختلفة، وهو أسلوب ناجح وفعال، يجعل منه نموذجًا يفرض نفسه على الحركة الإسلامية فى بقية أرجاء العالم الإسلامى.

وللأسف، فإن بعض الإسلاميين لا يدركون حجم المصاعب التى يتحرك من خلالها «العدالة والتنمية»، ويتصورون أن «رجب الطيب» يمكنه أن يحول تركيا بعد فوزه وفى وقت قصير إلى عاصمة للخلافة الإسلامية مرة أخرى. ويطبق الشريعة الإسلامية مباشرة، وهذا عصف، وتفكير بعيد عن المنطق، لأن الرجل يتحرك فى متاهة موحشة مليئة بالخوف والرعب وقوى الظلام المعادية للإسلام..



إن خصوم الإسلام فى تركيا أقوى من أردوغان وحزبه جميعًا، وهم ليسوا قاصرين على الداخل، بل يمتدون إلى الخارج ودول الجوار، ويمكن تلخيصها فى:

المؤسسة العسكرية التى أعدمت رئيس الوزراء عدنان مندريس عام ١٩٦٠، مؤسسة التعليم العالى التى تقوم بالإشراف على مائة جامعة وتقوم بتصفية الأساتذة من ذوى الميول الإسلامية، النقابات اليسارية، المؤسسة العسكرية السرية (جلاديو) ويقف وراءها حلف الناتو، وهى منظمة مدربة على جميع أنواع الاغتيالات والتفجيرات، وكثيراً ما تقوم بعمليات اغتيال وتنسبها للإسلاميين، خاصة عند اغتيال كاتب ملحد أو صحفى شيوعى فتثور الصحافة والميديا لمواجهة (الخطر الإسلامى) الذى يريد جر تركيا إلى الظلام والعصور الوسطى، الدستور الذى يحرم قيام أحزاب إسلامية، ويفرض على كل حزب أن يؤكد على علمانيته ومبادئ أتاتورك، وعلى كل مسئول ونائب أن يقسم على إخلاصه لهذه المبادئ.

وقد أدرك «أردوغان» أن الإعلان عن إسلامية حزبه سيورده موارد التهلكة (بالقانون)، وسيدفع به مع رفاقه إلى السجن (بحكم المحكمة الدستورية) مع مصادرة أموالهم وأموال الحزب، ولذا فإنه نظر إلى المساحة التى يمكن أن يعمل من خلالها لخدمة أهداف الإسلام العليا دون لافتة إسلامية، وفى مقدمة هذه الأهداف مكافحة الفقر والجهل والمرض وتقوية تركيا سياسيًا واقتصاديًا وعلميًا وتقنيًا وصناعيًا، وزيادة ثقلها السياسى فى العالم، وتخليص الاقتصاد التركى من قبضة العلمانيين المتطرفين، ورفع العوائق أمام التعليم الدينى والحرية الشخصية للمسلمين الأتراك، وترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان، والعمل على إنهاء الهيمنة العسكرية على السياسة التركية، وإنهاء عهد الانقلابات العسكرية التى أخرت البلد عقوداً طويلة.. وهذه الأهداف - دون ريب - عندما تتحقق ستعود على ملايين المسلمين فى تركيا وخارجها بخير كثير. أهم بكثير من اللافتات والشعارات فى المرحلة الحالية على الأقل.

لقد واجه «أردوغان» الشارع السياسى، بل الشعب التركى بلغة الأرقام تعبيراً عما حققه فى حكومته الأولى، قبل الانتخابات التشريعية الماضية:

- تخفيض نسبة التضخم من ٣٧٪ إلى ٩٪ تقريباً.
- تخفيض نسبة الفائدة من ٦٥٪ إلى ١٥٪ تقريباً. (والعمل مستمر لتخفيضها إلى أدنى حد ممكن).
- إعادة الاعتبار لليرة التركية، حيث حذف ستة أصفار منها لتقترب من الدولار الأمريكى فى أجرأ خطوة اقتصادية لم تقدم عليها الحكومات السابقة (الدولار الأمريكى = ليرة ونصف ليرة تركية تقريباً).
- توزيع الكتب والكراسات والأدوات الكتابية على جميع طلاب المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية مجانًا، ويبلغ عددهم عشرة ملايين طالب تقريباً، فرفع بذلك عبئًا كبيراً عن كاهل

الفقراء، بالإضافة إلى تخصيص مرتبات للطلاب المحتاجين.

- وضع يد الدولة على أملاك اللصوص الكبار وبيوتهم ومصانعهم ويخوتهم وسياراتهم الفارهة وقدمهم للمحاكمة، وخلص البلاد من طبقة النهب التى يقدر ما هربته إلى الخارج بأكثر من ٤٦ مليارا.

- وزع مليون ونصف المليون طن من الفحم سنويًا مجانًا على العائلات الفقيرة فى المناطق الباردة، واستفاد من هذه المعونة أربعة ملايين تركى.

- قام ببناء ٢٨٠ ألف شقة سكنية للعائلات الفقيرة بأقساط سهلة وميسرة، أقل من الإيجار الشهرى، على مدى ٢٠ عامًا، ولا تدفع إلا بعد الانتقال للسكن فيها. وقد وزع ١٤٠ ألف شقة، والباقى فى مرحلة البناء، ويأمل فى رفع العدد إلى نصف مليون شقة.

- نفذ مشروعات عمرانية جبارة بشق مساحات من الطرق المرصوفة تبلغ أضعاف ما تم إنجازه منذ تأسيس الجمهورية حتى قيام حكومة العدالة والتنمية.

- ارتفع دخل الفرد التركى من ٢٥٠٠ دولار عندما تولى السلطة إلى ٥٥٠٠ دولار لأكثر من الضعف.

- زادت الصادرات التركية من ٣٦ مليار دولار إلى ٩٥ مليارًا.

- انخفضت ديون تركيا لصندوق النقد الدولى من ٢٣ مليار دولار إلى ٩ مليارات فقط، وصرح رئيس البنك المركزى بأن تركيا لم تعد بحاجة إلى صندوق النقد الدولى.

- أنشأ ٣٩ جامعة جديدة وفتح أبواب المستشفيات جميعًا أمام الفقراء حتى المستشفيات الخاصة، حيث يقوم المريض بدفع نسبة قليلة وتتكفل الدولة بدفع الباقى.

- سنَّ العديد من القوانين التى تعطى مساحة أكبر للحرية الفردية وكرامة الإنسان وتحرم التعذيب فى السجون وأقسام الشرطة، وتتيح حرية التجمع والتظاهر وإبداء الرأى والحصول على المعلومات، وحق الأقليات فى التعلم بلغاتها.

- سعى إلى تصفية الأجواء مع جيران تركيا، وخاصة العرب، وقوى علاقاته بالجمهوريات التركية فى آسيا الوسطى، وكثف نشاطه فى المؤتمر الإسلامى، بالإضافة إلى خدمات عديدة يصعب تفصيلها الآن. (اعتمدنا فى البيانات السابقة على مقال قيم للكاتب التركى: أورغان محمد على، نشرته مجلة «المجتمع» الكويتية فى ٢٠٠٧/٩/١م).

لقد حقق «أردوجان» استقلال تركيا عن أمريكا والكيان الصهيونى، ورفض المشاركة فى العدوان على العراق أو تقسيمه، وحظى باحترام الاتحاد الأوروبى.



إن تجربة حزب «العدالة والتنمية»، من التجارب المهمة التى تتحرك فى الإطار المتاح من جانب العلمانية المتوحشة، وقد حقق ذكاء قادته نجاحًا كبيرًا بتركيزهم على القاسم المشترك الذى لا تختلف عليه الأغلبية الساحقة من الشعب والنخبة، بل إن بعض العلمانيين لا يملكون أمام هذا القاسم المشترك إلا أن يسهموا فى الانضواء تحت لوائه. صحيح أن العلمانيين الغلاة لن يكفوا عن هذا التربص، واصطياد الأخطاء الصغيرة، ولكن الحركة الذكية التى تصحح نفسها باستمرار، قادرة على جذب الأنصار وتحييد الخصوم، وهو ما ينبغى أن يلتفت إليه قادة الحركة الإسلامية فى دول العالم أجمع..

إن القوى المعادية للإسلام والمسلمين لن يهدأ لها بال، حتى تظل لها الهيمنة والسيطرة فى ظل تحالفها مع العدو التاريخى وهو الغرب الاستعمارى.. وسوف تعرقل كل نهضة يسعى إليها العالم الإسلامى أو جزء منه، ولكن من قال إن الطرف الإسلامى لا يملك أسلحة ماضية فى هذا الصراع؟

لقد آن الأوان بعد التجربة التركية أن يتحقق توافق بين الدين والدولة لتوفير عناء طويل ومستمر بين السلطات وشعوبها، ويتوقف نزيف الطاقات والإمكانات لبناء غد أفضل، ومستقبل أحسن. ■

كتاب الزاوية

استقلال ميت غمر!

مذكرات عريان يوسف سعد

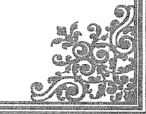
وجدت ميت غمر قد أعلنت استقلالها، وألفت حكومة ونادت بالمرحوم أحمد بك عبده سلطانًا على ميت غمر. وكان طلبة المدارس العليا والثانوية الذين لم يعتقلوا والعمال يقومون بدور الحرس الوطنى، أما مأمور المركز وموظفوه فلزموا منازلهم.

ولم يقع بالمدينة حادث اعتداء واحد، أو حادث سرقة خلال فترة الاستقلال التى دامت نحو أسبوعين.

وعندما وصلت السفينة ورست على شاطئ الرياح التوفيقى وجدت طلبة ميت غمر الذين يدرسون فى المدارس الثانوية أو العليا (ولم يكن فى ميت غمر حتى ذلك التاريخ سوى مدرستين ابتدائيتين، ولم يكن فى مصر كلها سوى ثلاث مدارس ثانوية فى القاهرة هى - السعيدية والخديوية والتوفيقية - بجانب مدرستين غير تابعتين لوزارة المعارف هما: الإعدادية الثانوية والإلهامية. وكان فى طنطا مدرسة ثانوية أنشئت سنة ١٩١٤، وفى الإسكندرية مدرسة رأس التين الثانوية وكانت المدرسة العباسية قد استولت عليها السلطة العسكرية سنة ١٩١٥ وحولتها إلى مستشفى لجرحى الدردنيل.

كان الطلبة قد بلغهم منذ ساعات أن هناك طلبة فى قارب يسير بهم نحو المنصورة، وفيه بعض الطلبة من ميت غمر، وكان قد بلغهم نبأ اعتقالى فى القلعة، فكانوا فى انتظارنا يهتفون وينشدون نشيد الحرية الذى نظم ولحن عقب قيام المظاهرات فى ٩ مارس سنة ١٩١٩ - وكانت مفاجأة لنا: من الذى نقله؟ ومن علمهم إنشاده؟ وقد لحن على غرار السلام الوطنى المصرى.





محراث الحداثة



خيـــــرى منصـــــور

■ ■ يشير محمد أركون بشكل دقيق إلى الصعوبات التى يواجهها الباحث العربى إذا أراد استعمال اللغة العربية لتقديم بحوث تحليلية انتقادية للتراث[1]، وتنقسم هذه الصعوبات إلى نوعين، أولهما صعوبات متعلقة باللغة وثانيهما صعوبات متعلقة بالأطر الاجتماعية للمعرفة، ونظرا لكون عملية التطور اللغوى منوطة بأوضاع المجتمع المستعمل للغة، نجد أن اللغة العربية بقيت محافظة على تعابير دينية ونتف من الفقه والنحو والأدب، منفصلة عن المعجم العقلانى الذى أحدثه الفلاسفة فى الفترة الممتدة بين القرنين السابع والثالث عشر الهجرى، والمثال الذى يضربه أركون حول هذه المسألة لا يخلو من دلالة رغم التبسيط المبالغ به، فهو يرى أن اللغة المحافظة والمنفصلة عما يسميه المعجم العقلانى هى أشبه بالفلاح الذى بقى يستعمل المحراث العتيق دون أى تحسين آلى.

إن مجال التقويل فى هذه النقطة بالذات هو الاستعاضة عن تطوير اللغة بمطها مطا خارجيا، وجعلها تستجيب لما يراد منها قوله وهو خارج (خطابها)، قد يصعب علينا أن نجد فى (تقويل المحراث) إن أمكن مثل هذا التقويل مرادفا لتقويل كلمة (سياسة) أو (دولة) أو أى من الكلمات التى وردت فى سياقات فكرية وفقهية تراثية لكن محدودية القدرة التى يتسم بها المحراث لا بد أن تنطبق فى نهاية المطاف على محدودية اللفظة (القاموسية) قبل الإضافات والتطويرات التى أحدثها (المعجم العقلانى).

ويمكننا أن نأخذ من أركون أمثلة سرعان ما تأوى إلى سياقنا هذا، فهو يقول:

«بلغ ابتعاد الأطر الاجتماعية عن المعاجم والتعابير العلمية إلى أنها اكتفت بترديد قواعد فارغة جامدة فى علم النحو، ودفنت مؤلفات من الأهمية بمكان راجعة لا إلى عهد مثلا» ويذكر عددا من الأطروحات التى قدمت بجامعة السوربون تأكيدا على غلبة هذا المنحى.

لكن أليس بوسع القارئ أن يتساءل عن تلك المؤلفات المهملة والتى هى من الأهمية بمكان كما يصفها (أركون)؟

سيفضى هذا التساؤل حتما إلى تقويل افتراضى، ولعل (الأهمية بمكان) التى تمتاز بها تلك المؤلفات المهملة كامنة فى قدرتها على استمرارية القول، أى فى قابليتها للتقويل، وهذا ما تشى به عبارات محمد أركون وإن كان لا يصرح به، غير أن مراجعتنا لطروحات أخرى لهذا المفكر العربى تضعنا إزاء قرائن تؤكد ما ذهبنا إليه.



ويستخدم كاتب آخر مصطلح (التحديث) بمعانٍ مختلفة تبعا لسياقات البحث، يهمنا من استخدام د. حسن صعب لمصطلح التحديث بمعنى (التقويل) وقفته السريعة مع هيجل، وهو يذكرنا على الفور بجدلية (أبى ذؤيب) السابقة بعدة قرون لجدلية هذا الفيلسوف الألمانى[2]، لكن د. حسن صعب يلجأ إلى تقويل آخر، مستعينا بالقرينة الوحيدة التى وجدها عند هيجل فى كتابه (فلسفة التاريخ) وتحديدا تلك النقطة التى يتحدث بها هيجل عن موقف الإسلام من الثبات (نفيه) عن كل موجود حسى.

ولكون د. صعب معروفا باهتمامات مستقبلية، ويلح فى مؤلفاته على هاجس التحديث، فإنه يثير أكثر من سواه مسألة التقويل. فللمستقبل حسب ما تشير خرائط صعب الفكرية جذور عميقة فى الماضى، ولربما كان قادما منه فى بعض الأحيان، لهذا تحظى مفردة (الاجتهاد) باهتمامه حتى ليسعى إلى جعل الاجتهاد حقا لكل مسلم، ولما كان الاجتهاد حقا للجميع فالتشريع أيضا حق للجميع.

إن ربط المستقبل بالماضى بصفة هذا الأخير (المستمرة) تجعل استنتاجات د. صعب الحاسمة قابلة للنقاش وللنقض أحيانا. وسنرى أنه فى طرحه لمفهوم القيادة والمجتمع الإنمائى ينأى عن جدلية الاسلام (التى تعرضت للتقويل) وعن هيجل فى الوقت نفسه، اللهم إلا إذا اقتصرنا على هيجل منتقى، يتجسد مطلقه فى النهاية فى الدولة(فريدريك).

يقول د. صعب: «يسبق التحديث القيادى فى الدولة النامية التحديث المجتمعى، ولذلك يتوقف التحديث على انبثاق قيادة ريادية إنمائية تلتزم بعملية التحديث».

قد لا يكون المجال هنا متاحا لمناقشة هذا الطرح، لكننا نستطيع أن نستنتج بادئ ذى بدء أن مثل هذا التصور لهرمية القيادة يغفل ظروف وشروط وبيئات إفرازها، لقد قدم التاريخ أمثلة كثيرة تدحض هذا التصور المدرسى للقيادة، ونحن لدى قراءتنا د. صعب فى فصول أخرى من كتابه (تحديث العقل العربى) نجد أن (التقويل) غير المصرح به كامن

اقترن اسم أبى حامد الغزالى بديكارت، وكان هذا الاقتران بين الاسمين يأتى غالبا فى سياق البحث عن تأثيرات الفيلسوف الإسلامى على الفيلسوف الفرنسى، وخصوصا فيما يتصل بالشك المنهجى، الذى تبلور لدى ديكارت

بين السطور. وإذا كانت كلمة تحديث تؤخذ أو (تُقسر) على حمل معنى التقويل فإن استخدام د. صعب لمصطلح (الاجتهاد) يقع فى دائرة الفهم نفسها.

الغزالى وباسكال

اقترن اسم أبى حامد الغزالى بديكارت، وكان هذا الاقتران بين الاسمين يأتى غالبا فى سياق البحث عن تأثيرات الفيلسوف الإسلامى على الفيلسوف الفرنسى، وخصوصا فيما يتصل بالشك المنهجى، الذى تبلور لدى ديكارت إلى الحد الذى أصبح فيه مصطلح (الديكارتية) ينطلق من الشك منهجا ويوحى به عند كل ذكر له، ومنذ كتب (شارل سومان) الفرنسى مقالته الشهيرة بعنوان ديكارت والغزالى، أخذ هذا العنوان يتكرر فى معظم المعالجات التى تنطلق من المثاقفة موضوعا، أو تلك التى كرست لتبيان فضل العرب على الغرب.. إلخ.. لهذا سيبدو أشبه بالقطع لمتوالية نفسية ذكر الغزالى هذه المرة مقترنا بباسكال، وقد رأينا إرجاء مسألة التقويل فى ثنائية الغزالى - ديكارت إلى فصل مستقل وسنكتفى هنا بالتوقف عند العلاقة بين الغزالى وباسكال.

يذكر د. عبد الرحمن بدوى، فى كتابه (دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى)[٣] أن مسألة تأثر باسكال (المفكر الرياضى الفرنسى المعروف) بديكارت ظاهرة، فلباسكال حجة مشهورة لإثبات وجود الأخرة تسمى (رهان باسكال) Pascal Paride خلاصتها أن باسكال يوجه خطابه إلى المنكرين للآخرة قائلا:

- «إذا كسبتم، كسبتم كل شىء، وإذا خسرتم لم تخسروا شيئا»، ويضيف د. بدوى أن هذه الحجة ذكرها الغزالى فى (الإحياء..) وكتب أخرى يقول:

«قال على رضى الله عنه لمن كان يشاغبه ويماريه فى الأخرة إن كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعا وإن كان الامر كما قلت فقد هلكت ونجوت».

ويرى د. بدوى أن هذا الاتفاق بين الغزالى وباسكال جاء عن طريق معرفة باسكال لكلام الغزالى إما عن طريق مستشرق معاصر له أو لعل باسكال تنبه إلى اسم الغزالى فى كتاب خنجر الإيمان الذى ألفه (ريموندو مارتين)[٤]!

وبطبيعة الحال نحن لا نعترض على إمكانية قراءة أو تأثر باسكال بالغزالى، لكن أهذا كل الغزالى.. والسؤال نفسه ينطبق على باسكال أن عملية التقويل كما رأينا فى أمثلة سابقة تتطلب عدة مراحل لكى تستقيم، وهنا يتم أولا اختزال كل من الغزالى وباسكال إلى سطرين فقط.. كما يتم انتزاع هذين السطرين من سياق متصل لكل من الفيلسوفين، ولكى يتضح ما نعنيه سنحاول قراءة بعض تأملات باسكال ونرى إلى أى حد يمكن أن تقبل التقويل بالنسبة لمن جاءوا بعد باسكال، وإلى أى حد يمكن أن يكون باسكال نفسه استجابة لتقويل من سبقوه؟



إن باسكال يذكر أسماء من أخذ منهم كإشارته إلى شيشرون وحتى أسماء من يتعارض معهم كذكره (مونتين) مثلا[٥].

وماذا لو أخذنا هذه الكلمات الثلاث التى يعرف بها باسكال الإنسان:

«تقلب، ضجر، قلق»؟ ثم حاولنا البحث عن صداها فى كلمات ترد (هى ذاتها) لدى كيركفارد مثلا؟

وماذا لو أخذنا منه أيضا وصف الإنسان بأنه: إذعان، رغبة فى الاستقلال، حاجة؟

ثم كيف نقرأ لباسكال مثلا قوله: «الإلحاد دليل على قوة العقل لكن إلى حد».

إن تأملات باسكال تبلغ ذروتها فى هذا السؤال: كم من الممالك تجهلنا؟

و لم يقل العكس: كم من الممالك نجهلها، إنه يضع المجهول واللانهائى فينا (أى فى الإنسان نفسه).

ولا يقلل من أهمية الغزالى مثلا أن نجده مفارقا لكثير من تأملات باسكال، إن لكل منهما عالمه اللاهوتى وموروثه وموقفه من العقل.. إلخ..

إن تقويل الغزالى أو سواه من الفلاسفة والمفكرين من شأنه أن يحجب قيمته بعكس النية المعلنة الهادفة إلى إعلاء شأنه، لقد استمر باسكال فى ثقافة ووعى مواطنيه من الفلاسفة على اختلاف عهودهم واتجاهاتهم، فمن فولتير إلى شاتوبريان لا نجد إلا تعظيما لباسكال.. أما المعاصرون فلقد لخص كل من فاليرى وموريال وغرين موقفهم فيه، قال فاليرى: باسكال أعظم العقول التى ظهرت أما جوليان غرين فيقول عنه: أعظم الفرنسيين شأنا.

أينشتاين والفلاحة!

إذا كان الفنان شاعرا أو روائيا أو غير ذلك يستتر خلف شخوصه، حاجبا عنا أفكاره المجردة عن العالم.. أو بمعنى أدق ثقافته، فإنه فى نشاطه الفكرى خارج النص يتضح (مفكرا) من هذا المنطلق. سنحاول قراءة بعض الأفكار الأساسية للدكتور يوسف إدريس من خلال حوار مطول أجراه معه إبراهيم منصور، ضمن مشروع يحمل عنوانا ذا مغزى هو (الازدواج الثقافى) ويهمنا بطبيعة الحال من هذه الأفكار ما يتصل مباشرة بالتقويل.

يقول د. إدريس معقبا على مفهوم الأدب الشعبى: «إن كلمة (شعبى) مضللة لأن الناس تربطها بالتدنى والانحطاط، وأنا أعتبر أن نظرية مثل نظرية النسبية (لأينشتاين) مثلا هى تفكير شعبى ذلك أنها ترتكز على فلسفة التناسب، أى فكرة أنه لا يوجد شىء مطلق»[٦].

يعود بنا د. إدريس إلى ما قلناه فى السطور الأولى من مقالة سابقة عن المثل الشعبى وفن تقويله عندما تستدعيه حادثة ما.

ويحسن بنا قبل أى تعليق على اعتبار (نظرية النسبية) تفكيرا شعبيا أن نورد هذه الحوارية الطريفة بين أينشتاين نفسه وسيدة من أفراد الشعب حين طلبت منه تلك السيدة أن يشرح لها (النسبية) فقال:

- «كنت أسير مرة مع رجل مكفوف البصر فذكرت له أننى أحب اللبن. فسألنى: ما هو اللبن؟ فقلت: إنه سائل أبيض، فقال: أعرف ما هو السائل.. ولكن لا أعرف (الأبيض) فقلت: إنه لون ريش البجع، أما الريش فأعرفه لكن ما هو البجع.. إلخ..

وليس عيبا أو نقيصة ألا يعرف أفراد الشعب العاديون نظرية النسبية أو الفيزياء النووية أو نظام الحاسبة الإلكترونية، وليس - بالمقياس نفسه - المسلم العادى عارفا بأصول الفقه كلها أو عالما بأصول الدين، كما أن المتدين المسيحى ليس (بيكون) أو (رينان) أو راهبا حتى! وكذلك العامل الذى لن يجد من يعيِّره بعدم قراءة كارل ماركس أو آدم سميث أو... إلخ.

لكن ما يجعل هذه الأمور (نقائص) بالنسبة لأفراد الشعب هو افتراضنا القسرى أنها من صميم معارفه، إن الجسد الذى يقيم فيه الناس جميعهم ويتوهمون معرفته يخذلهم فى أول (ألم) يصدر عنه فيلجأون إلى شخص يسمونه الطبيب، ود. إدريس كان طبيبا رحمه الله ويعرف ذلك جيدا.

يستطرد د. إدريس بعد ذلك فى عملية (التقويل) إلى: «أن أبا ذر الغفارى يعرف عن الاشتراكية ما يزيد على ما كتبه كارل ماركس نفسه».

هنا يعيدنا إدريس إلى سوء التفاهم الناجم عن الكلام، وإلى تلك الخاصية التى تتمتع بها العربية كما يقول الماوردى، لقد قال كامو مرة: لم أتعلم الاشتراكية من ماركس وإنما تعلمتها من البؤس، فلو قال د. إدريس إن (البؤس) مصدر معرفة للاشتراكية أو مصدر توق إليها لكان الكلام مفهوما، فالبؤس أعمق نبعا من أبى ذر وماركس.

لكن الجزم بأن (معارف) أبى ذر الاشتراكية تزيد كثيرا على معارف ماركس أو غيره من علماء الاقتصاد السياسى المعاصرين فذلك تقويل يستحق اسما آخر، إنه إنتاج كاريكاتورى للمسكين أبى ذر وتحميل له ما لا يطيق!

وأخيرا يقول د. إدريس إن المرأة الريفية العجوز تقول لابنها وهى تضربه:

- أنت عامللى رمرم يا ابن القمحاوى.

ورمرم حسب تفسير د. إدريس هو (روميو) ويستنتج من هذا أن المرأة الريفية العجوز تعرف شكسبير!

وبطبيعة الحال فإن جهل المرأة الريفية العجوز بشكسبير أهون ألف مرة من معرفة كهذه تختزل إلى مجرد سماع اسم مشوه لبطل مسرحية ولا يعيب المرأة أبدا أن تستخدم أى اسم لعاشق من السير الشعبية العربية لأنها ستكون معرفة وجدانية فى الأقل!

ومن مستويات التقويل التى لا تخلو من طرافة:

يقول د. إدريس إن ما يكتبه (روب غرييه) الآن كان موجودا منذ ما يزيد على ٨٠٠ عام فى الأدب الشعبى!

ويقول أيضا: إن أحدث نظرية فى علم النفس تستند إلى مثل شعبى يقول: اضحك للدنيا تضحك لك!

وليس تعاليا على المثل الشعبى الذى يوجز خبرة قرون نقول: إن هذا الاختزال من شأنه أن يضيف إلى التقويل ذراعين عملاقتين تجران المستقبل برمته إلى نقطة هناك.. بعيدة جدا فى الماضى، إذن ما جدوى كل هذه الفلاحة فى أرض المستقبل؟ وما جدوى المعرفة؟ إذا كان كل شىء قد أنجز فى الماضى، وما دمنا

هاجس التقويل (٢)



ليس عيبا أو نقيصة ألا يعرف أفراد الشعب العاديون نظرية النسبية أو الفيزياء النووية أو نظام الحاسبة الإلكترونية، وليس - بالمقياس نفسه - المسلم العادى عارفا بأصول الفقه كلها أو عالما بأصول الدين



نكتفى باستحضاره كوصفة أدبية لحل كل مرض مستعص.

ولكن الدكتور إدريس سرعان ما يقف على الشاطئ الآخر، ويتحدث بمنطق تاريخى - علمى، يجعل كل أشكال التقويل تلك كلاما سريعا وعابرا إذا قيس بما قاله عن التسمية الشعبية لحركة (عرابى) فهو يقول: إن الفلاحين أطلقوا عليها كلمة (هوجة) المشتقة من هياج، هذا بينما نجد المؤرخين يسمونها (ثورة) لأنهم بحكم ثقافتهم يعتبرونها (ثورة) والواقع أن التعبير الشعبى أكثر دقة [٧]!

بهذا المنطق تصبح (الاستباقات) الشعبية لروب غرييه وعلم النفس وأينشتاين والاشتراكية مجرد (هوجة) كلامية لا أكثر ولا أقل.

ها هو د. إدريس نفسه يرى أن التسمية شديدة الأهمية، وأن المصطلح يوجز فهم عصر أو مرحلة بكل ما فيها من إنجازات.. وهو إذ يصر على تسمية (العرابية) بالهوجة بخلاف تسمية المعاصرين لها (ثورة) إنما يقول على نحو غير مباشر: إن قرنا واحدا قد يدفع المؤرخ إلى إعادة إنتاج الماضى وفقا لهواه وظروفه وموقعه.. إلخ.. [٨].

أما السؤال الأخير هنا.. فهو ما الذى فعلته ثمانية قرون (بالرواية المضادة) أو ما اصطلح عليه بهذا الاسم؟

أتبقى الدقة نفسها رغم ظهور واختفاء ثمانية أجيال، بينما تذهب الدقة أدراج الرياح حين يمر قرن واحد - جيل واحد - كما حدث فى تسمية (العرابية) سواء كانت هوجة أو حركة أو ثورة؟

الآمـدى وبـريـل

عاش زين الدين الآمدى فى بغداد فى أوائل القرن الثامن الهجرى، وكان عالما مصابا بالعمى منذ طفولته، وقد اهتدى الآمدى إلى صنع الحروف البارزة على طريقة (بريل) قبل هذا الأخير بستة قرون.

يرجع د. حسين مروة براءة هذا الاختراع للآمدى. ويستغرب كيف يحتفل العالم بإنجاز (بريل) الكبير ولا يعرف شيئا عن المخترع العربى الأول.. حسن.. حتى الآن، لا نجد أكثر من محاولة بريئة لإعادة الحق إلى نصابه، ولإنصاف الآمدى تاريخيا فى الأقل..

لكن ما يضيفه د. مروة فى مقالته عن الآمدى هو ما يستحق المناقشة، إنه مستوى آخر من مستويات التقويل، ذلك لأنه يقول: لو كانت وسائل القرن التاسع عشر المدنية متهيئة فى القرن الرابع عشر لكان للتراث العربى فضل انتشار هذه الطريقة العملية الناجحة لقراءة العميان..

والمشكلة كلها تكمن فى هذه الـ (لو).. إنها منحى افتراضى فى التاريخ، تقوم على أسس لعبة سامية، لكنها لعبة على أية حال.

فلو طبقنا هذه الـ (لو) على عباس بن فرناس أو دافنشى مثلا لجزمنا بأن معاصرى هذين الرجلين كانوا سيوفرون على أنفسهم مشقة السفر بالبحر أو العربات أو الخيل، ولكانوا وفروا الكثير من الجهد والوقت عبر اختزال المسافات بواسطة الطيران..

وبالفرضية نفسها يمكن العودة إلى الحروب القديمة، وافتراض أن اختراع البارود صاحبته ظروف مناسبة، أو (لو) أن الراديوم كان مكتشفا فى الحروب الصليبية مثلا..؟!

التقويل على هذا المستوى الاختراعى - العلمى، يتطلب شيئين.. أولا: إبدال الظروف التاريخية والعلمية، بحيث يتسنى (للبيضة) حاضنة مناسبة لتفقيسها، وثانيا: إحالة الاختراع الذى توفرت له ظروفه وجاء عمليا ونافعا إلى (مسودته) الأولى، ذلك كبديل (تقويلى) عن النظر إلى اختراع الآمدى مثلا بصفته حلقة من حلقات تاريخ العلم.

ونحن بطبيعة الحال لا نميل إلى نسيان الأسس فى أى علم.. أو نسيان من كان لهم الفضل الأبدى فى اختراعات تخص الإنسانية لكننا نميل بالطبع إلى (فحص) التقويل حتى العلمى منه، لأنه يقوم على سجالية ستفضى فقط إلى تضخم هاجس الاستباق، أو لنقل بمعنى آخر تنبئ عن نزوع قومى للعلم.

وربما كانت (أسبقية) زين الدين الآمدى على بريل مجرد مدخل تعمدنا البساطة فيه.. إلى تقويل فلسفى أشد تعقيدا لدى د. مروة نفسه ففى كتابه: «النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية» - ج ٢. يحدث تقويل لنصوص الفارابى، فقد جعل د. مروة من فكرة تعاقب الصور والأضداد على الهيولى التى يفسر من خلالها الفارابى فناء الأفراد وبقاء النوع.. موقفا ماديا متقدما أو تصورا جدليا للطبيعة ويرى (على حرب) فى كتابه (مداخلات) إن المؤلف حين فطن إلى اختلاف ذلك عن قوانين الجدل (احتواء الشىء ضمنا على ضده وتجاوزه إلى مستوى أشمل) فإنه - د. مروة - حل الإشكال باللجوء إلى اعتبار كلام الفارابى على أنه (مرحلة من مراحل تاريخية الحقيقة).

ونحن نعلم أن للفارابى نصوصا صريحة حول سيادة الأصول على الفروع، أى حول (التقويل) وإن لم يرد هذا المصطلح لدى الفارابى أو سواه.

وإذا عدنا إلى مداخلات (حرب) ثانيا نجد أن المثال الذى يقدمه (النظام) المعتزلى للتأويل فى حدوده القصوى يؤدى إلى النتيجة نفسها، فأقوال النظام المعروفة مثل (الأجسام كلها متحركة) أو (الحركات هى الكون لا غير ذلك) أو كل شىء قد يداخله ضده قد وجدت من (يقولها) لكى تصبح أسلافا لما يقوله (انجلز) مثلا على هذا الصعيد.

إن المشكلة فى هذا المستوى من التقويل تكمن فى سوء فهم قد نشأ عن الألفاظ، لكأنما كل تشابه فى اللفظ هو تشابه فى المضامين وقد لاحظ (الماوردى) بنباهة فقهية أن الكلام.. كل الكلام يحتمل بطبيعته تأويلات مختلفة، وأن اللغة العربية أخص اللغات بهذه المعانى.

تقـويـل العـلـم

حين يتعرض اغروس وستانسيو لمواقف العلماء فى عصرنا من علم الماضى،يضعان القارئ أمام اتجاهين متعاكسين فيأخذان على سبيل المثال رأى الفيزيائى ارنست ماخ(فى عام ١٩٠٣) حيث يقف هذا العالم موقفا متشددا متطرفا أحيانا، من منجزات العلم التى تمت فى الماضى يقول: (أما بقايا الأفكار القديمة التى لا تزال عالقة بالفلسفة وعلم القانون والفنون والعلوم. فهى تشكل عوائق لا مزايا وهى على المدى لن تصمد أمام تنامى آرائنا نحن) ويأخذان من عالم آخر هو (هايزنبرغ) قوله الأقل تطرفا إزاء الماضى: (إن الفيزياء الحديثة لم تغير شيئا فى ميادين العلم الكلاسيكية العظيمة والميكانيكا والبصريات والحرارة...) ويكتمل اتجاه السهم المعاكس عند ما يقوله أينشتاين عن نيوتن فهو يقول لا يظن أحد أن ابتكار نيوتن العظيم يمكن أن تطيح به هذه النظرية أو تلك... فأفكاره الواضحة ستحتفظ بقيمتها حتى الأبد.

إن (حتى الأبد) هذه التى يمهر بها (آينشتين) إنجاز نيوتن تنطوى على قطيعة أيضا. تشبه إلى حد بعيد تلك القطيعة الابتستولوجية التى يتحدث عنها الجابرى كضرورة لوعى التراث... فعبر هذه القطيعة يتم التواصل، فالماضى مفعم كما هو معروف بالمغامرة والأخطاء معاً وهو مفعم بالأخطاء لأنه مغامر فى الأساس، تلك الأخطاء التى يخشى (ديكارت) أن نصاب بعدواها، لهذا لجأ إلى التماس الهداية من ذاته كما يقول، وكان (الشك) المنهجى وسيلته المثلى لالتماس هذه الهداية.

ثمة فرق بائن بين مفهومين: الماضى

هاجس التقويل (٢)

كمجال زمانى تم فيه إنجاز على أصعدة العلم والفن كلها.. مفهوم متحصن بالتقويل وادعاء بلوغ الكمال، ومفهوم يتحصن بسلاح آخر تماما... هو الانفتاح على المغامرة اللاحقة، وفى هذه الحالة الثانية يجد الخطأ القديم صوابه الذى ضلّ عنه فى المستقبل، بعكس الحالة الأولى القائمة على التقويل حيث يستمد الخطأ القديم صوابه الكامل والأبدى من أسبقيته الزمانية. ومن قدرته المطاطية على استيعاب ما ليس له، إن كل نظرة إلى الماضى بوصفه (مرنا) ومطاطيا إلى حد اصطياد كل ما هو قادم هى ذات منبع ميثولوجى بشكل أو بآخر، وفى وسع المرء أن يشم رائحة (توراتية) فى كل المرات التى يتم بها الحديث عن الماضى بصفته (المطاطية) تلك.

وقد لعب (اليونانيون) فى عصورهم الذهبية خاصة دورا بالغ الإغراء فى (التقويل)، باعتبارهم جعلوا أفق المستقبل كله يونانيا، فقد عبر (وايتهد) يوما عن هذه (المحنة) بقوله إن مكابدات البشر بعد الإغريق ستكون لبلوغ شىء مستحيل هو (اللايونانية) أو بمعنى آخر أن يأتوا بجديد يضاف إلى المنجز اليونانى ولعل المقالة المفعمة إعجابا بالماضى اليونانى والتى كتبتها (اديت هاملتون) تصلح نموذجا للتقويل الأوروبى المعاصر لليونانيين القدماء... تبدأ (هاملتون) مقالتها بسؤال يشى بأن الإجابة عن هى فحوى المقالة كلها، أما السؤال فهو: هل هناك ماض دائم الوجود. إن مجمل ما تقوله المقالة والأمثلة التى تكتظ بها من حياة اليونانيين تجيب بنعم على نحو غير مباشر، فمثلا....

- إن أعظم حضارة سبقت حضارتنا هذه هى حضارة الإغريق.
- لقد قال أحد الإغريق: إن الأرض تدور حول الشمس وكان ذلك قبل أن يفكر به كوبرنيكوس بستة عشر قرنا.
- كما أن إغريقيا آخر قال بأن الإبحار غربا من إسبانيا، وعلى ذات خط العرض لا بد أن يصل بالإنسان إلى اليابسة، وكان ذلك قبل أن يقدم كولومبوس كشوفاته بألف وسبعمائة سنة.
- وقال داروين: إننا مجرد طلاب وتلاميذ فى التفكير العلمى بالنسبة لأرسطو.

العروى وكروتشه

عندما قرات الليلة السابعة من الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى تذكرت على الفور كتيبا للناقد الانجليزى أ.ريتشاردز بعنوان (الشعر والعلم) فكلاهما، التوحيدى وريتشاردز، تحدثا، بالرغم من الفارق الزمنى الكبير نسبيا بينهما عن العلاقة الإشكالية بين الشعر والعلم، التوحيدى ذهب إلى ديوان أهل الحساب والبلاغيين أصحاب الإنشاء، وجعلهم- على طريقته- يتحاورون حول أيهما أكثر ضرورة وأهمية الحساب أم البلاغة؟ وكانت الغلبة للبلاغيين الذين ينتسب إليهم التوحيدى، وينحاز إلى رأيهم، لأن البلاغة حسب رأيه ضرورية لأهل الحساب والديوان، ويضرب التوحيدى أمثلة عن أخطاء (لغوية) ممكنة، من شأنها أن تفسد الحساب كله! أما ريتشاردز فموقفه معروف، ونداؤه بالتزاوج الحضارى بين العلم والشعر دفعه إلى مواقف مشحونة بالحماسة حد المبالغة ومجانبة العلم نفسه وعندما راجعت الشعر والعلم مجددا وجدت أن ما بين التوحيدى وريتشاردز من لقاء لا يتعدى عنوان الصراع، ثم يفترقان إلى عالمين متغايرين، فالعلم لم يعد (حسابا ديوانيا) لدى ناقد أوروبى معاصر، كذلك فنون الكتابة لم تعد (حرفة بلاغية) تقوم فى الأساس على إتقان الصياغة.

الشىء نفسه حدث خلال قراءة (القرطاجنى) و(امبسون) الإبهام والغموض، وكيف نظرا إليه بالرغم من البون الشاسع بين السياقين اللذين ينسب كلّ منهما إليهما. إن الإغراء بالتقويل لدى (حازم القرطاجنى) يتجاوز كثيرا مثيله لدى التوحيدى بشأن علاقة العلم بالأدب، فحازم يقول مثلا:

(إن المعانى وإن كانت مقاصد الكلام ومواطن القول تقتضى الإعراب عنها والتصريح عن مفهوماتها فقد يقصد فى كثير من المواضع إغماضها وإغلاق أبواب الكلام دونها والدلالة على المعانى على ثلاثة أضرب: دلالة الإيضاح ودلالة الإبهام ودلالة الإيضاح والإبهام معاً).

وهو يقترب مما يقوله (وليم امبسون) عن أنماط الغموض وربما استطاعت تحليلات القرطاجنى ملامسة الكثير من التحليلات المعاصرة للغموض والإبهام، لكن (تقويل) حازم ما لم يقله تماما هو ضرب من الإساءة إلى كلا الاثنين وجل ما يمكن الحصول عليه من هذا التقويل هو أحراز (الاستباق) المشحون بهاجس تراثى - قومى.

وليكن اعترافا منى القول بأن ما وجدته من تنبه اثنين لهذه المسألة هما عبدالله العروى ومحمود الربيعى قد دفعنى إلى التراجع أمام إغراء (تقويل القرطاجنى تحديداً).

فمحمود الربيعى حين خطر له أن يختار نصوصا من تراثنا النقدى القديم لم يندفع باتجاه التقويل بحيث تطرح تلك النصوص على القارئ المعاصر وكأنها (لا زمنية) أى مطلقة الصواب، وتصلح لكل أوان، صحيح أن بعضها لم يدفنه الماضى تماما- واستطاع الصمود النسبى أمام عواصف التطور النقدى وثوراته الكبرى، لكن هذا بالطبع يختلف عن الزعم بأنها (كلية النفع) ومعزولة عن سياقاتها التاريخية - الثقافية يقول د. محمود الربيعى:

(أريد أن أنفى عن نفسى مظنة مقاصد معينة فى احتفائى بهذه النصوص من النقد العربى القديم، وأريد أن أنفى عنها مظنة أننى سأجهد فى سبيل إثبات أن هذه النصوص إنما اخترتها لأنها تقارع نصوص النقد العالمى...).

ويضيف د.الربيعى أنه على وعى بأن مثل هذه الأفكار المعدة سلفا كانت منزلقا خطيرا انزلق إليه دارسون كثيرون. إن وعيا من هذا المستوى قد جعل الناقد والنصوص فى آن معا فى منجى من التقويل أما (العروى) فقد كان تنبهه لهذه المسألة أشد خطورة، لأنها تتعلق بالتاريخ بمعناه العام وليس بأحد نشاطاته أو فروعه... وهو هنا يقول عن الوثيقة المكتوبة (يجب دراسة كل كلمة فيها فى إطار القاموس، فإذا وجدنا كلمة (مخزن) مثلا فى وثيقة مؤرخة يجب أن نضمنها المعنى الجارى فى الوقت الذى كتبت فيه ولا يمكن أن تقحم معان لاحقة وهذا المنهج الذى يدعو إليه العروى أطلق عليه فى كتابه (أصول الحركة الوطنية المغربية) اسم المنهج الفيلولوجى (وهو مأخوذ من الفيلسوف كروتشه).

ويرى (العروى) أن ما يعوزنا بالفعل لقراءة الوثيقة المكتوبة قاموس تاريخى يعطينا تسلسل المعانى حسب التسلسل الزمنى، فلسان العرب فعلا ليس قاموسا تاريخيا.

ويأخذ العروى كلمة (الجهاد) مثلا ترد فى الشعر الجاهلى والقرآن وكتب الفقه دون أدنى ترتيب زمنى فلا يمكن أن نقول بأن كلمة جهاد فى القرن الفلانى كانت تعنى كذا وفى القرن الفلانى كذا... الخ وبما أن الوثيقة ترجع إلى الفترة الفلانية فإن كلمة جهاد فيها تحمل حتما المضمون الفلانى.

ويتوصل العروى حسب منهجه الفيلولوجى هذا إلى ترك الأبواب مفتوحة أمام جميع التأويلات لكن ليميز بين التأويل القريب والتأويل البعيد بحيث يمكن قول كل ما نريد حول ابن خلدون مثلا ولكن لا نستطيع أن نؤوله على أنه ماركس قبل ماركس.

إن مفهوم العروى للتأويل البعيد يقترب كثيرا مما نعنيه بالتقويل، فاعتبار ابن خلدون ماركس قبل ماركس هو تقويل بامتياز، لأننا فى حالة كهذه نغفل المعانى الدقيقة للألفاظ، ويغرينا تشابهها حيث نصل إلى تشابه قسرى فى المضامين.

وربما كانت أمثلة العروى لكلمتى المخزن والجهاد أكثر توفيقا فى هذا السياق من غيرها، فكلمات مثل: دولة، حرية، سياسة، باعتبارها مرجعيات أبحاث ومثار جدال لا ينتهى قد تصلح أمثلة على سوء التفاهم هذا... المتولد على المسافة (المهملة) بين المعنى القاموسى الدقيق والمعنى التاريخى اللاحق، المكتسى بدلالات تطورية.

ولو شئت أن أضرب مثالا فى هذا المجال لقلت أن مفردة (التسوية) تختزل عشرات الأمثلة لترينا الفرق الهائل بين دلالاتها فى مراحل مختلفة.

فأهل التسوية هم الذين يسوون بين الأمم ولا يجعلون فضلا لأمة على أخرى ويمثلهم أكثر المتدينين من العلماء العرب والعجم لأن روح الإسلام وقواعده تؤيد هذا المذهب.

ولو قرأنا هذا الوصف لأهل التسوية حسب ما يورده أحمد أمين فى ضحى الإسلام لوجدنا أن فارقا كبيرا بينه وبين التسوية كمصطلح سياسى فى وقتنا هذا وإن أية مراجعة للكتب والمقالات التى عالجت الصراع العربى - الصهيونى والقضية الفلسطينية بعامة كانت تهدف باستخدامها كلمة التسوية إلى فهم مشترك هو التنازل عن حقوق عربية للعدو فهل يحق لقارئ الوثيقة المكتوبة أن يعامل كلمة التسوية كما وردت لدى مؤرخين إسلاميين بالمعنى نفسه الذى ترد فيه كتابات سياسية معاصرة؟!! ■

هوامش

١. محمد أركون - الفكر العربى - ت د. عادل العوا - منشورات عويدات بيروت ط١ ١٩٨٢ص٧ ومابعدها.
٢. د. حسن صعب - تحديث العقل العربى - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٢ط٢ ص٨٨، والمقصود بجدلية أبى ذؤيب ما أشرنا إليه فى المقالة السابقة.
٣. د. عبد الرحمن بدوى - دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى ط٣ ١٩٧٩-دار القلم - بيروت - ص
٤. المصدر نفسه ص٢٨.
٥. بليز باسكال - خواطر - ت ادوار البستانى - اللجنة اللبنانية - بيروت ١٩٧٢ ص٤١.
٦. الازدواج الثقافى - محاولات إبراهيم منصور - دار الطليعة - بيروت ط١ - ١٩٨١ .
٧. حسين مروة - عناوين جديدة لوجوه قديمة - الدار العالمية - بيروت ط١. ١٩٨٤ ص١٦٣ .
٨. على حرب - مداخلات - دار الحداثة - بيروت ط١ ١٩٨٥ ص ٢١٦ .

Google™

مكتبة المكتبات!



جيسون إيشتاين



عاجلاً أم آجلاً سوف يصبح جوجل وأفاتاراته (تصاويره الممثلة لأشخاص) ليس فقط مكتبة المكتبات متعددة اللغات فى العالم، بل متجرًا عالميًا يقدم ملايين العناوين للقراء عبر العالم



إن الخلطة المتزايدة من الفن والعلم وما وراء الطبيعة والمعرفة التطبيقية والمعروضات والنميمة والمعلومات الخفيفة المخزنة إلكترونيًا على الشبكة العنكبوتية العالمية تنحدر مباشرة من الثرثرة غير المفروزة التى تناقلتها الأفواه اعتباطيًا ومن مكان إلى آخر والتى أرسى أسلافنا منها دعائم حكمة سلالتنا البشرية لآلاف السنين كانت هذه الثرثرة قد حفظت فى الذاكرة القبلية، فى لغات وثقافات طواها النسيان، حتى حملت ضرورات التجارة البازغة من حوالى ستة آلاف سنة. وهو حدث جديد فى المسيرة الطويلة لسلالة الإنسان العاقل. حملت على اختراع اللغة المكتوبة، وهى الشرط اللازم للعالم الموثق اليوم والذى يشمل الشبكة نفسها.

إن اختراع الذاكرة الإلكترونية أثناء الحرب العالمية الثانية واختراع الشبكة العنكبوتية العالمية من سبعة عشر عامًا مضت فحسب، بصفتها فى الأصل طريقة للعلماء للاتصال بالزملاء البعيدين، هو تطور أبعد. وربما النهائى - للانتقال الحاسم من ذاكرة جمعية معتمدة كثير الاعتماد على نظم تذكيرى إلى نقش نثرى على الطين والحجر والورق. بهذه الأدوات البدائية استطاع البشر أخيرًا أن يسجلوا، بلغة عالية الجمال وعميقة الفهم، التراث الأدبى والحكمة المتراكمة أثناء عصرنا الطويل عصر ما قبل التاريخ. أما ما هى الانتصارات الأكبر للروح الإنسانية التى قد تتشكل من الشبكة العنكبوتية العالمية، إذا نجت سلالتنا من حماقاتها الحالية، فهو شىء وراء التخيل.

فى ١٩٩٨ أنشأ طالبان خريجا جامعة ستانفورد، لارى بيدج وسيرجى ر. ن. جوجل دوت كوم، وهو محرك بحث يستخدم تقانة أفضل من التى وجدت من قبل لفهرسة واسترجاع المعلومات من العالم المتنوع الهائل للشبكة العنكبوتية العالمية ولتحديد مراتب مواقع الشبكة العنكبوتية التى تحتوى على هذه المعلومات وفقًا لصلتها بعمليات بحث معينة بناء على عدد الروابط من بقية الإنترنت لموقع ما.



وقد قام نظام مرتبة الصفحة هذا بتحويل الشبكة العنكبوتية من غايتها الأصلية بصفتها مصطبة للعلماء، ومن الثرثرة العشوائية سرعان ما أصبحت موردًا قابلاً للبحث يمد ببيانات حقائقية ذات مستويات متنوعة من الجودة لملايين المستخدمين. ومرة أخرى كانت ضرورات التجارة هى التى حولت جوجل نفسها من تقنية بحث عبقرية بدون خطة مشروع إلى مشروع ضخم الربحية يقدم تنويعة من خدمات تشمل البريد الإلكترونى والأخبار والفيديو والخرائط، ويقدم جهده الحالى والمكلف والبطولى كل البطولة، إن لم يكن كيشوتيًا، لرقمنة محتويات النطاق العام «لمشاع» من الكتب والمقتنيات الأخرى للمكتبات العامة الكبرى. ولعل هذا البرنامج يوفر للمستخدمين، أينما وجدت وصلات الإنترنت فى العالم، نفاذًا إلى الملايين من عناوين الكتب، بينما يمكن المكتبات العامة نفسها من خدمة ملايين المستخدمين بدون إضافة شبر واحد من مساحات الأرفف أو تحمل بنس واحد من تكلفة التوصيل.

إن ناشرى الكتب وأصحاب حقوق المادة الآخرين، وقد دفعتهم مبادرة جوجل والتكاليف المنخفضة والأرباح المرتفعة والانتشار الهائل للتوزيع الرقمى بدون وسيط، لابد فى النهاية أن يتغلبوا على تباطئهم التاريخى ويوافقوا، مثل ناشرى الموسيقى، على تسويق عناوين الكتب التى يملكون حقوقها فى شكل رقمى إما لتقرأ على الخط أو على الأرجح لتطبع عند الطلب عند مرحلة البيع، وفى كلتا الحالتين مقابل رسوم تساوى التكاليف والأرباح العادية للناشرين وحقوق المؤلفين التعاقدية. وهكذا لأول مرة فى تاريخ الإنسانية هناك إمكانية بأن كل كتاب طبع على الإطلاق بأية لغة سوف يكون متاحًا لكل إنسان على الأرض لديه نفاذ إلى الإنترنت.

ليست الثورة التى قامت بها جوجل موضع ترحيب من الجميع. يتخوف جان - نويل جانينى، مدير ببليوتيك ناسيونال (المكتبة الوطنية) فى كتاب جوجل وأسطورة المعرفة العالمية من أن المكتبات العامة الوطنية بما فيها مكتبته هو سوف تعانى فى ظل هيمنة جوجل العالمية، ولكن لا شىء يمنع المكتبة الوطنية ونظيراتها من رقمنة مجموعاتها الخاصة أو السماح لجوجل بعمل ذلك من أجلها مثلما فعلت المكتبة البودلية بأكسفورد. وقد زاد كرس أندرسن محرر مجلة وايرد على مقاله المؤثر «الذيل الطويل» ليكون كتابًا من الأفضل مبيعًا يبين فيه أن «مساحة الأرفف» الفسيحة الخاصة بالشبكة العنكبوتية تسمح بمحتوى رقمى لا حدود له عمليًا يخلق تنوعه طلبًا غير متوقع حتى الآن على المصنفات المجهولة نسبيًا أو المتخصصة فى سوق غير متجانسة تتجاوز جملة جمهوره باهتماماته متعددة الأشكال جمهور المصنفات الأفضل مبيعًا بكثير، والذى تعكس هيمنته الحالية البنية شديدة المركزية لتجارة التجزئة اليوم والمعتمدة على الدوران السريع للمصنفات المتشابهة تشابهًا كبيرًا.

لقد تجلت اللامركزية الجذرية للسوق الرقمية فعليًا فى صناعة الموسيقى وتوحى الشواهد المبدئية بأن اختيارًا أكبر سوف يخلق بالمثل، كما يتنبأ

Google and the Myth of Universal Knowledge: A View from Europe
(جوجل وأسطورة المعرفة العالمية: وجهة نظر من أوروبا)
by: Jean - Noel Jeanneney, translated from the French by Teresa Lavender Fagan

The Search: How Google and Its Rivals Rewrote the Rules of Business and Transformed Our Culture
(البحث: كيف أعادت جوجل ومنافسوها كتابة قواعد مجال العمل وحولوا ثقافتنا)
by: John Battelle

The Long Tail: Why the Future of Business is Selling Less of More
(الذيل الطويل: لماذا ستكون التجارة فى المستقبل هى بيع «كميات» أقل من «أصناف» أكثر)
by: Chris Anderson

Libraries and Google
(المكتبات العامة وجوجل)
edited by: William Miller and Rita M. Pellen

The Goolge Story: Inside the Hottest Business, Midia, and Technology Success of Our Time
(قصة جوجل: داخل أنشط تجارة ووسيلة إعلامية وتقنية ناجحة فى زمننا)
by: David A. Visa and Mark Malseed

بترتيب مع:
The New York Review of Books
ترجمة: محمد فتحى كلفت

لأول مرة هناك إمكانية بأن كل كتاب سوف يكون متاحاً لكل إنسان لديه نفاذ إلى الإنترنت

Books@google



كرس أندرسن، طلباً أكبر على نطاق واسع من الكتب. ومثال جلى على ذلك هو كتب بالإسبانية سوف تخدم ٤٠ مليون إسبانى يعيشون الآن فى الولايات المتحدة ويتلقون خدمات هزيلة من تجار تجزئة يشح وجودهم. ووفقاً لمارك ساندلر من جامعة ميتشجن، فى مقال له بكتاب المكتبات العامة وجوجل، فإن تجربة أجرتها مكتبة جامعة ميتشجن تشمل رقمنة ١٠٠٠٠ من الكتب المتخصصة «قليلة الاستخدام» مع عرضها على الشبكة العنكبوتية نتج عنها «ما بين ٥٠٠٠٠٠ ومليون كدخول فى الشهر، وفيما مضى، كانت هذه الأعمال متاحة الوصول»، كما يكتب ساندلر، لشريحة أساسية من ٤٠٠٠٠ طالب وعضو هيئة تدريس فقط. أى حوالى أربعة قراء لكل كتاب ضمن المشروع. وعندما أتيح الوصول لنسخ إلكترونية من هذه الأعمال أمام العالم بأسره، فجأة أصبح القراء ٤٠٠٠٠٠ : ١. أضاف إلى ذلك إلى أى مدى يتجاوز النفاذ للشبكة عوائق التوصيل المادى - اطلب كتاباً (لا تراه بعينك) من المخزن، انتظر ٢٤ ساعة للتوصيل، احضر بنفسك إلى المكتبة لتشتريه، إلخ. فإلكترونياً، نحن نتحدث عن إشباع فورى لاحتياج من أرقى الاحتياجات. هذا حلم بخدمة أصبح حقيقة بالنسبة للمكتبات ولرواد المكتبات، خاصة لهؤلاء الذين ليس لديهم نفاذ مباشر إلى مجموعة كبرى من مجموعات أبحاث المكتبات.

لذا، فإن الخوف من احتكار عالمى من قبل جوجل قد يكون بلا أساس، حيث يضيف المنافسون جزئيات متخصصة إلى ذيل جوجل نفسها الطويل والآخذ فى الاستطالة.



لم يكن جوجل محرك البحث الأول الذى يغربل محتويات الشبكة ولكن أصبح ابتكاره بيدج رانك (مرتبة الصفحة) الطريقة الأكثر شعبية لترتيب مواقع الشبكة العنكبوتية عن موضوع ما وفقاً لصلتها المحتملة بعمليات بحث معينة. ولم يكن مبتكرو جوجل أيضاً هم أول من يدرك التورطات التجارية لتقنية تأتى بملايين الباحثين إلى موضوعات بعينها، وهكذا ترشد المستهلكين الذين يخدمون أنفسهم بأنفسهم إلى نطاق واسع من البضائع والخدمات؛ لكن تقانة جوجل الفريدة توفر الوسائل الأكثر فاعلية لمجاورة الإعلانات مع نتائج البحث الملائمة. إن مئات الآلاف من المعلنين، أغلبهم مشاريع تجارية صغيرة، يطرحون عطاءاتهم فى مزاد لوضعهم ملاصقين لمواقع الشبكة العنكبوتية محل اهتمام زبائنهم المحتملين، يدفعون الآن لجوجل عن كل مرة ينقر فيها أحد الباحثين ليصل إلى موقعهم، مما يجعل جوجل واحدة من أغنى الشركات فى العالم، فهى عملياً دليل تفاعلى ذو تنوع لا نهائى يخدم سوقاً عالمية ممقرطة جذرياً.

إن الهدف الذى ينسبه مؤسسو جوجل المثاليون لأنفسهم هو العمل الصالح، والذى ينعكس فى الشعار غير الرسمى للشركة، «لا تكن شريراً». والمواجهة بين مؤسسين لا يتمنون إلا فعل الخير وبين الواقع المعقد لإنجازهم التجارى المدهش هى قضية لها بعد كتابى يستدعى إلى الذاكرة طرد آبائنا الأولين، عاريين ومرتعشين، من جنة عدن ما قبل الخطيئة إلى عالم فيه الاختيار إجبارى والخطأ محتوم، بركة وحملاً عليهما وما أسماه (جون) ملتون، بمشاعر متضاربة، بذرتهما المنحوسة.

لم تثبت براءة جوجل فى مواجهتها المعروفة مع حكومة الصين، والتى طالبت فى يناير (٢٠٠٦) بأن تلغى من بحث جوجل وخدماته الإخبارية مواقع محددة هجومية سياسياً، وهو ما وافقت عليه جوجل. ووضح مسئولو الاتصالات فى جوجل: «بحساب كل النواحى، نحن نؤمن بأنه أن تكون لديه خدمة تعمل روابطها ويُحذف منها عدد لا يذكر أفضل من أن تكون لدينا خدمة غير متاحة على الإطلاق. كانت بيعة خاسرة يصعب علينا القيام بها، ولكنها بيعة أحسسنا أنها تخدم فى نهاية الأمر المصالح العليا لمستخدمينا الموجودين فى الصين». إن جوجل شركة عامة مسئولة نحو حمَلة أسهمها وتتحداها ياهو وميكروسوفت ومنافسون أقوياء آخرون تلزم العهود الإيمانية لشركاتهم الصمت حيال مسألة الخير والشر. وبالنسبة لجوجل ومنافسيها تعتبر الصين سوقاً لا يمكن الاستغناء عنها. وكون «بيعة» جوجل «الخاسرة» تخدم فى نهاية الأمر «مستخدميها»، فهذا فى أفضل الأحوال نصف حقيقة بما أنها تخدم فعلياً الرقباء الصينيين لما ليس فى مصلحة مستخدميها. نصف حقيقة مشابهة هى الكلام عن «عدد لا يذكر» من المواقع المحذوفة، بينما الحقيقة الكاملة هى أنه فقط المواقع المعترض عليها لدى حكومة الصين حذفت[1]. مرحبا إذن فى العالم الحقيقى حيث سياسة جوجل للخصوصية هى إفراز آخر لمراوغات المحامين.

ربما تتم المشاركة بمعلوماتك الخاصة.. «(إذا) انتهينا إلى أن القانون يلزمنا بحماية، أو (اعتقدنا) أن النفاذ لهذه المعلومات أو الحفاظ عليها أو كشفها ضرورى بشكل معقول لحماية حقوق جوجل أو مستخدميه أو عموم الناس أو ملكياتهم أو أمانهم».

«بعبارة أخرى» كما يكتب جون باتل، مؤلف كتاب البحث، وهو تناول غنى بالمعلومات ومتحمس، ولكنه ليس خالياً من النقد، لإنجاز جوجل الاستثنائى، «إذا قررت جوجل أن تتبع معلوماتك الخاصة واتخاذ اللازم يصب فى مصلحتها العليا، فإنها تستطيع ذلك وسوف تفعله».

إن سياسة الخصوصية والتصريحات المتعلقة بالصين هما ازدواجية شركات نموذجية ليست شريرة بقدر ما هى متدنية بالمعايير المترفعة لطالبين خريجى جامعة ستانفورد وضعا شعار شركتهما قبل أن يجدا نفسيهما غائصين للركب فى وحل العالم الحقيقى. ومواجهة جوجل مع القوانين المعقدة لحقوق المادة هى حالة أكثر إثارة للاهتمام تنطوى على تناقض محدث داخل القانون خلقته تقانة الرقمنة. يسمح قانون حقوق المادة بما يسمى «الاستخدام الرشيد» أى حق نسخ الاقتباسات القصيرة من الأعمال المحمية بشكل غير مدفوع، على سبيل المثال فى المراجعات النقدية والمقالات الدراسية. وقبل الرقمنة كانت هذه مسألة تنحصر فى مجرد إيجاد الاقتباس المرغوب فى نص مطبوع ونسخه مع إسناده إلى العمل الخاص بشخص ما. أما أن توفر جوجل هذه الفرصة لمستخدميها، فعليها أولاً رقمنة النص بأكمله، وهو ما ينتهك الشرط المنصوص عليه فى قانون حقوق المادة والذى يمنع نسخ ما يزيد على قطعة صغيرة. سوف يستمر محامو جوجل والناشرون فى أخذ رد عقائدى فى هذا الصراع حتى يقرر ناشرو الكتب أن يدخلوا العالم الرقمى لمصلحة الجميع والتى تشمل مصلحتهم الخاصة ومصلحة مؤلفيهم. سوف تكون القضية بعد ذلك محل نظر. وفى غضون ذلك يراوغ المحامون ويحصلون أتعابهم.

Google
مكتبة المكتبات!

ووفقًا لديفيد فايز فى كتابه قصة جوجل، وهو تأريخ ممتاز يوضح جنبًا إلى جنب مع كتاب البحث لباتل، فإن فكرة بحث الكتب على جوجل خطرت للارى بيدج، الشريك فى تأسيس جوجل، عندما كان لايزال مرشحًا للدكتوراة فى ستانفورد وتذكر معاناته طالبًا فى المدرسة الثانوية فى العثور على أدلة الاستعمال التى كان يحتاجها لتجميع الإلكترونيات. وقد واجه فى الدراسات العليا شكلاً أكثر حدة للمشكلة. «الآن وفى هذه اللحظة»، كما يقال، «من الصعب حقًا للدارسين أن يعملوا خارج نطاق خبرتهم بسبب القيود المادية للمكتبات». ما كان يتصوره هو نظام إعارة إلكترونى للمكتبات تعير فيه المكتبات بعضها البعض العناوين بشكل رقمى بدلاً من شحن نسخ ورقية. ومن هذا التفكير الأريب نما بحث الكتب عن جوجل ملتزمًا برقمنة ما يصل إلى ٢٠ مليون من عناوين المشاع من مجموعات المكتبات الكبرى وبتحدى ناشرى الأعمال المحمية عن طريق نسخ ملكيات مؤلفيهم للسماح بالاقتباسات المباحة. أما كيف ستجنى الأموال من هذا المشروع الضخم فهذا ما يبقى غير واضح ولعلها قد كانت مسألة غير ذات بال عند بيدج المتحلى بروح الجماعة عندما تخيل الأمر، ولكن عاجلاً أم آجلاً سوف يصبح جوجل وأفاتاراته (تصاويره الممثلة لأشخاص) ليس فقط مكتبة المكتبات متعددة اللغات فى العالم، بل متجرًا عالميًا يقدم ملايين العناوين للقراء عبر العالم وسوف يتحول ذلك فيما بعد إلى أموال، مما يطرح الاحتمال النظرى الذى مفاده أن كل كتاب طبع على الإطلاق بأية لغة ربما يتم النفاذ إليه بالفعل من أى مكان توجد فيه وصلات الإنترنت.

ويبدو أن التصور الأصلى لبيدج بخصوص بحث الكتب على جوجل كان أن الكتب، مثل أدلة الاستعمال التى كان يحتاجها فى المدرسة الثانوية، مناجم معلومات يمكن للمستخدمين أن يبحثوا فيها كما يبحثون فى الشبكة العنكبوتية. ولكن أغلب الكتب، على عكس أدلة الاستعمال والقواميس والتقاويم وكتب الوصفات والدوريات العلمية وبرشامات الترجمة الخاصة بالطلبة، وهلم جرا، لا يمكن تمثيلها تمثيلاً كافيًا بجوجلة موضوعات من قبيل أخيل/ الغضب، أو عطيل/ الغيرة، أو آهاب/ الحيتان. فالإلياذة، ومسرحيات شيكسبير، ورواية موبى دك هى نفسها معلومات القراءة والتأمل بنصها الكامل. وبينما تتأقلم الرقمنة وذيلها الطويل على سنن الطبيعة البشرية، فسوف يعالج هذا المفهوم الخاطئ نفسه كما سيفعل الخطأ المتعلق به والذى مفاده أن الكتب المنقولة إلكترونيًا سوف تقرأ بالضرورة على أجهزة إلكترونية. فقط أولئك الذين لم يقرأوا الإلياذة أو موبى دك أو المنزل الكئيب أو طريق سوان أو أصل الأنواع، سوف يراودهم هذا الشىء بعيد الاحتمال. وحتى يتطور البشر أنفسهم كمستقبلات إلكترونية، سوف يختار القراء مثل هذه الكتب ـ تجسيد الحضارات ـ كملفات من الشبكة العنكبوتية العالمية، والتى منها إما سوف تنقل إلى حاسوب شخصى وتطبع ـ وهو إجراء عويص ينتج عنه كومة من الورق المفكك ـ أو، على نحو أكثر إرضاء، إلى ماكينة قريبة ليست أكبر من ماكينة صرف آلى والتى سوف تطبع وتجلد وتهذب آليًا الكتب المطلوبة عند الطلب والتى لا يمكن تمييزها عن الكتب المجهزة فى المصنع، لتقرأ كما قرئت الكتب لقرون مضت.

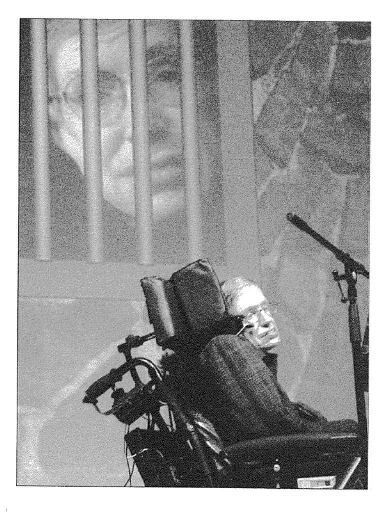
وفى هذه الأثناء تكون جوجل قد قلبت، مع مشروع جوتنبرج وتحالف المحتوى المفتوح وبرامج عمل مشابهة، صفحة جديدة فى تاريخ الحضارات، تاركة لنا صلاحية وعبء استكمال القصة. وكجزء من هذا المجهود، فقد ركبت أون ديماند بوكس، وهى شركة لى فيها حصة، قطعة تجريبية من ماكينة كالتى وصفتها لتوى، فى متجر الكتب بالبنك الدولى بواشنطن العاصمة، ماكينة تستقبل ملفًا رقميًا وتطبع وتجلد آليًا عند الطلب نسخة خفيفة الغلاف وبجودة المكتبات وبتكلفة منخفضة، فى غضون دقائق وبأقل تدخل بشرى. ماكينة صرف آلى للكتب.

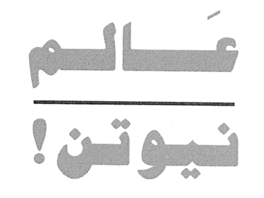
ولقد أرسلت ماكينة تجريبية ثانية إلى مكتبة الإسكندرية بمصر وسوف تطبع قريبًا الكتب باللغة العربية، وسوف تُركب قطعة أحدث لاحقًا هذا العام (٢٠٠٦) أو فى أوائل العام القادم (٢٠٠٧) فى مكتبة نيويورك العامة[٢]. ■

هوامش:

(١) رفضت ويكيبيديا، على عكس جوجل وياهو وميكروسوفت، تقييد محتواها، وقد كانت ممنوعة طيلة العام الماضى فى الصين.

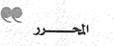
(٢) انظر جيسون إبشتاين، «مستقبل الكتب»، تكنولوجى ريفيو، يناير ٢٠٠٥.





ستيفن هوكنج أحد أشهر وأعظم العلماء فى النصف الثانى من القرن العشرين. أعاد إصدار أشهر كتبه «تاريخ موجز للزمن» تحت عنوان «التاريخ الأوجز للزمن» ويتناول هذا الكتاب أكثر الأمور تطورًا وتقدمًا فى علوم الفيزياء والكون بلغة سهلة ومفهومة. وظل الكتاب على قائمة «الصنداى تايمز» للكتب الأكثر مبيعًا لمدة ٢٣٧ أسبوعًا.

هوكنج عالم فيزيائى إنجليزى ولد عام ١٩٤٢ . اشتهر بسبب نظريته حول الثقوب السوداء. ويركز أبحاثه حول الفضاء والكون وتطوير نظرية النسبية. ويعانى هوكنج من مرض فى الأعصاب سبب له شللاً فى جميع الوظائف المرتبطة بالعضلات، مما اضطره لاستخدام كمبيوتر ناطق فى عمله.


المحـــرر

■■ ترجع أفكارنا الحالية عن حركة الأجسام إلى جاليليو ونيوتن. فقد كان الناس من قبلهم يصدقون أرسطو الذى قال إن الحالة الطبيعية للأجسام هى السكون، ولا تتحرك إلا تحت تأثير قوة أو دفعة. وتبعاً لذلك فإن الجسم الأثقل سيسقط بسرعة أكبر من الجسم الأخف لأن الأول ستمارس عليه قوة جذب أكبر تجاه الأرض. ومن التقاليد الأرسطية كذلك أن الإنسان يستطيع التوصل إلى جميع القوانين التى تحكم العالم بالفكر المطلق فقط، وليس من الضرورى إثبات ذلك عملياً بالمشاهدة. وهكذا لم يهتم أحد قبل جاليليو بمراقبة ما إذا كانت الأجسام ذات الأوزان المختلفة تسقط بسرعات مختلفة. ويقال إن جاليليو قد أثبت خطأ نظرية أرسطو وذلك بإسقاط أجسام ذات أوزان مختلفة من برج بيزا المائل بإيطاليا. وهى قصة على الأغلب غير حقيقية، ولكن جاليليو قام بعمل شبيه بذلك: فقد وضع بعض الكرات مختلفة الأوزان على سطح أملس مائل. والوضع هنا مماثل للسقوط الرأسى للأجسام مختلفة الأوزان، لكن من الأسهل متابعة انحدار الكرات على السطح المائل حيث أن السرعة هنا أبطأ. وقد بينت قياسات جاليليو أن كل جسم يزيد من سرعته بنفس المعدل بصرف النظر عن وزنه. فمثلاً إذا تركت كرة تنحدر على سطح مائل بسرعة تزيد متراً كل عشرة أمتار، فإن الكرة ستقطع مسافة السطح المائل بسرعة متر واحد فى الثانية أثناء الثانية الأولى ومترين فى الثانية بعد ثانيتين وهكذا بصرف النظر عن وزن الكرة. ومن الطبيعى أن تنحدر كرة من الرصاص بسرعة أكبر من الريش وذلك لأن الريش يعانى مقاومة الهواء لحركته (تباطؤ). فإذا أسقطنا جسمين لا يتأثران بمقاومة الهواء مثل كرتين مختلفتى الوزن من الرصاص، فإنهما ستسقطان بنفس المعدل. (وسنرى السبب لاحقاً). وعلى القمر حيث لا يوجد هواء ليبطئ من معدل سقوط الأشياء، قام رائد الفضاء ديفيد سكوت David Scott بتجربة الريش والرصاص فوجد بالفعل أن كليهما يصل إلى الأرض فى نفس اللحظة.

وقد استخدم نيوتن قياسات جاليليو أساساً لقوانينه عن الحركة. وفى تجارب جاليليو كان الجسم ينحدر تحت تأثير القوة نفسها على السطح المائل (تأثير وزنه)، أما نتيجة ذلك فكانت تسارع الجسم باستمرار. وقد أثبت ذلك أن التأثير الحقيقى للقوى هو دائماً تغيير سرعة

من كتاب:
BRIEFER HISTORY OF TIME A
(التاريخ الأوجز للزمن)
STEPHEN HAWKING
With Leonard Mlodinow
New York, BANTAM, 2005
تصدر ترجمته العربية عن دار العين للنشر
ترجمة: أحمد عبدالله السماحى وفتح الله الشيخ



نسبة المسافة.. المسافة والمسار الذى يقطعهما جسم ما يمكن أن يظهر مختلفًا إذا اختلف المشاهد

40 METERS

قوة الجاذبية للأجسام المركبة.. إذا تضاعفت كتلة الجسم تتضاعف قوة الجاذبية التى يمارسها

عَالم نيوتن!

ستيفن هوكنج

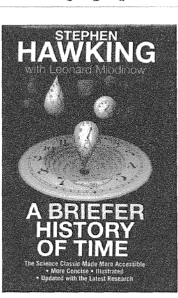
الجسم، وليس مجرد دفعه إلى الحركة، كما كان يعتقد الناس فى السابق. ويعنى ذلك أيضاً أنه عندما لا تؤثر أى قوة على الجسم فإنه سيحتفظ بحركته فى خط مستقيم وبالسرعة نفسها. وقد وردت هذه الفكرة لأول مرة بوضوح تام سنة ١٦٨٧ فى كتاب نيوتن الأشهر «المبادئ الرياضية» (Principia Mathematica) وهو ما أصبح يعرف بالقانون الأول لنيوتن. أما ما يحدث للجسم عندما تؤثر عليه قوة ما فيفسره القانون الثانى لنيوتن. وينص هذا القانون على أن الجسم يغير من سرعته (يتسارع) بمعدل يتناسب مع القوة التى تؤثر عليه. (فمثلاً يتضاعف التسارع كلما تضاعفت القوة المؤثرة) وكذلك يقل التسارع كلما قلت كتلة الجسم (كمية المادة فى الجسم). وتقدم لنا السيارة مثالاً مألوفاً: فكلما زادت قوة المحرك زاد التسارع، لكن لو كانت السيارة أثقل فسيقل التسارع إذا استخدمنا المحرك نفسه.

وبالإضافة إلى قوانين نيوتن عن الحركة التى تصف كيفية تفاعل الأجسام مع القوة التى تؤثر فيها، فإن نظرية نيوتن للجاذبية توضح كيفية تعيين نوع معين من القوى، وهى قوى الجاذبية. وكما سبق أن ذكرنا، تنص هذه النظرية على أن كل جسم يتجاذب مع كل جسم آخر قوة تتناسب مع كتلة كل جسم منهما. وبذلك تتضاعف قوة التجاذب بين جسمين إذا تضاعفت كتلة أحدهما (وليكن الجسم أ). وهو ما يمكن توقعه لو فكرنا أن الجسم الجديد أ مكون من جسمين لكل منهما الكتلة الأصلية قبل مضاعفتها. وسيتجاذب كل من هذين الجسمين مع الجسم «ب» بالقوة الأصلية نفسها. وهكذا تصبح قوة التجاذب الكلية بين أ و ب ضعف القوة الأصلية. وإذا تضاعفت كتلة الجسم الآخر مرتين فإن قوة التجاذب الكلية بينهما ستتضاعف ست مرات.

وهكذا يمكننا أن ندرك لماذا تسقط جميع الأجسام بالمعدل نفسه. فوفقاً لقانون نيوتن عن الجاذبية فإن جسماً له ضعف كتلة جسم آخر سيجعل قوة الجاذبية تتضاعف وحيث أن كتلة الجسم قد تضاعفت فإن قانون نيوتن الثانى يؤدى إلى اختزال التسارع إلى النصف بالنسبة لكل وحدة من القوى. وتبعاً لقوانين نيوتن فإن هذين التأثيرين سيلاشى كل منهما الآخر تماماً، مما يعنى أن التسارع سيظل هو نفسه دون النظر لتغيير الوزن.

وينبئنا قانون الجاذبية لنيوتن كذلك أنه كلما تباعدت الأجسام تقل قوى التجاذب بينها. وينص القانون على أن قوة تجاذب أحد النجوم هى بالضبط ربع قوة تجاذب قوة نجم آخر على بعد مساو لنصف مسافة النجم الأول. ويتنبأ هذا القانون بمدارات الأرض والقمر والكواكب بدقة عظيمة. ولو كان هذا القانون ينص على أن قوة جاذبية النجم تنخفض أسرع أو أبطأ مما هى عليه بالنسبة للمسافة، لما كانت مدارات الكواكب بيضاوية، بل لهوت الكواكب فى مسار حلزونى نحو الشمس أو أفلتت منها إلى الفضاء.

ويكمن الاختلاف الكبير بين أفكار أرسطو وأفكار جاليليو ونيوتن فى اعتقاد أرسطو أن حالة السكون لأى جسم هى الحالة المفضلة إذا لم تدفعه قوة ما. وبالتحديد لأنه كان يعتقد أن الأرض فى حالة سكون. لكن تبعاً لقوانين نيوتن فإنه لا توجد حالة سكون قياسية متفردة. ويمكن القول أن جسماً ما أ فى حالة سكون بينما الجسم ب هو الذى يتحرك بسرعة ثابتة، أو العكس: الجسم الساكن هو ب بينما يتحرك الجسم أ





هل يهم حقيقة ما إذا كان أرسطو أم نيوتن هو الذى على صواب؟ وهل الفرق بينهما اختلاف فى الشكل أم فى الفلسفة؟ أم هو موضوع هام للعلوم؟



المراوغ

لم يكن اسحق نيوتن رجلاً سوياً. فقد كانت علاقته بالأكاديميين الآخرين غير طيبة. وقد أمضى سنواته الأخيرة غارقاً فى نزاعات ساخنة. وبعد ظهور كتابه «المبادئ الرياضية Principia Mathematica»، الذى يعد بالتأكيد أهم الكتب على الإطلاق فى عالم الفيزياء، ذاع صيت نيوتن بشكل بارز. عين بعد ذلك نيوتن رئيساً للجمعية الملكية وأصبح أول عالم يحمل لقب فارس.

سرعان ما اصطدم نيوتن بالفلكى الملكى جون فلامستيد John Flamsteed الذى كان قد مده بكثير من البيانات التى احتاجها نيوتن قبل نشر كتاب «المبادئ الرياضية». وقد حدث هذا الاصطدام لأن فلامستيد امتنع عن إعطائه معلومات أخرى كان يحتاجها نيوتن. كان نيوتن لا يسمح بأن يقال له لا، فقام بتعيين نفسه فى مجلس إدارة المرصد الملكى وحاول أن يرغم فور ذلك فلامستيد بنشر تلك البيانات. رتب نيوتن للاستيلاء على تلك المعلومات، وجهز لينشرها على يد العدو اللدود لفلامستيد وهو إدموند هالى Edmond Halley. غير أن فلامستيد قام بعرض قضيته على المحكمة وحصل على حكم يمنع نشر هذه المعلومات المسروقة قبل نشرها بفترة وجيزة. أثار هذا الأمر حمق نيوتن، ولكى ينتقم من فلامستيد حذف كل ما يشير إليه فى الطبعات التالية لكتاب «المبادئ الرياضية».

والجدل الأكثر شدة كان مع الفيلسوف الألمانى جوتفريد لايبنيز Gottfried Leibniz. كان كل من لايبنيز ونيوتن بمفرده، وبعيداً عن الآخر، قد طور فرعاً من الرياضيات أطلقوا عليه علم التفاضل والتكامل، والذى بنيت عليه معظم الفيزياء الحديثة. وبالرغم من أننا نعرف أن نيوتن قد اكتشف هذا العلم قبل لايبنيز بسنوات إلا أنه لم ينشر أبحاثه إلا مؤخراً. وأصبح الجدل الكبير حول من توصل أولاً إلى هذا العلم من أسباب انقسام العلماء على فريقين يؤيد كل منهما أحد الاثنين. والأمر الجدير بالملاحظة أن معظم المقالات التى كتبت دفاعاً عن نيوتن كانت فى الأصل مكتوبة بخط يده ولكن بأسماء أصدقاء له! وعندما احتدمت المعركة ارتكب لايبنيز خطأ بأن رفع الأمر للجمعية الملكية. وعليه فقد عين نيوتن نفسه بصفته رئيساً للجمعية. لجنة «غير منحازة» لفحص الأمر، وكانت اللجنة بالصدفة مكونة كلها من أصدقائه! ولم يكن ذلك هو ما فعله نيوتن فقط، بل إنه قام بنفسه بكتابة تقرير اللجنة ونشره رسمياً بواسطة الجمعية الملكية التى اتهمت لايبنيز رسمياً بالتزوير. ولم يكتف نيوتن بذلك بل نشر تعليقاً (تحت اسم مستعار) على هذا التقرير فى دورتيه الخاصتين بالجمعية الملكية. وقد كتب نيوتن بعد وفاة لايبنيز أنه كان فى غاية السعادة لأنه «حطم قلب لايبنيز».

كان نيوتن أثناء معركتيه السابقتين قد ترك كمبريدج والأكاديمية وأصبح نشطاً فى العمل بالسياسة فى مناهضة الكاثوليكية ببلده كمبريدج ثم بعد ذلك بالبرلمان مما جعله يحصل على مكافأة فى شكل وظيفة مريحة هى مدير صك النقود الملكى. وهنا استخدم نيوتن مقدرته الفائقة فى المراوغة واللوع القاسى فى مواقف أكثر قبولاً اجتماعياً، حيث قاد بنجاح عملية ضبط كبيرة لتزوير النقود، والتى أرسل بناء عليها الكثير من الرجال إلى حتفهم بالموت شنقاً.

بسرعة ثابتة. فمثلاً إذا نحينا جانباً دوران الأرض ومدارها حول الشمس، فمن الممكن القول أن الأرض فى حالة سكون وأن قطاراً يتجه شمالاً بسرعة ٩٠ ميلاً فى الساعة. أو يمكن القول أن القطار ساكن والأرض هى التى تتحرك جنوباً بسرعة ٩٠ ميلاً فى الساعة. وإذا أجرينا تجاربنا على أجسام تتحرك على متن القطار فإن قوانين نيوتن تظل سارية. فمن هو الذى على صواب نيوتن أم أرسطو؟ وكيف نتوصل إلى ذلك؟

ولنتصور الاختبار الآتى: تخيل نفسك محبوساً فى صندوق ولا تعلم ما إذا كان هذا الصندوق مستقراً على متن قطار متحرك أو على الأرض الثابتة. ووضع الصندوق على الأرض الثابتة هو حالة السكون القياسية عند أرسطو، فهل هناك طريقة لتحديد وضع الصندوق؟ إذا أمكننا ذلك فسيكون أرسطو على صواب وأن حالة السكون على الأرض هى حالة خاصة. فإذا أجرينا تجاربنا داخل الصندوق وهو على متن القطار فإنها ستؤدى إلى النتائج نفسها كما لو كان الصندوق على رصيف القطار «الساكن» (إذا افترضنا عدم وجود أى عوائق أو استدارات فى حركة القطار). وستجد أن لعب تنس الطاولة على القطار له نفس سلوك لعب تنس الطاولة فى ملعب ساكن. وإذا كنت داخل الصندوق وتؤدى نفس اللعبة فى قطار يسير بسرعات مختلفة بالنسبة للأرض (وكل سرعة ثابتة) مثلاً صفر و٥٠ و٩٠ ميلاً فى الساعة فإن حركة الكرة لن تتغير وستظل كما هى فى كل الأحوال. وهذا هو سلوك العالم الذى تعكسه قوانين نيوتن: لا توجد طريقة يمكن أن تعرف بها ما إذا كان القطار هو الذى يتحرك أم الأرض. ولا يصبح مفهوم الحركة واضحاً إلا مقارنة بأجسام أخرى.



فهل يهم حقيقة ما إذا كان أرسطو أم نيوتن هو الذى على صواب؟ وهل الفرق بينهما اختلاف فى الشكل أم فى الفلسفة؟ أم هو موضوع هام للعلوم؟ فى الواقع هناك تطبيقات قوية مؤكدة لعدم وجود حالة سكون قياسية مطلقة فى الفيزياء: ويعنى ذلك أننا لا نستطيع تحديد ما إذا كان حدثان قد وقعا فى زمانين مختلفين فى نفس المكان فى الفضاء.

ولنتصور ما يلى: نفترض أن شخصاً ما على متن قطار يقذف بكرة تنس الطاولة إلى أعلى عمودياً على الطاولة بحيث تسقط فى نفس النقطة كل ثانية. وبالنسبة لهذا الشخص لا يتغير موقع الصدمة الثانية عن الأولى ولا يفصل بين الموقعين أى مسافة. أما بالنسبة لشخص يقف خارج القطار فإن الصدمتين سيفصل بينهما أربعون متراً تقريباً حيث سيكون القطار قد قطع هذه المسافة فى الفترة بين الصدمتين. ووفقاً لنيوتن فإن كلا من المشاهدين لهما نفس الحق فى اعتبار أنفسهما فى حالة سكون، ولذا فإن وجهتى نظرهما مقبولتان، ولا تفضل إحداهما الأخرى كما كان يعتقد أرسطو. وسيختلف موقع الأحداث والمسافة بينها بالنسبة لشخص على القطار وآخر على الرصيف، ولا يجب أن يكون هناك سبب لتفضيل أحدهما على الآخر.

كان نيوتن منزعجاً جداً لغيبة الموقع المطلق أو الفضاء المطلق، كما كان يسمى من قبل، لأن ذلك لم يكن يتفق مع فكرته عن وجود رب مطلق. وفى الحقيقة رفض نيوتن تقبل عدم وجود الفضاء المطلق، حتى وإن كانت قوانينه تتضمن ذلك. وقد تعرض نيوتن لنقد شديد من كثير من الناس نتيجة لهذا الاعتقاد اللامنطقى. وكان أكثرهم نقداً له الأب بيركلى الفيلسوف الذى كان يعتقد أن كل الأجسام المادية والمكان والزمان هى مجرد خداع. وعندما سمع الدكتور چونسون الشهير برأى بيركلى صاح «إننى أرفضه مثل هذا»، وضرب بقدمه صخرة كبيرة.

كان كل من أرسطو ونيوتن يعتقدان فى الزمن المطلق. ويعنى ذلك أنهما كانا يعتقدان أن أى شخص يمكن أن يعين الفترة الزمنية بين حدثين بدون أى مشاكل، وستكون هذه الفترة هى نفسها بصرف النظر عن الشخص الذى يرصدها، بشرط أن يستخدم الشخص ساعة دقيقة. وعلى عكس الفضاء المطلق فإن الزمن المطلق كان يتسق مع قوانين نيوتن. وهو نفسه ما يعتبره معظم الناس فكرة مقبولة. إلا أنه خلال القرن العشرين أيقن الفيزيائيون أن عليهم أن يغيروا من أفكارهم حول الزمان والمكان. وكما سنرى، فقد اكتشفوا أن طول الزمن بين حادثتين مثل المسافة بين النقطتين التى ترتد بينهما كرة تنس الطاولة، أمر يتوقف على المشاهد. وقد اكتشفوا كذلك أن الزمن ليس منفصلاً ولا مستقلاً تماماً عن المكان. وكان مفتاح هذه العلاقة هو النظرة الجديدة لخواص الضوء. وقد تبدو هذه الأفكار على النقيض من خبرتنا، لكن ومع أن قبولنا الظاهرى المبنى على خبرتنا يتسق تماماً مع حركة أشياء مثل التفاح أو الكواكب التى تتحرك بسرعة بطيئة نسبياً، لكنها لا تتسق بالمرة مع الأشياء التى تتحرك بسرعة قريبة من أو مساوية لسرعة الضوء. ■

كتاب الزاوية

الانضمام إلى اليد السوداء!

مذكرات عريان يوسف سعد

كان فى مدرسة الطب جماعة من الطلبة تألفت قبل نشوب الثورة من تلقاء نفسها من خليط من طلبة السنوات الدراسية جميعها تربطهم رابطة التقارب فى الميل إلى العبث فى أوقات الفراغ. والقيام بالرحلات الرياضية أطلقوا على أنفسهم جمعية الأنس. فلما نشبت الثورة كان أفرادها زعماء المدرسة يجتمعون سرًا مرة فى منزل أحدهم ومرة فى مسجد المنيرة.

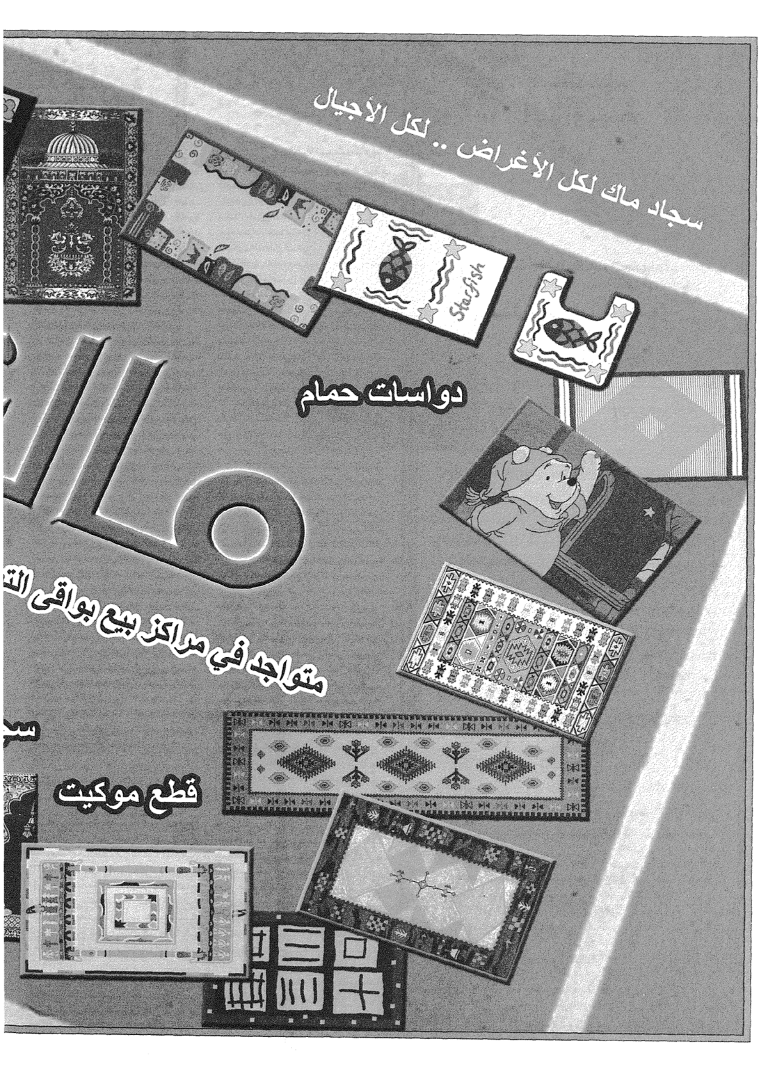
ولقد انتهزت فرصة اجتماعهم مرة لبحث شئون السياسة والأحزاب، وبعد أن أقسموا اليمين على الاحتفاظ بسرية الاجتماعات طلبت الكلمة وعرضت عليهم ضرورة الالتجاء إلى أعمال العنف. فلقيت منهم معارضة صاخبة تبلغ حد الإجماع. وعبثًا حاولت تبرير وجهة نظرى فسكت. ولكن ذلك الفشل الذى تعرضت له لم يجاوز وقت الاجتماع. فما انفرط عقده وخرجنا حتى وجدت زميلاً كان يميل إلى الهدوء يتأبط ذراعى فسرنا حتى إذا انفردنا قال لى: أجاد أنت فيما تقول؟ قلت: وأى جد!

قال: سآتيك غداً بطلب انضمام إلى جماعة اليد السوداء. وانصرف.

وفى اليوم التالى، قابلنى زميل آخر وناولنى ورقة وقال: وقع عليها لأرى إذا كنت أستطيع إلحاقك باليد السوداء. وكان على الورقة مثلث مطبوع فوقعتها وسلمتها له. وبعد قليل جاء صاحبى الأول فوقعت له ورقة مرسومًا عليها خنجر.

وبعد يومين عاد صاحبى هذا، وقال لى: لقد أصبحت عضوًا فى الجماعة وأنا زميلك.




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
تصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

الأحجار لم تتركنا لكنه سيفعلها

وداعا.. عصر النفط!

حسين عبدالله

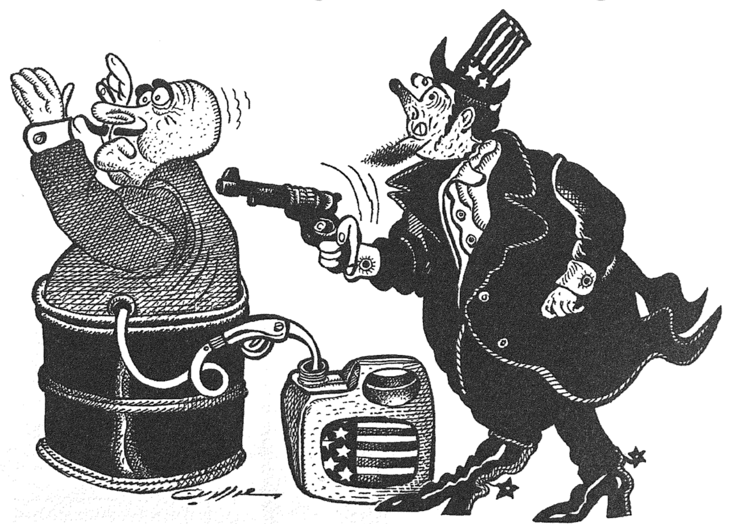
■■ تموج الساحة العالمية بدراسات ساخنة حول لحظة بلوغ الإنتاج العالمى من النفط ذروته المتوقعة، لكى يبدأ النفط رحلة النضوب النهائى حيث لا يتجدد مهما طال الزمن. وبذلك يدخل النفط سجل التاريخ تحت مسمى «عصر النفط»، مثله مثل «العصر الحجرى». ويبقى الفارق بينهما أن الأحجار لم تتركنا، ولكن النفط سوف يتركنا، وإلى الأبد.

ويدور الخلاف بين من يتوقع استمرار الوفرة النفطية عبر فترة ممتدة من المستقبل المنظور، ومن ثم يروج لاتجاه الأسعار نحو الانخفاض أو على الأقل ثباتها أو ارتفاعها بمعدلات بطيئة، ويأتى على قمة هؤلاء هيئة معلومات الطاقة الأمريكية US Energy Information Administration (EIA) التى تتسم دراساتها بالتفاؤل. وفى الجانب المقابل يوجد من يتوقع ازدياد الإمدادات النفطية شحة تعجزها عن مواجهة الارتفاع المطرد فى الطلب العالمى، ومن ثم تشتد حدة الصراع بين الدول لتأمين احتياجاتها منه، كما تتجه الأسعار إلى الارتفاع. وقد وصل سعر برميل البترول خلال الشهر الماضى إلى حوالى ٩٥ دولاراً فى قفزة غير مسبوقة.

ويعتمد الداعون لإبقاء سعر النفط عند مستوى متدن على أن كلفة التنقيب عن النفط وإنتاجه قد اتجهت خلال السنوات الأخيرة وسوف تظل تتجه مستقبلا إلى الانخفاض نتيجة للتحسينات التقنية. ومن ثم فإن أصحاب الحقول الحدية ذوى النفقة المرتفعة سوف يكون فى مقدورهم ضخ كميات متزايدة من النفط فى أسواقه مما يشعل المنافسة بين المنتجين ومن ثم تنخفض الأسعار.

ونحن لا نجادل فى أن التحسينات التقنية قد حققت بالفعل انخفاضا ملحوظا فى نفقات البحث عن النفط وتنميته وإنتاجه حتى منتصف التسعينيات. فهذه مقولة صحيحة ولكن ما يستخلص منها كاتجاه عام غير صحيح. فقد قامت شركات النفط العالمية بمساندة الدول الصناعية الغربية بالإنفاق على تطوير تقنيات البحث عن النفط وإنتاجه خارج أوبك، عقابا لها على ما حققه العرب بفضل حرب أكتوبر ١٩٧٣ من تصحيح لنصيب الدول المنتجة والذى لم يتجاوز عبر ربع القرن السابق على تلك الحرب ثلاثين سنتا للبرميل (مقومة بدولار ١٩٤٧) أو ٨٥ سنتا بالدولارات الجارية عام ١٩٧٠، فقفز إلى ١٢ دولارا ساريا من ١٩٧٤. وقد كان من أبرز التحسينات التقنية التى تحققت نتيجة لتكثيف الإنفاق الغربى خارج أوبك: تقنيات المسح السيزمى ثلاثى الأبعاد، والحفر الأفقى، والحفر فى المياه العميقة، وتحسين معامل الاستخلاص Recovery Factor من الحقول القديمة والذى ارتفع فى بعض الحالات من نحو ٣٥٪ فى المتوسط إلى أكثر من ٥٠٪.

غير أن النتائج النهائية لتلك التحسينات التقنية لم تنجح فى زيادة حجم الاحتياطيات النفطية المكتشفة، إذ لم يعد فى الإمكان العثور على حقول عملاقة من نوع ما تحقق فى الخليج



بلغ الإنتاج العالمى من السوائل النفطية عام ٢٠٠٥ نحو ٣٠ مليار برميل لم يتجاوز منها إنتاج الحقول المكتشفة حديثا نحو الثلث، فضلا عن اتجاه النفقات للارتفاع



العربى. إذ انخفض حجم الحقل المكتشف من نحو ٢٠٠ مليون برميل فى المتوسط خلال عقد الستينيات من القرن الماضى، عندما ركزت الشركات جهودها الاستكشافية فى الشرق الأوسط، إلى نحو ٥٠ مليون برميل خلال التسعينيات. وكنتيجة لذلك انخفض حجم النفط المكتشف على مستوى العالم من نحو ٧٠ مليار برميل سنويا فى المتوسط خلال الستينيات إلى نحو ٢٠ مليار برميل خلال التسعينيات، وهو ما لا يكفى لتعويض ما ينضب من الاحتياطيات بالإنتاج، إذ يغطى الإنتاج فى حدود ٥٥ مليون ب/ى فقط بينما تراوح الإنتاج العالمى من النفط خلال النصف الثانى من التسعينيات حول ٧٥ مليون ب/ى، ويتجاوز الآن ٨٥ مليون ب/ى مع تزايد مطرد فى الاستهلاك بمعدل يقارب ٢٪ سنويا فى المتوسط.

وكمثال حديث، فقد بلغ الإنتاج العالمى من السوائل النفطية عام ٢٠٠٥ نحو ٣٠ مليار برميل لم يتجاوز منها إنتاج الحقول المكتشفة حديثا نحو الثلث، فضلا عن اتجاه النفقات للارتفاع.

كذلك يوضح تقرير حديث لمجموعة IHS Energy Group أن اثنتى عشرة دولة مسئولة عن إنتاج ثلث الإنتاج العالمى من النفط لم تستطع خلال السنوات العشر ١٩٩٢-٢٠٠١ تعويض ما نضب من احتياطياتها إلا بنسب ضئيلة. بل إن أهم الدول المنتجة وهى روسيا والمكسيك والنرويج وبريطانيا تراوح معدل التعويض فيها بين ١٥٪ و٣١٪.

وإذا كان خبراء جيولوجيا النفط العالميين لا يستبعدون احتمال العثور على حقول عملاقة، إلا أن ما يحظى بموافقة أغلبهم أن تلك الحقول قد لا توجد إلا فى مناطق صعبة نائية وبتكلفة مرتفعة، وأن العالم بعد أن استهلك ما يقرب من ثلث الثروة النفطية Oil resources سوف يواجه صعوبات متزايدة فى استخلاص الباقى، وهو ما ينعكس فى ارتفاع التكلفة والأسعار.

ويعارض هؤلاء الخبراء الادعاء بأن احتياطيات النفط قد ارتفعت خلال السنوات العشرين الماضية ويصفون الزيادة بأنها وهمية، وأن العالم لم يتمكن من تعويض ما استخرج من النفط الخام على مدى السنوات العشرين الماضية.

ولعل مما يؤكد تلك الرؤية أن بعض الزيادات التى أدخلت على حجم الاحتياطيات النفطية كانت زيادات دفترية، إذ قامت بعض دول أوبك خلال النصف الثانى من ثمانينيات القرن الماضى بزيادة حجم احتياطياتها النفطية بنحو ٧٠٪ دفعة واحدة وكان أغلب تلك الزيادة ناتجا من إعادة التقدير Revision أكثر منه نتيجة لجهود استكشافية جديدة. وكان الهدف من تلك الزيادة استخدامها كذريعة لحصول كل دولة على نصيب أكبر من نظام الحصص الذى بدأت أوبك بتطبيقه منذ ١٩٨٢ للحفاظ على سقف جماعى للإنتاج حماية للأسعار من التآكل.

تأكيدا لما سبق، وكما يستخلص من بيانات المساحة الجيولوجية الأمريكية US Geological Survey (USGS) لعام ٢٠٠٢ فإن الاحتياطيات النفطية العالمية المؤكدة تقدر بنحو ٩٥٩ مليار برميل وذلك بنقص ١١٪ عن التقديرات التى تتبناها أوبك وجهات أخرى. كذلك تقدر USGS احتياطيات أوبك النفطية المؤكدة بنحو ٦١٢ مليار برميل وهو ما يقل بنحو ٢٨٪ عما هو شائع ومعلن.

كذلك تبنت وكالة الطاقة الدولية International Energy Agency (IEA) التى أنشئت عام ١٩٧٤ لتخدم مصالح الدول الصناعية الغربية فى مجال الطاقة والنفط، فى تقريرها الذى أذاعته عام ١٩٩٨ بعنوان World Energy Outlook توجها يحذر من العجز المتوقع فى الموارد النفطية بحلول ٢٠٢٠. ففى تقدير الوكالة للإنتاج تدخل ما تطلق عليه النفط غير التقليدى Unconventional oil ومن أمثلته سوائل الغاز الطبيعى NGLs وفوائض التكرير Refining gains والسوائل المستخلصة من الطفل النفطى Oil shale ومن رمال القار Tar sands ومن الفحم... إلخ. وتتوقع الوكالة أن يبلغ إنتاج النفط التقليدى Conventional oil ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك رحلة النضوب الطبيعى. وتنتهى الوكالة إلى أن إجمالى العرض العالمى من النفط بنوعيه (التقليدى وغير التقليدى) يمكن أن يقصر بحلول ٢٠٢٠ عن مواجهة الطلب العالمى المتزايد، وأن العالم يمكن أن يواجه بحلول العام المذكور عجزا يقدر بنحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر نفطية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر.

هذا اعتراف صريح من منظمة دولية تمثل مصالح الدول الصناعية الغربية بأن العالم مقبل على فترة تشح فيها الإمدادات النفطية. وقد أتبعته الوكالة بدعوة أعضائها لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الموقف، وهو تحذير يحمل فى طياته نبوءة الصراع الدولى المتوقع لتأمين احتياجات الدول من النفط وغيره من مصادر الطاقة. ويأتى هذا التحذير على خلاف رؤية من يتوقعون أن العالم سوف يغرق فى فائض من إنتاج النفط يدفع المنتجين إلى التنافس لتصريفه ولو بأسعار متدنية.

هذا فيما يتعلق بالاحتياطيات النفطية، أما بالنسبة لاتجاه النفقات إلى الارتفاع فيستخلص من تقرير Merrill Lynch الذى أذيع فى أبريل ٢٠٠٤ بعنوان Higher Sustained Oil Price Now A Recognized Realty أن تكلفة العثور على النفط وتنميته قد أخذت فى الارتفاع منذ منتصف التسعينيات بمعدل ١٠٪ سنويا فى المتوسط، ولذلك صار يلزم لتشجيع الاستثمار فى صناعة النفط أن يرتفع السعر للحفاظ على معدل العائد فى ضوء الارتفاع الذى طرأ على التكلفة. ففى منتصف التسعينيات كان الإنفاق الرأسمالى (الاستثمار) اللازم للعثور على قدرة إنتاجية Oil Productive capacity خارج دول أوبك تعادل برميلا يوميا لمدة عشر سنوات يقدر بنحو ١٤.٦ ألف دولار، وبذلك تتراوح تكلفة العثور على النفط وتنميته حول ٤ دولارات للبرميل فى المتوسط، وهو ما كان خليقا بتحقيق عائد على الاستثمار نحو ١٣٪ مع وجود سعر للنفط يتراوح حول ١٨ دولارا للبرميل. أما خلال الفترة ٢٠٠١-٢٠٠٣ فإن حجم الإنفاق الرأسمالى اللازم للعثور على قدرة إنتاجية مماثلة ارتفع إلى نحو ٢٥.٦ ألف دولار وبذلك ارتفعت تكلفة العثور على النفط وتنميته إلى ٧ دولارات للبرميل فى المتوسط وهو ما يتطلب ارتفاع السعر إلى ٢٨ دولارا حتى يمكن تحقيق عائد على الاستثمار يعادل ١٣٪ كما كان الحال قبل ارتفاع التكلفة. بل إن ثمة دلائل - كما ورد بالتقرير - تشير إلى أن تلك التكلفة الرأسمالية سوف تستمر فى الارتفاع بمعدل يتجاوز ١٠٪ سنويا فى المتوسط، وذلك إضافة إلى احتمال ارتفاع نفقات التشغيل Operating costs إلى فوق ما عهدناه خلال السنوات الأخيرة[1].

ويخلص تقرير Lynch إلى أن افتراض استمرار أسعار مرتفعة للنفط صار حقيقة واقعة، ليس فقط فى أسواقه بل أيضا فى أسواق الأوراق المالية. وفى مجال السياسات التى تنتهجها شركات النفط العالمية.

وإذا كان تقرير Lynch الذى صدر فى أبريل ٢٠٠٤ قد توقع استمرار ارتفاع السعر إلى ٢٨ دولارا للبرميل فى المدى المتوسط، إلا أن آليات السوق العالمية للنفط تكفلت برفع السعر إلى أكثر من مثلى ما توقعه التقرير، كما قفزت التكلفة فى صناعة النفط قفزات كبيرة خلال الأعوام الأخيرة.

من ذلك دراسة أعلنت نتائجها خلال فبراير ٢٠٠٧ واشترك فى إعدادها بيتا الخبرة Cambridge Energy Research Associates (CERA) و IHS Energy Group حيث تشير إلى أن الشركات العالمية صارت منذ ٢٠٠٥ تضع خططها الاستثمارية على أساس سعر للنفط لا يقل عن ٥٠ دولارا للبرميل. وكان الباعث لتلك القفزة ما حدث خلال عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ من ارتفاع كبير فى التكلفة الرأسمالية فى القطاع العلوى Upstream من صناعة النفط (التنقيب والتنمية والإنتاج).

وإذ لا يتوفر للآن معيار معتمد لمتابعة اتجاه التكلفة الرأسمالية فى مشروعات القطاع العلوى، فإن دراسة HIS/CERA تحاول ابتكار رقم قياسى لهذه التكلفة Upstream Capital Costs Index (UCCI) مستخدمة المعلومات التى حصلت عليها من ٢٨ مشروعا نفطيا على المستوى العالمى (منها ١٦ بريا Onshore و١٢ بحريا Offshore)، مع الاستعانة بالأرقام المتاحة فى الصناعات التى



العالم يمكن أن يواجه بحلول العام المذكور عجزا يقدر بنحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر نفطية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر





تستخدم منتجاتها فى تلك المشروعات النفطية وهو ما يوضحه الجدول الخاص بالتكلفة الرأسمالية، ويتوقع أن تعدل التقديرات دوريا وتنشر بانتظام فى شهرى مايو ونوفمبر من كل عام.

ويستخلص من دراسة HIS/CERA عدد من النتائج أهمها:

(١) اتجاه تكلفة مشروعات توسيع القدرة الإنتاجية للنفط إلى الارتفاع، وبخاصة منذ ٢٠٠٥، حيث صارت الشركات العالمية تخطط مشروعاتها على افتراض سعر للنفط لا يقل عن ٥٠ دولارا بعد أن قفزت التكلفة الرأسمالية للعثور على النفط وتنميته فوق مستواها عام ٢٠٠٠ بنحو ٦٧٪ وكان معظم الزيادة خلال العامين الأخيرين، حيث قفزت خلال العام المنتهى فى آخر أكتوبر ٢٠٠٦ بمعدل ١٥٪ فى المتوسط.

(٢) فى ضوء ارتفاع التكلفة على هذا النحو، يتوقع أن ترجأ أو تلغى بعض مشروعات التوسع فى القدرة الإنتاجية للنفط إذا انخفضت الأسعار عن ٥٠ دولارا. وإذا حدث ذلك بالفعل، فلابد أن يتكرر ما حدث منذ مستهل ٢٠٠٤ عندما أخذت أسعار النفط فى الارتفاع نتيجة لقصور القدرة الإنتاجية للنفط عن مواكبة الطلب العالمى الذى تزايد بمعدلات غير مسبوقة، إذ ارتفع بنحو ٦ مليون ب/ى خلال الفترة ٢٠٠٣-٢٠٠٦.

(٣) وإذ تمثل تكلفة الحفر نحو ٤٠-٥٠٪ من التكلفة الرأسمالية للتنقيب والتنمية، فإن ارتفاع تكلفة الحفر بنحو ٢٥٪ يمكن أن يؤدى إلى ارتفاع التكلفة الرأسمالية الكلية للمشروع بنحو ١٠٪.

(٤) يتجه العالم إلى التوسع فى التنقيب عن النفط فى المناطق المغمورة Offshore حيث ساعد التقدم التقنى على إمكانية الحفر فى مناطق أعمق. ومن هنا صارت الصناعة تعانى من ندرة فى الأجهزة المستخدمة فى تلك المناطق ومن أمثلتها أجهزة الحفر البحرى rigs والسفن المستخدمة فى المناطق المغمورة، وبخاصة السفن المزودة بالرافعات العملاقة Heavy lift crane vessels.

هذه هى الصورة التى تعكس انتهاء عصر الوفرة النفطية وبدء اقتراب الإنتاج من ذروته المتوقعة لكى يعقبها الاتجاه نحو النضوب النهائى ومن ثم تزداد شحة الإمدادات النفطية وعجزها عن مواجهة الطلب العالمى المتزايد فى ظل الأسعار المتدنية والتى لم تتجاوز خلال عقد التسعينيات ٥ دولارات للبرميل مقومة بدولار ١٩٧٣ الذى صححت خلاله الأسعار بفضل انتصار أكتوبر من ٣ إلى ١٢ دولارا.

خلافا لتلك الرؤية التى قد تبدو متشائمة رغم اتسامها بالواقعية، تفترض بعض الدراسات المتفائلة ذات التوجه الغربى، ومنها دراسات هيئة معلومات الطاقة الأمريكية EIA، أن أوبك لديها من الإمكانيات ما يمكنها من القيام بدور المنتج المكمل Residual producer والتوسع فى بناء قدرتها الإنتاجية بحيث تغطى الفجوة بين الإنتاج خارجها وبين الاحتياجات العالمية المتزايدة عبر المستقبل المنظور. ومن هذا المنطلق تفترض دراسات EIA أن القدرة العالمية لإنتاج السوائل النفطية بنوعيها سوف ترتفع - وفقا لسيناريو متوسط - من نحو ٨٤.٣ مليون برميل يوميا٢ فى عام ٢٠٠٥ إلى نحو ١٠٤ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ والى ١١٨ مليون ب/ى عام ٢٠٣٠، وهو ما يفى باحتياجات العالم فى ظل أسعار معقولة.

وتتوقع الهيئة الأمريكية فى تقريرها الصادر فى مايو ٢٠٠٧ بعنوان International Energy Outlook ان الأسعار المعقولة (فى نظرها) سوف تنخفض (بدولارات ثابتة القيمة) من ٦٨ دولارا للبرميل عام ٢٠٠٦ إلى ٤٩ دولارا عام ٢٠١٤ ثم تبلغ ٥٩ دولارا بحلول ٢٠٣٠ (وهو ما يعادل حينئذ بالدولارات الجارية نحو ٩٥ دولارا للبرميل)، وإن كانت الهيئة لا تقدم ما استندت إليه فى تحديد «معقولية» تلك الأسعار.

وفقا لتلك التقديرات، وبافتراض قيام أوبك بسد فجوة العجز كما تتوقع EIA، فإن عدد الدول القادرة على توسيع قدرتها الإنتاجية من أعضاء أوبك، وفقا لسيناريو متوسط، سوف يتقلص إلى نحو ست دول يقع منها خمس فى الخليج وهى السعودية والعراق والإمارات والكويت وإيران ويضاف إليها فنزويلا، كما يتوقع أن تسيطر هذه الدول الست بحلول عام ٢٠٣٠ على القدرة الإنتاجية لنحو ٤٢ مليون ب/ى وهو ما يعادل ٣٥٪ من القدرة العالمية لإنتاج السوائل النفطية بنوعيها فى ذلك العام.

والواقع أن السيطرة على إنتاج السوائل النفطية، وانحصارها فى عدد محدود من الدول، أهمها ١٢ دولة أعضاء أوبك ثم روسيا و٤ دول حول بحر قزوين، كانت قد بدأت معالمها فى الظهور خلال السنوات الأخيرة وذلك نتيجة لعجز الإنتاج العالمى عن مواجهة الارتفاع المفاجئ فى الطلب، وهو ما دفع الأسعار إلى أكثر من مثليها خلال السنوات ٢٠٠٣-٢٠٠٦ (من ٢٨ إلى ٦١ دولارا لبرميل من سلة أوبك ORB).

فوفقا لتقديرات EIA وكما يتضح من جدول القدرات الانتاجية، يتوقع ان ترتفع القدرة الإنتاجية لأهم الدول المصدرة للسوائل النفطية وعددها ١٧ دولة من نحو ٤٧ مليون ب/ى عام ٢٠٠٥

الدعوة الغربية لرفع معدل النضوب فى دول أوبك من ٢٪ سنويا إلى ٤٪ من شأنه أن يقصف عمر تلك الاحتياطيات إلى النصف

جدول متابعة التكلفة الرأسمالية

عناصر التكلفة الرأسمالية فى القطاع العلوى للنفط	ارتفاع التكلفة خلال الـ ١٢ شهرا الأخيرة ٪
الصلب (عقب قفزة كبيرة فى العام الأسبق)	٣.٥
أجهزة الحفر البحرية Offshore rigs	٣٠٩.٢
المعدات Equipments	١٦.٥
أحواض بناء السفن المساعدة فى الحفر البحرى	٢١.٧
المواد Bulk moterial	١٢.٥
السفن الحاملة لمعدات الحفر البحري	٤١.٠
أجهزة الحفر البرية Land rigs	١٨.٢
الإشراف الهندسى والإدارى للمشروع	٢٣.٠
العمالة الفنية Construction labor	١٣.٠

الى ٦٢ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ والى ٧٤ مليون ب/ى، وهو ما يؤدى إلى ارتفاع سيطرة المجموعة خلال السنوات المذكورة من نحو ٥٦٪ إلى ٦٠٪ والى ٦٣٪ من القدرة العالمية لإنتاج السوائل النفطية.

هذه تقديرات هيئة أمريكية تميل فى توجهاتها إلى التفاؤل وتفترض - خلافا للكثير من الدراسات المتاحة - استمرار الوفرة النفطية وتدنى الأسعار خلال المستقبل المنظور. أما الواقع، وكما تعكسه الشحة النفطية التى أوضحنا أهم معالمها، فهو غير ذلك، وبخاصة إذا انتقلنا من جانب العرض والإمدادات إلى جانب الطلب والاستيراد.

فبالنسبة للدول الصناعية الغربية أعضاء OECD يتوقع أن يرتفع استهلاكها من السوائل النفطية (بنوعيها) خلال الفترة ٢٠٠٤-٢٠٣٠ من ٤٩ مليون ب/ى إلى نحو ٥٧ مليون ب/ى، بينما يبلغ إنتاجها المحلى منه ٢٢.٥ مليون ب/ى عام ٢٠٠٤ ولا يتجاوز هذا الحد بحلول ٢٠٣٠. وبذلك يرتفع العجز فى احتياجاتها النفطية خلال تلك الفترة من نحو ٢٦ مليون ب/ى إلى ٣٥ مليون ب/ى، وهو ما يرفع بالتبعية درجة اعتمادها على الاستيراد من ٥٣٪ إلى ٦١٪ خلال الفترة المذكورة.

وفى داخل المجموعة الغربية، تشتد صعوبة موقف الولايات المتحدة التى انفردت عام ٢٠٠٦ باستهلاك ٢٠.٦ مليون ب/ى من السوائل النفطية وهو ما يعادل ٢٥٪ من الإنتاج العالمى كما انفردت بواردات صافية ١٢.٣ مليون ب/ى وهو ما يعادل ٢٤٪ من إجمالى واردات العالم من تلك السوائل التى بلغت ٥٢.٦ مليون ب/ى، وفقا لتقديرات البريطانية للبترول BP Statistical Review of World Energy-June 2007. وإذ يتوقع أن يبلغ استهلاك الولايات المتحدة من السوائل النفطية بحلول ٢٠٣٠ نحو ٢٦.٦ مليون ب/ى ولا يتجاوز إنتاجها المحلى نحو ٩.٧ مليون ب/ى، فان العجز الصافى فى احتياجاتها النفطية يمكن أن يرتفع خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٣٠ من نحو ١٢ إلى ١٧ مليون ب/ى ويرتفع معه اعتمادها على الاستيراد من ٦٠٪ إلى ٦٤٪ وفقا لتقديرات EIA المتفائلة.

أما تقديرات وكالة الطاقة الدولية IEA: World Energy Outlook-٢٠٠٦ - وهى أقل تفاؤلا وأكثر واقعية من توقعات EIA - فتشير إلى ازدياد الاعتماد العالمى على استيراد السوائل النفطية عبر المستقبل المنظور، وهو ما يوضحه الجدول الخاص بأهم الدول المستوردة للسوائل النفطية (الوحدة = الواردات



النفطية كنسبة مئوية من الاستهلاك المحلى):

وهنا يمكن ملاحظة التفاوت بين توقعات هيئة EIA وتقديرات وكالة الطاقة الدولية IEA فيما يخص درجة اعتماد الولايات المتحدة على الاستيراد بحلول عام ٢٠٣٠، إذ تقدره الهيئة بنحو ٦٤٪ بينما تقدره الوكالة بنحو ٧٤٪. وهكذا الحال بالنسبة لباقى المفردات التى ورد ذكرها.

أما فى جانب الصادرات النفطية، وعلى الرغم من التفاوت الكبير بين تقديرات كل من الهيئة والوكالة والشركة البريطانية، مما لا يتسع المجال لتناوله، إلا أن ما يستخلص من الدراسات المتاحة يشير إلى أن سيطرة أوبك ستظل قوية، إذ يتوقع أن تحافظ على نصيب يقارب ٦٠٪ من الصادرات العالمية للنفط خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٣٠، وذلك رغم ارتفاع حجم تلك الصادرات من نحو ٥٣ مليون ب/ى إلى ٧٧ مليون ب/ى خلال الفترة المذكورة.

وإذ يتوقع أن لا يقل نصيب أوبك وروسيا ودول بحر قزوين الأربع عن ثلاثة أرباع الصادرات العالمية من السوائل النفطية، فإن المنطق الاقتصادى السليم بالإضافة لاشتراك المصالح لابد أن يؤدى إلى الاتفاق على وضع وتنفيذ سياسة رشيدة لتحديد المعروض من السوائل النفطية فى الأسواق، حفاظا على قيمتها الحقيقية من التآكل وهى فى طريقها إلى النضوب النهائى. بل إن مصلحة المجتمع الإنسانى تقتضى عدم إهدار تلك الثروة الناضبة بحرقها كوقود وأن تدخر لما هو أنبل استخداما Noble uses باعتبارها أهم المواد الخام فى صناعة البتروكيماويات التى تضيف كقيمة مضافة نحو ٢٦٠٠ دولار إذا تم تصنيع برميل من النفط كمنتجات بتروكيماوية نهائية قابلة للاستهلاك، بينما لا تتجاوز تلك القيمة عند استخدامها كوقود بضعة دولارات.

فى ضوء ما تقدم، يمكن الآن فهم الأسباب غير المعلنة صراحة لمحاولات الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، فرض الحراسة والوصاية - طوعا أو غصبا - على نفط الخليج العربى الذى يضم ثلثى احتياطيات النفط العالمية ويتوقع أن لا تقل مساهمته عن ٣٥٪ من الاحتياجات العالمية للنفط بحلول ٢٠٣٠، أو ما يقرب من نصف الصادرات النفطية العالمية فى العام المذكور.

ولا تقتصر لهفة الدول الغربية، بقيادة الولايات المتحدة، لتأمين احتياجاتها النفطية على استخدام

جدول يوضح تقديرات هيئة EIA لإنتاج السوائل النفطية بنوعيها عبر الفترة ١٩٩٠ ـ ٢٠٣٠
(الوحدة = مليون برميل يوميا)

القدرة الانتاجية للسوائل النفطية	١٩٩٠		٢٠٠٥		٢٠٢٠		٢٠٣٠	
	كمية	٪	كمية	٪	كمية	٪	كمية	٪
نفط تقليدى								
أوبك	٢٤.٩	٣٨	٣٤.٧	٤٢	٤٤.٨	٤٦	٥٤.١	٥٠
باقى العالم	٤٠.٨	٦٢	٤٧.٢	٥٨	٥١.٧	٥٤	٥٣.١	٥٠
جملة النفط التقليدى	٦٥.٧	١٠٠	٨١.٩	١٠٠	٩٦.٥	١٠٠	١٠٧.٢	١٠٠
الخليج العربى (أوبك أو غير أوبك)	٢٥		٢٩		٣٠		٣٥	
نفط غير تقليدى								
أوبك	٠٠		٠,٦		١,٩		٢,٧	
باقى العالم	٠,٦		٠.٨		٥.٤		٧.٨	
جملة النفط غير التقليدى	٠.٦		٢.٤		٧.٣		١٠.٥	
جملة السوائل النفطية (تقليدية وغير تقليدية)								
إجمالى العالم	٦٦.٣	١٠٠	٨٤.٣	١٠٠	١٠٣.٨	١٠٠	١١٧.٧	١٠٠

الأساليب التجارية المعتادة ومعاملة أصحاب النفط معاملة الشريك التجارى كما تتعامل هى فيما بينها، بل ذهبت فى محاولة تحقيق أهدافها إلى حد احتلال دولة ذات سيادة، وهى العراق، والتهديد بضرب إيران بحجة سعيها لامتلاك إمكانيات تخصيب الوقود النووى، وأخيرا إقامة منصات نووية فى دول شرق أوروبا مع توجيه صواريخها نحو المنطقة بحجة مكافحة الإرهاب. هذا، بالإضافة إلى زرع واستخدام إسرائيل منذ ١٩٤٨ كشوكة فى ظهر العرب لتشتيت جهودهم وصرف أذهانهم عن المطالبة بحقوقهم المشروعة فى إدارة ثروتهم النفطية إدارة مستقلة ومتحررة من الضغط الغربى.

وقد اقترن بهذا الاتجاه العدوانى للولايات المتحدة مسارعة عدد من الدول الصناعية الغربية المستوردة للنفط بتقديم الدعم للعسكرى فى احتلال العراق والتشدد فى فرض العقوبات على إيران، طمعا فى نصيب من نفط الخليج عندما تشح الإمدادات العالمية وتقوم الولايات المتحدة، باعتبارها الراعى الأكبر للذئاب الغربية، بتوزيع الغنائم النفطية. ومن الغريب أن اليابان، التى حرمت من تشكيل قوات عسكرية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية، قد سمح لها ولم تتردد فى المساهمة بإرسال قوات عسكرية إلى العراق، ولعل دافعها أنها تعتمد اعتمادا كاملا على استيراد السوائل النفطية. أما الصين التى وقفت من احتلال العراق موقف المعارض فإنها لا تتوقع أن يصيبها شىء من الغنيمة النفطية التى يحلم الراعى الأكبر بالفوز بها وتوزيعها وفق مصالحه، فيمنح من سانده ويحرم من تتعارض معه مصالحه.

ولكى تترجم لهفة الدول الغربية، بقيادة الولايات المتحدة، على تأمين احتياجاتها المستقبلية من نفط أوبك عموما، ونفط الخليج العربى خاصة، تدعو تلك الدول لتوسيع القدرة الإنتاجية لدول أوبك ورفع ما يعرف بمعدل النضوب

جدول القدرة الانتاجية لأهم الدول المصدرة للسوائل النفطية

القدرة الانتاجية للسوائل النفطية	٢٠٠٥		٢٠٢٠		٢٠٣٠	
	كمية	٪	كمية	٪	كمية	٪
أوبك (نفط تقليدى)	٣٤.٧		٤٤.٨	٤٦	٥٤.١	
أوبك (نفط غير تقليدى)	٠.٦		١.٩		٢.٧	
أوبك	٣٥.٣	٤١.٩	٤٦.٧	٤٥.٠	٥٦,٨	٤٨.٣
روسيا	٩.٥	١١.٣	١٠.٧	١٠.٣	١١.٥	٩.٨
دول بحر قزوين	٢.١	٢.٥	٤.٨	٤.٦	٥.٧	٤.٨
القدرة الإنتاجية للدول الـ ١٧	٤٦.٩	٥٥.٦	٦٢.٢	٦٠.٠	٧٤.٠	٦٢.٩
إجمالى العالم	٨٤.٣	١٠٠	١٠٣.٨	١٠٠	١١٧.٧	١٠٠

فيها Outtake من ٢٪ وهو مستواه الحالى إلى ٤٪ أو اكثر. وتوضيحا لمعدل النضوب، وهو مقياس نسبى لحجم الإنتاج السنوى مقسوما على حجم الاحتياطيات التى تم اكتشافها وتنميتها Developed reserves ينبغى الرجوع إلى ما سبق شرحه حول تقدير الاحتياطيات النفطية والتى يشوبها قدر كبير من التفاوت. كذلك تجدر الإشارة إلى أن المعايير المعتمدة لدى هيئة السوق المالية الأمريكية Securities and Exchange Commission (SEC) تميل للتقدير المتحفظ وذلك لحرصها على حماية المستثمر فى أسهم وسندات شركات النفط، ومن ثم تلزم الشركات بعدم المبالغة فى تقدير ما تمتلكه من الاحتياطيات النفطية والتى ينعكس أثرها بالضرورة فى ارتفاع أسعار الأسهم والسندات التى تصدرها وتتداول فى الأسواق المالية. ويأتى هذا الالتزام على خلفية الشكوك التى تحيط عادة بتقدير الاحتياطيات النفطية فى الدول المنتجة حيث تميل الشركات العاملة فيها للمبالغة فى تقديرها لأسباب أبسطها رفع قيمة أسهمها المتداولة فى الأسواق العالمية، وأخطرها طمأنة الدولة المنتجة أن لديها ما يكفى من تلك الاحتياطيات لمواجهة احتياجات الأجيال المقبلة (مصر كمثال)، ثم تسارع فى الإنتاج بمعدلات مرتفعة لكى تحصل على نصيبها فى أقل وقت وتغادر إلى موقع جديد مع الاعتذار أن تقديرها السابق أصابه الخطأ، وجل من لا يسهو!!

وبصرف النظر عن حقيقة تقديرات الاحتياطيات النفطية، فإن الدعوة الغربية لرفع معدل النضوب فى دول أوبك من ٢٪ سنويا فى المتوسط إلى ٤٪ من شأنه أن يقصف عمر تلك الاحتياطيات إلى النصف بحيث تنضب فى ٢٥ عاما بدلا من خمسين عاما. وبذلك تؤمن الدول الغربية احتياجاتها النفطية عبر الفترة التى تحتاجها للتوصل إلى بدائل للطاقة تغنيها عن النفط. وعندها سيكون النفط قد غادرنا إلى الأبد لأنه لا يتجدد مهما طال الزمن. أما رفع معدل النضوب إلى ٧٪، وهو ما يعتبره بعض المحللين حده الأقصى فى دول أوبك، على تفاوت بين الدول، فإن معناه فناء احتياطيات أوبك فى ١٤ عاما، أى بحلول ٢٠٢٠ وهو الإطار الزمنى الذى يختلف المحللون حوله فيما يتعلق بإمكانية استمرار التوازن العالمى بين العرض والطلب.

ومن هنا يمكن فهم ما عبر عنه صراحة الرئيس بوش فى حديث له خلال أكتوبر ٢٠٠٦ بتحذير الشعب الأمريكى من خطورة



أنا لها

مذكرات عريان يوسف سعد

إن البلاد قادمة على خطر محدق. هذا قبطى يرأس الوزارة والشعب ثائر والتلغرافات تنهال كل يوم على رياسة الوزارة تطالب باستقالتها، والمظاهرات تنقطع تهتف بسقوطها. إذا دبر فرع من الفروع عليه وقعت الواقعة وقيل إن المسلمين اعتدوا على رئيس الوزارة لأنه قبطى. ولكن لو أننى أنا أيضًا اعتديت عليه، وتمكنت من الهرب لما قيل غير ذلك، إذ لا يقوم دليل على أن المعتدى قبطى. إذن لابد من أن أُسلم نفسى بعد الاعتداء، حتى يعلم العالم أن المعتدى ليس من المسلمين.ولقيت صديقى ففاتحته فى الأمر وعرضت عليه حديث نفسى، فقال: أمهلنى حتى الغد. وجاء فى غده يحدثنى عن خطورة الأمر، وكيف أن الموت فيه أمر محقق: إما فى أثناء الحادث على يد الحرس، وإما بحكم الإعدام الذى لا شك فيه.

قال: تدبر الأمر وفكر فيه إلى غد.

قلت: ما أنا بحاجة إلى تدبر وتفكير، فقد حزمت أمرى.

قال صاحبى: أما لك فى الدنيا مأرب تبغى الحياة لتحقيقه؟

قلت: بلى لى مأرب فى أن أموت فى سبيل الحياة.. حياة الوطن. وأنا ميت على كل حال إن لم أمت اليوم فى شرخ الشباب فأنا ميت حين تدركنى الشيخوخة.



الانسحاب من العراق وما يؤدى إليه من تهديد لاحتياجات الولايات المتحدة من النفط. وقد أعاد بوش تأكيده، حتى بعد هزيمة حزبه الجمهورى أمام الديموقراطيين فى انتخابات نوفمبر ٢٠٠٦، بأن قواته العسكرية سوف تبقى فى الخليج لفترة طويلة، كما أصر فى حديثه عن حالة الاتحاد يوم ٢٣ يناير ٢٠٠٧ على إرسال قوات عسكرية إضافية إلى العراق وذلك فى عناد صارخ ضد جميع القوى المعارضة، سواء من الأغلبية البرلمانية فى مجلسى الشيوخ والنواب، أم فيما انتهى إليه تقرير بيكر-هاملتون من توصيات، أم المظاهرات الشعبية التى تطوف الولايات المتحدة منادية بالانسحاب من العراق.

بقيت كلمة أخيرة عن الدور الإسرائيلى الذى استخدمه الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، لفرض السيطرة على نفط العرب عبر ما يقرب من نصف قرن. وإذا كانت أوبك قد استردت حقها المشروع فى إنتاج وتسعير النفط بكسر تلك الشوكة فى أكتوبر ١٩٧٣، إلا أن تلك الفترة لم تدم لأكثر من عشر سنوات، إذ عادت الدول الصناعية الغربية، بقيادة الولايات المتحدة، تنظم صفوفها لإجهاض الانتصار العربى، فاستخدمت حزمة من السياسات كان من بينها إعادة تسليح إسرائيل وتزويدها بسلاح نووى لتنشيط دورها كشوكة فى ظهر العرب وتفتيت قدرتهم على حماية الحقوق المشروعة التى اكتسبوها فى ظل حرب أكتوبر.

بذلك أخذت أسعار البترول فى التآكل منذ مطلع الثمانينيات، ثم انهارت (معبرا عنها بدولارات ثابتة القيمة عند ١٩٧٣) من نحو ١٥ دولارا خلال النصف الأول من عقد الثمانينيات إلى أقل من ٥ خمسة دولارات خلال الفترة ١٩٨٦-٢٠٠٣، وهو ما يعادل ثلث ما تحقق فى ظل انتصار أكتوبر والثورة الإيرانية. وكان من نتائج انهيار الأسعار تقلص عائدات دول أوبك التى يمثل العرب ثلاثة أرباعها (بدولار ثابت القيمة عند ١٩٧٣) من ١١٨ مليارًا عام ١٩٨٠ إلى نحو ٢٩ مليارًا سنويا فى المتوسط خلال النصف الثانى من الثمانينيات، وإلى نحو ٤٠ مليار دولار سنويا فى المتوسط على امتداد التسعينيات وحتى مطلع عام ٢٠٠٤ عندما بدأت آليات السوق، رغما عن إرادة المنتج والمستهلك، تصحح الأسعار التى تدنت إلى قاع لا تحتمله تلك الآليات.

هكذا، وبحسبة بسيطة، يمكن أن نتبين أن المكاسب التى حققتها الدول المستوردة للبترول (وأهمها المجموعة الغربية بقيادة الولايات المتحدة) وخسرتها دول أوبك خلال الفترة ١٩٨٦-٢٠٠٣ لا تقل عن ١٥٠٠ مليار دولار ثابت القيمة (عند قيمته عام ١٩٧٣) وهو ما يعادل بالقيمة الحالية للدولار نحو ٧٥٠٠ مليار دولار (أى ٧.٥ تريليون دولار). ■

هوامش:

١ . ينظر فى موضوع الاستثمارات النفطية دراستنا الموسعة فى التقرير السنوى المعنون «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية ٢٠٠٥»، مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية، دار الأهرام المصرية، مارس ٢٠٠٥.

٢ . تتفاوت تقديرات الإنتاج تبعا لاختلاف الجهة القائمة بالتقدير وتبعا لاختلاف المعايير والتصنيفات المستخدمة، ويرجع فى تفصيلات هذا الموضوع إلى كتابنا «مستقبل النفط العربى»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، يونيو ٢٠٠٦.

٣ - أهمها ٣.٦ مليون ب/ى لرمال القار Oil sands (بتيومين) و٢.٤ مليون ب/ى للنفط المستخلص من الفحم و١.٧ مليون ب/ى من النفط العضوى Biofuels الذى يستخلص من منتجات نباتية كقصب السكر والأذرة وهو ما يكشف ضآلة الآمال المعلقة على هذا الوقود. ثم يأتى بعد ذلك النفط عالى الكثافة (أغلبه فى فنزويلا- أوبك) والسوائل المستخلصة من الغاز (أهمها فى قطر-أوبك).

٤ . وهو العام الذى تحولت فيه الولايات المتحدة من مصدر للنفط إلى مستورد صاف له.

جدول أهم الدول المستوردة للسوائل النفطية

الدولة أو المنطقة	٢٠٠٤	٢٠١٥	٢٠٣٠
الدول الصناعية أعضاء	٥٦	٦٢	٦٥
الولايات المتحدة	٦٤	٦٩	٧٤
أوروبا	٥٨	٧٥	٨٠
اليابان	١٠٠	١٠٠	١٠٠
الصين	٤٦	٦٣	٧٧
الهند	٦٩	٧٧	٨٧

صورة العرب فى الأدب الفارسى الحديث

■■ هذا الكتاب، يُعد، على ما يبدو، الأول الذى يتعامل مع هذا الموضوع الملح، وربما أيضًا الأول الذى يبحث فى صورة العرب فى أدب جيرانهم.

المؤلفة الأمريكية المتخصصة فى الدراسات الإيرانية، قسمت مؤلفها إلى خمسة أجزاء:

المقدمة: تخصصها الكاتبة للحديث عن المؤلف والشخصيات التى تشكل أرضية بحثها، وكذلك موضوع (الأيْرَنَة)، أو: الشعور الذاتى الإيرانى الحديث بدءًا من القرن التاسع عشر.

الفصل الأول: كتابات الرجال، آراء الرجال: تتعامل الكاتبة مع صورة العرب فى مؤلفات خمسة أدباء ترى أنهم من أهم أدباء إيران هم محمد على جمال زاده، صادق هدايات، صادق جوباك، مهدى أخوان ساليس، ونادر نادربور. وقد لاحظت الكاتبة فى بعض مؤلفات هؤلاء الكتاب ميلاً كبيراً للتحقير من العرب، خصوصاً عند ربط الإسلام بالعروبة. هنا تصير معاداة العرب جزءاً من معاداة الإسلام، أو بالعكس. الإسلام بعين بعضهم «ردىء» لأنه عربى، أو العرب سيئون لأن الإسلام سيئ. وهى تجد فى كتابات محمد على جمال زاده مثل «الفارسية سكَر»، و«حدثَ ذات مرة»، و«كان أو لم يكن» أمثلة كثيرة تحاول الانتقاص من قدر العربى، ومن ذلك على سبيل المثال قوله «العربى» («البدوى؟») فى الصحراء يأكل الجراد، مثلما يشرب كلب أصفهان المياه المثلجة. محمد جمال زاده لا يهاجم الإسلام بل يخرجه من نبتته العربية ليجعل منه جزءاً متمماً للثقافة الفارسية.

أما الكاتب الفارسى الأكثر إثارة للجدل، صادق هدايت، فقد عنى بإيران المجوسية، وانتقد بشدة مؤسسات المذهب الشيعى فى العديد من كتاباته ومنها على سبيل المثال «السيدة علوية/ علوية خانم»، و«طلب المغفرة»، و«الكلب الضال». تظهر معاداة الإسلام، الذى يربطه فى نهاية المطاف بالعرب، فى «طلب المغفرة» حيث يصور مجموعة من زوار العتبات المقدسة بأنهم مجموعة من القتلة؛ فمنهم امرأة قتلت طفلين رضيعين من أطفال ضرتها، ومن ثم دست السم للأم، وأخرى قتلت أختها غير الشقيقة لتتزوج من زوجها.

الشاعر مهدى أخوان ساليس شأن زملائه، يحتقر العرب ويندب رحيل ثقافة فارس ماقبل الإسلام وعظمتها حيث يرى أن قدوم الإسلام، على يد العرب الفاتحين بالطبع «أنوارا كاذبة: قافلة من عشاق موتى فى مستنقع على حاجب المحراب المقدس، بل إن العرب شياطين، قوى الظلام والشر، رغم الفساد الأوربى فى أيامنا هذه والذى يلعب آلاف الخدع . . فإن قذارات العرب وعارهم أكثر بشاعة، والأكثر تدميراً هو هذا البلاء القديم . . .هذا الشيطان (العربى) قد غزا ولايزال، قتل ودمر ولايزال».

والأمثلة هذه تتكرر فى كتاب نادر نادربور الذى يربط على نحو وثيق بين معاداة العرب ومعاداة الإسلام إلى درجة رفضه للأخير. لذا فإنه يرى أن الفرس، فى الأيام الأخيرة من الحكم الساسانى أساءوا فهم الإسلام عندما عدوه خلاصاً من الاضطهاد الإمبراطورى . . لقد خدعوا عندما ظنوا أن الإسلام يمثل قيم المساواة والأخوة، ولذا فإنه يرفض مقولة «أنا إيرانى وروحى الإسلام». وآراؤه هذه نراها فى قصائده «إعلان الربيع»، و«قم»، و«شروق من الغرب»، و«هنا وهناك»، وغيرها.

هذا التحقير، ترى الكاتبة أنه مرتبط عند أولئك الكتاب بالبحث عن الذات الإيرانية حيث لم يتمكنوا من التعبير عن ذاتهم الإيرانية إلا عبر هذا الأسلوب العصبى.

على النقيض من كتابات الأدباء الإيرانيين، نرى أن الكاتبات الإيرانيات، حتى قبيل الثورة الإسلامية فى إيران، لم يعادين العرب على أى نحو، حتى عندما توافرت «الحبكة الأدبية» لذلك. وقد وصلت المؤلفة إلى هذه النتيجة من خلال متابعة أعمال كل من الشاعرة فروغ فرخ زاده، وطاهره سفرزاده والروائية سيمين دانش فسار.

الشاعرة والمخرجة السينمائية فروغ فرخ زاده، التى أتت من الطبقة الوسطى، المفترض أنها الأكثر تأهلاً واستعداداً لتقبل الأفكار العصبية، خصوصاً أن والدها كان فى الجيش الإمبراطورى واحتكت بالعرب بسبب عيشها فى إقليم خوزستان/ عربستان، خلت كتاباتها من أى معاداة للعرب. بل إنها تستخدم مفردات عربية فى بعض قصائدها ومن ذلك على سبيل المثال كلمة (شط) العربية بدلاً من (رود خانه). وإن انتقدت الشاعرة فروغ الإسلام، فإن ذلك كان يتم بوصفه مؤسسة إيرانية وليس «أجنبية» أو عربية. وقد وصلت الكاتبة إلى استنتاجاتها هذه من خلال قراءة مستفيضة لقصائدها ومنها «أشعر بالحزن على الحديقة»، و«عصيان»، و«الآيات الأرضية»، و«ولادة أخرى»، وغيرها.

الشاعرة طاهره سفر زاده التى درست وعاشت فترة فى الولايات المتحدة وكتبت قصائد بالإنجليزية أيضاً، كانت أكثر اهتماماً بالبحث عن الذات. وانجذابها تجاه الإسلام «ينبع من حبى للعدالة وكراهيتى للظلم والاستبداد والتسويات». لكن الشاعرة تربط همها الذاتى بالكونى فتهدى قصيدة «عبر ممر الصمت والعذاب» إلى الجيش الجمهورى الإيرلندى الذى كان يناضل عسكرياً لتوحيد إيرلندا الشمالية بالوطن الأم. وكثيراً ما تذكرت فلسطين فى قصائدها باللغة الفارسية وكذلك الجنود المصريين ضحايا عدوان عام (١٩٦٧). والكاتبة متأثرة بالإسلام إلى درجة استخدام صوره فى شعرها، وباللغة العربية «تبت يدا أبى لهب وتب»، وكذلك صوت الأذان، باللغة العربية «صوت الأذان الطاهر يسمع، صوت الأذان الطاهر من الأيدى المؤمنة لإنسان..». وهى، وعلى عكس غيرها من الأدباء الفرس، لم تنظر إلى سلمان الفارسى بتلك الصفة حيث تقول فى «رحلة سلمان»، «لم يكونوا عرباً، لم يكونوا فرساً، كانوا مواطنين فى مملكة الحق . . كانوا الحرية..». فالعرب، بنظرها، لم يكونوا غزاة، بل مسلمون جاءوا برسالة الحق.

والأمر ذاته ينطبق على سيمين دانش فشار التى تفادت نقد العرب على أى نحو، حتى عندما كانت تتحدث عن رحلاتها فى جنوبى البلاد حيث تقطن الأكثرية العربية.

فى العرض الثالث، فى الجزء الرابع من الكتاب، تحاول الكاتبة البحث عن موقف (رجل فى الوسط)، هو، فى ظنها، جلال آل أحمد (١٩٢٣-١٩٦٩) لأنه «حتى من دون إنجازاته الأدبية العديدة يبقى. . شخصية هامة وإشكالية . . بسبب افتراضه القائل إن الإسلام الشيعى الاثنى عشرى مركب لنواة ضرورية لمفهوم الإيْرَنة (Iraniness)، وذلك عبر مؤلفاته العديدة ومنها «خائف فى الحشود»، و«ابتلى بالغرب»، و«إفطار فى غير أوانه»، و«الزيارة»، و«الجمارك والمكوس» وغيرها. وفى المؤلفات هذه، جميعها تظهر معاداة العرب على نحو جلى حيث يظهر العربى بصفات (مخادع، جشع، غشاش) ولغة العرب «هذرمة».

ويمكن الاسترسال طويلاً فى عرض النعوت هذه وإيراد الأمثلة، لكن علينا الاختصار والقول إن أولئك الكتاب، الرجال، عندما أرادوا التعبير عن «إرينتهم/ Iraniness» لم يتمكنوا من عمل ذلك سوى بالتميز عن الآخر، اللصيق، وهو العروبة والإسلام، فهاجموا الطرفين ظناً منهم أن ذلك يمنحهم هوية خاصة قضى عليها قبل عشرات القرون.

وإن كان البعض يظن أن نشر هذا الكتاب بالعربية «فى هذا الوقت تحديداً» عمل ضار وقد يساهم فى التحريض المذهبى والقومى فى بلادنا، فإنه من الغلط التعامل مع المعارف العلمية على هذا النحو. من الضرورى للعرب معرفة ما يكتب عنهم، كقومية، حتى يتمكنوا من صياغة وعيهم لما يجرى حولهم، من دون مواربة أو نفاق. وسيكون من المفيد لو بادر الباحثون العرب إلى عمل أبحاث مشابهة، أى: صورة الغير فى الأدب العربى.

ويؤكد الناشر، (وهو فارسى الأصل من مدينة طهران) أن ظاهرة العداء للعرب بين أصحاب الرأى فى إيران، ظاهرة حديثة العهد، لم تتعد القرن الأخير، ويضيف: عندما نعود إلى باعث هذا العداء اللامعقول ضد السكان الأصليين من عربنا (عرب الأهواز) وكذلك ضد الشعوب العربية المجاورة التى تشاركنا فى الدين، وهو عهد الشاه رضا البهلوى، يتضح لنا أن جميع أهل القلم تقريباً يتفقون ويتناغمون، على الأقل فى موضوع معاداة العرب، مع رغبات الشاه رضا البهلوى.

ويتطرق الناشر إلى موقف المثقفين الذين يصفهم باللادينيين فى عهد الجمهورية الإسلامية تجاه العرب ويقول: إن اتساع دائرة العداء للعرب فى عهد السلطة الراهنة، كما نشاهد مظاهرها، هى تجسيد للاستياء السياسى، وفى الحقيقة إن المثقف اللادينى الحالى يريد أن يحمل مسئولية تخلفه الاجتماعى وعدم جدارته فى الساحة السياسية والأحداث التى شهدتها البلاد خلال القرن الأخير يحمل هذه المسئولية العرب الذين عاشوا قبل خمسة عشر قرناً كى يبعد نفسه وببساطة عن الأسئلة الوطنية المطروحة عليه!. ■

زياد منى

جويا بلندل سعد
صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث
ترجمة: صخر الحاج حسين
مراجعة: زياد منى

صورة العرب فى الأدب الفارسى الحديث
تأليف: جويا بلندل سعد
ترجمة: صخر الحاج حسين
إصدار: قدمس للنشر والتوزيع
٢٠٠٧ ، ٢٠٠صفحة

"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!

يســـرى القويضـــى

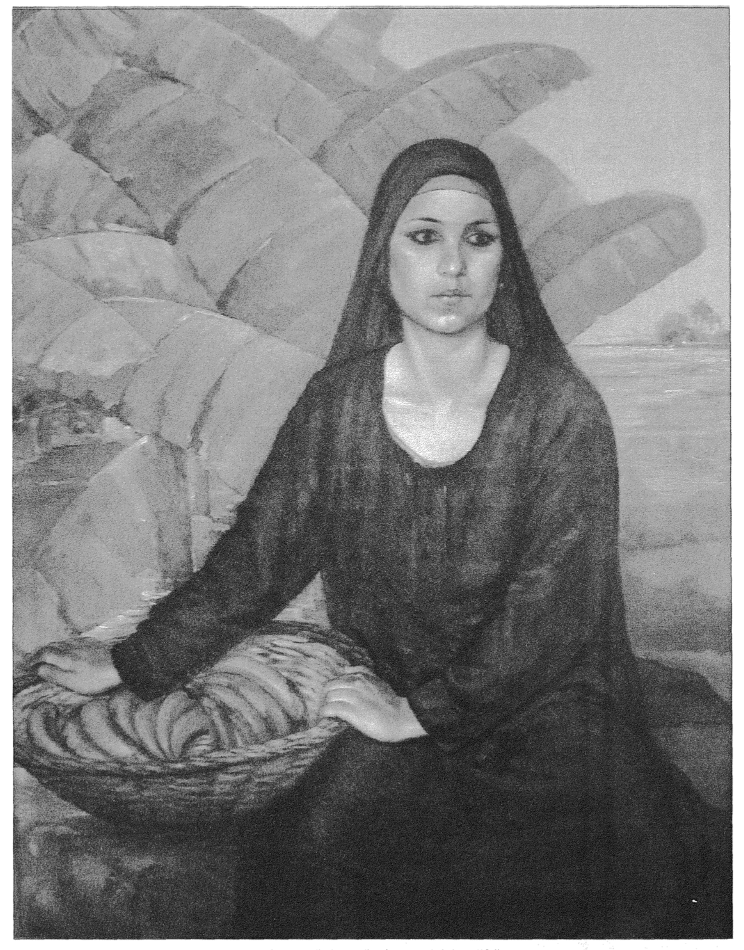


الحضارة فى مصر.. وتجلياتها الثقافية مثل جبل الثلج، جزء صغير منها يظهر على السطح والقسم الأكبر غائر وكامن فى الأعماق.. سواء كانت هذه الحضارة والثقافة على شكل آثار فرعونية قديمة أو غيرها، فهى تطل علينا بمفاجآتها من وقت إلى آخر لتذكّرنا بأن ما لدينا، وما نعرفه ليس كل شىء.. وهنا..

وفى مجال «الفنون الجميلة» نسلّط الضوء على جانب خفىّ ومجهول من الحركة الفنية التشكيلية وروادها.. فى كتاب نشره سفير فنان، وعلى نفقته الخاصة، ليقول لنا أن «الدنيا ما زالت بخير!!»

حلمى التونى





بائعة الموز - ٨٠×١٠٤سم - زيت على توال - مقتنيات السيدة سامية تادرس

الفنان فى مرسمه بدرب اللبانة واقفًا أمام حامل الرسم يصور موديلاً جالسة.

"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!



لبيب تادرس هو واحد من هؤلاء الفنانين الذين ينطبق عليهم وصف الناقد الفنان عز الدين نجيب «بالفنانين الذين ضاعوا فى كهف النسيان»





لبيب تادرس
أغنية لم تكتمل
(١٨٩٤ - ١٩٤٣)
يسرى القويضى
الناشر: المؤلف - القاهرة ٢٠٠٧

■■ ينتمى الفنان لبيب تادرس إلى رعيل الفنانين الأوائل الذين على أكتافهم تأسس التصوير المصرى الحديث.

ذلك الرعيل الذى ولد أعضاؤه فى فترة العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، وشبوا ونشطوا مع بدايات القرن العشرين.

ويمكن أن نميز فئتين من الفنانين داخل هذا الرعيل:

الفئة الأولى: الفنانون الهواة، وهم الفئة التى مارست الفن كهواية ولم يعتمدوا على الفن كمهنة، وإنما كانت لهم وظائف وأنشطة أخرى فى المجتمع يتكسبون منها. ولعشقهم الفن وحبهم له، اعتمدوا على أنفسهم فى الأساس لاكتساب مهارات الرسم والتلوين، وصقلوا تلك المهارات فى المراسم الخاصة للفنانين الأجانب سواء داخل مصر أو خارجها.

وبرز منهم كل من التالية أسماؤهم مرتبين حسب تاريخ ميلاد كل منهم، محمد ناجى (دبلوماسى) ١٨٨٨، ولبيب تادرس (موظف حكومى) ١٨٩٤، ومحمود سعيد (قاض) ١٨٩٧.

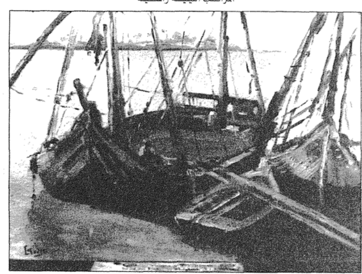
الفئة الثانية: الفنانون المحترفون الذين درسوا الفن أكاديمياً فى مدرسة الفنون الجميلة، وبعد التخرج منها أصبح تدريس الفن وممارسته هو عملهم ومصدر رزقهم فى الحياة، ومنهم كل من أحمد صبرى ١٨٩١، ومحمود مختار ١٨٩١، ويوسف كامل ١٨٩١، وراغب عياد ١٨٩٢، ومحمد حسن ١٨٩٢، وعثمان مرتضى دسوقى ١٨٩٦، ومحمود حسنى ١٨٩٩.

وبتضافر جهود هاتين المجموعتين (الهواة والمحترفين) تأسست فى مصر اللبنة الأولى للفن المصرى الحديث، وكان نشاط هؤلاء الفنانين وأعمالهم محل فخر وتقدير من أوساط الساسة والمثقفين، واعتبر مظهراً من مظاهر تأكيد الشخصية المستقلة لمصر الحديثة، وبخاصة فى خضم الفوران الشعبى فى ١٩١٩، وفى أعقاب إعلان مصر مملكة مستقلة عام ١٩٢٢.

كان إعلان قيام الدولة المصرية نقطة محورية فى تاريخنا الحديث. وتأكيداً على دورها كدولة مستقلة حرصت مصر على التواجد فى المحافل الدولية السياسية والاقتصادية، كما حرصت أيضاً على التواجد فى المحافل الثقافية، وفى هذا الإطار جاءت مشاركة مصر فى معرض باريس الدولى عام ١٩٣٧، والتى قام الفنانون المصريون بتصميم الجناح المصرى به، بالإضافة إلى مشاركتهم بأعمال فنية كانت موضع إعجاب وتقدير، وفاز الجناح المصرى بميدالية ذهبية، كما حصل الفنان محمد ناجى على شهادة شرفية، وحصل الفنان لبيب تادرس على ميدالية فضية.

وبعد نجاح المشاركة المصرية فى معرض باريس الدولى بعام، أقدمت مصر فى يونيو عام ١٩٣٨ على المشاركة لأول مرة فى بينالى فينيسيا الدولى فى دورته الحادية والعشرين.

واختيرت أعمال عدد من الفنانين المصريين المشهود لهم بالبراعة، لتمثيل مصر فى



المراكب النيلية راسية



سوق على ضفاف النيل - مقتنيات السيد/ محمود أبو الفتح (صاحب جريدة المصرى)



بورتريه سيدة مجتمع - ٤٠×٥٠ سم - زيت على قماش - مقتنيات السيد/ مفيد راغب حنين

"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!



ذاك البينالى، فجاءت المشاركة على النحو التالى:

أولاً: التصوير

أحمد عثمان	٣ دراسات ولوحة
أحمد صبرى	٤ لوحات
على كامل الديب	لوحة واحدة
حسين فوزى	لوحتان
لبيب تادرس	٣ لوحات
محمود سعيد	٩ لوحات
محمد ناجى	١٥ لوحة و١٤ رسمًا
راغب عياد	٣ لوحات
سعيد الصدر	لوحة واحدة
يوسف كامل	٣ لوحات

ثانيًا: الحفر

نحميا سعد	٤ لوحات حفر

ثالثًا: النحت والخزف

أحمد عثمان	قطعتان
داريا جمساريان	قطعتان
إبراهيم جابر	قطعة واحدة
محمود مختار	٤ قطع
منصور فرج منصور	قطعة واحدة
سعيد الصدر	قطعتان

رابعًا: حديد مطروق

وشاركت مدرسة الفنون التطبيقية بباب من الحديد المطروق.

ويلاحظ أنه إلى جانب مشاركة الفنان لبيب تادرس فى كل من معرض باريس الدولى عام ١٩٣٧ وكذلك فى بينالى فينيسيا عام ١٩٣٨، فقد قبلت لوحة له تمثل منظراً طبيعيًا للنيل اسمها «أمسية صيفية» Summer Evening للعرض بمعرض الجمعية الملكية البريطانية بلندن، والذى أقيم فى أغسطس ١٩٣٧، ولاقت عند عرضها قبولاً كبيراً.

كانت مشاركات الفنان لبيب تادرس الناجحة، وانخراطه فى الحركة الفنية المصرية بنشاط، تبشر بارتفاع نجمه فى مجال تصوير المناظر الطبيعية التى برع فيها، وبشكل يتفوق فيه على أقرانه من المحترفين، لكن القدر يقسو فى أحيان كثيرة، فقد توارى اسمه واختفى فجأة.

أدى اختفاء الفنان لبيب تادرس المفاجئ إلى سقوط اسمه من ذاكرة النقاد ومتابعى الحركة الفنية المصرية، وظل معروفًا فقط لهؤلاء الذين تعامل معهم من معاصريه الذين تابعوا نشاطه وأعماله، ولكن مرور السنين ووفاة من كانوا يعرفونه، وعدم توفر سجلات توثيق سيرته وأعماله، وكذلك لتبعثر إنتاجه الفنى - الذى لم يبق منه سوى القليل - لكل تلك الأسباب لم تتوفر معلومات كافية عنه.

إن لبيب تادرس هو واحد من هؤلاء الفنانين الذين ينطبق عليهم وصف الناقد الفنان عز الدين نجيب لهم «بالفنانين الذين ضاعوا فى كهف النسيان». وإذا صادفنا اسمه فى الكتب المعدودة التى أرخت للحركة الفنية المصرية الحديثة، فلن تجد سوى سطور قليلة اكتفت بالإشارة إليه باقتضاب بمثل ما ورد فى كتاب «٥٠ سنة من الفن» للكاتبين الناقدين وهما الصحفى كمال الملاخ والفنان رشدى إسكندر (طبعة ١٩٦٢).

وكذلك الحال عندما

جلسة استرخاء بمرسم الفنان بدرب اللبانة

منظر طبيعى ٤٠×٤٨سم ـ زيت على خشب ـ مقتنيات السيدة ناهد سعد حليم

بورتريه لبيب تادرس ٣٩×٢٨سم ـ زيت على خشب ـ مقتنيات/ نبيل رشدى حليم

ذات الضفائر ـ ٣٦×٣٤سم ـ زيت على قماش ـ مقتنيات/ سمير أمين تادرس



"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!



تتصفح موقع بنك المعلومات لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة على شبكة المعلومات الدولية، فلن تجد إلا إشارة عابرة، لا تسمن ولا تغنى، كما لا توجد حتى صورة شخصية للفنان، ولا أى عمل من أعماله. وفى مراجع أخرى لن تجد ذكراً له على الإطلاق، وكأنه لم يتواجد، كما حدث فى كتاب «التصوير الحديث فى مصر» للناقد إيميه آزار، الذى ربما تعمد عدم ذكره لأنه اعتبره من فئة المخلصين للقواعد الأكاديمية، المقلدين للأساليب الغربية، أو قد يرجع ذلك إلى عدم معرفة آزار بأعمال الفنان، إذ إن تادرس توفى فى عام ١٩٤٣، عندما كان آزار فى العاشرة من عمره.

فى صعيد مصر بمدينة طهطا بمديرية سوهاج عاش السيد تاوضروس موسى مع قرينته السيدة لطيفة الببلاوى - التى تمت بقرابة وثيقة بالسيد ويصا واصف باشا - راضين قانعين بحياة ليست مترفة ثرية، ولكنها كانت هادئة مريحة، كانت مثالاً لأسرة مصرية صميمة، مؤمنة، تحافظ على التقاليد، وتعيش فى وئام مع النفس ومع المجتمع.

بعد أن رزقت تلك العائلة بأولادها الذكور، حليم، وأمين، ونجيب، رزقت فى عام ١٨٩٤ بأصغر الأولاد، وأسماه والداه لبيب. وبعد ميلاده بفترة قصيرة، صفى الوالد متعلقاته بطهطا، وانتقل بأسرته إلى القاهرة، ليعمل موظفاً لدى إدارة محلات بنزيون، وأقام فى شقة كبيرة بالمنزل رقم ١١ بشارع قنطرة غمرة، بحى غمرة، لتنعم الأسرة بالحياة فى العاصمة التى تعج بالحركة والحياة، ولتتمتع فيها بآخر المستحدثات الواردة من أوروبا المتحضرة. إنها حياة مختلفة عن تلك التى كانوا سيعيشونها لو بقوا فى طهطا بصعيد مصر.

وتمشياً مع مناخ المدينة، وتسهيلاً لنطق اسم تاوضروس، وحتى يكون وقعه على الأذن موسيقياً سهلاً، فقد ارتضى رب العائلة تحويره ليصبح تادرس، وظل الاسم فى شكله الجديد لقباً للعائلة، يحمله الأحفاد وأولادهم، حتى يومنا هذا.

كبر لبيب وشب فى ذلك الحى، وكان وثيق الارتباط بأخيه نجيب الذى يقاربه فى السن، إذ يكبره بعامين فقط، كان يضع عنده سره، ويأتمنه عليه، وقد وضح ذلك من الخطابات القليلة المتبقية والمتبادلة بينهما.

حصل الشاب لبيب تادرس على الشهادة الابتدائية، وعندما بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً التحق بوظيفة فى وزارة الداخلية، وفى نفس الوقت تابع دراسته الثانوية، وحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩١٧، والأرجح أنه فكر لفترة من الزمن فى الالتحاق بالجامعة لدراسة الحقوق، إذ عثرنا ضمن أوراقه على جدول

محاضرات كلية الحقوق، لكن يبدو أنه صرف الفكرة عن ذهنه، واستمع إلى ما أملته عليه رغبته فى تعلم الرسم والتصوير، ويقول الفنان لبيب فى نبذة كتبها عن نفسه، إنه عقب إتمامه الدراسة الثانوية اهتم بالرسم، فالتحق فى عام ١٩١٨ بمدرسة الفنون الإيطالية (القسم الليلى) وحصل منها على دبلوم فى الرسم والحفر. ثم عكف على دراسة المناظر الطبيعية التى كانت أكثر الموضوعات قبولاً لديه، وكان رغم أعبائه الوظيفية يجد الوقت للخروج إلى الطبيعة حاملاً أدوات الرسم لينقل المناظر مباشرة.

دفع شغف لبيب تادرس ورغبته فى إتقان التصوير إلى الدراسة على يد الأستاذ كاميللو انوشنتى الإيطالى فى عام ١٩٢٥ ولمدة سنتين، وقد انعقدت خلالها صداقة بينهما، ظلت مستمرة حتى عام ١٩٤٠ عندما رحل الفنان الإيطالى عائداً إلى بلاده.



شارك لبيب تادرس، شأنه شأن شباب زمانه، فى مناصرة ثورة ١٩١٩، وسعى مع زملائه الفنانين لدعم النعرة الوطنية عن طريق محاولة وضع إطار مؤسسى للحركة الفنية المصرية، وفى ذلك السياق لبى الفنان لبيب تادرس الدعوة الأولى التى دعت إليها جماعة الإصلاح لإقامة معارض وطنية، وحضر الاجتماع الأول الذى عقد فى أوائل عام ١٩١٩ والذى استمر لعدة جلسات، انتهت إلى انسحاب معظم الحاضرين نتيجة انقسام الرأى حول الاقتراح الذى طرحه الفنان راغب عياد بتنظيم عرض يضم قسمين أحدهما للهواة والثانى للأساتذة المحترفين.

عقب فشل الاجتماع الأول، بذلت عدة جهود ومحاولات لإقامة عروض مصرية، ومنها إنشاء الجمعية المصرية للفنون الجميلة التى تكونت فى مارس ١٩١٩ وأقامت معرضين أحدهما فى عام ١٩١٩ والثانى فى عام ١٩٢٠. كما أنشأ السيد فؤاد عبدالملك - وهو من كبار مشجعى الفن ومحبيه - داراً للفنون والصنائع المصرية، و أقام عدة معارض لأعمال الفنانين المصريين.

استقر الأمر فى النهاية على إنشاء جمعية محبى الفنون الجميلة عام ١٩٢٢ والمستمر وجودها منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وهى بذلك تعد أقدم الجمعيات المصرية التى تعنى بالإبداع الفنى، ودأبت منذ إنشائها على إقامة معارض سنوية.




فى وسط تلك التطورات والشد والجذب بين المحترفين والهواة، كان لبيب تادرس محسوباً على قائمة الهواة، لكنه فى حقيقة الأمر لم يكن هاوياً عادياً، لقد كانت لوحاته أفضل من لوحات الكثير ممن يعتبرون أنفسهم من المحترفين، وبدأبه وجهده رسخ أقدامه، وأثبت نفسه واندمج مع زمرة الفنانين المشهود لهم بالكفاءة، وحول ذلك الموضوع يذكر أحد أصدقائه الآتى:

«عندما انفرط عقد الهواة الذين ظهروا فى أول معرض عام ١٩١٩، لأن غالبيتهم لم يستطع أن يلحق بالمحترفين فى اتجاههم إلى الفن الحقيقى، بقى منهم فقط لبيب تادرس يحدوه أمل فلحق بالأساتذة، وقبلت أعماله لأول مرة فى معرض الربيع الذى أقيم عام ١٩٢٣».

واظب لبيب تادرس على المشاركة فى معارض جمعية محبى الفنون الجميلة منذ أول معارضها عام ١٩٢٣ وحتى وافته المنية فى عام ١٩٤٣، وطبقاً لما يذكره الفنان لبيب تادرس فى النبذة التى كتبها عن نفسه أشار إلى أن وزارة المعارف اقتنت ثمانى لوحات من أعماله، ضمت بعضها إلى متحف الفن الحديث، كما اشترت وزارة الخارجية المصرية فى عام ١٩٣٧ إحدى لوحاته وحفظت بالسفارة المصرية بمدينة استكهولم بناء على إرشاد الفنان محمود بك سعيد وموافقة المسيو جورج ريمون مراقب الفنون الجميلة فى ذلك الوقت. ■



عتاد الاغتيال

مذكرات عريان يوسف سعد

ذهبت إلى صاحبى فى الصباح فى منزله، وإذا به يقدم لى مسدسين وقنبلة من قنابل الجيش البريطانى اليدوية (ملز) وهى صغيرة، كالكمثراة الصغيرة.

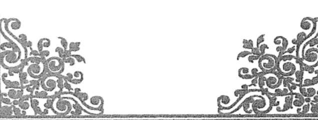
كدت أطير من الفرح حين خلوت بصاحبى، ورأيت أنه حقًا متصل باليد السوداء وأنها ليست كما خفت أن تكون غولاً لا وجود له.

قلت له بعد أن أطلعنى على طريقة استعمال القنبلة: أليس لدى الجماعة نوع يصنع محليًا أشد فتكًا من هذه؟

قال: هناك نوع آخر ولكنه أخطر على حامله، فهذه حتى لو سقطت على الأرض لا تنفجر مادام الحائل بين المفرقعات والكبسولة فى مكانه، وهو لا ينزع إلا عند الاستعمال. أما النوع الآخر، فإنه إذا انقلب أو حتى إذا مال ميلاً شديداً انفجر بعد خمس ثوان، ولذلك فإن حامل القنبلة عرضة للنسف إن زلت قدمه أو أساء وضعها.

قلت: إن الأمر لا يحتمل التفكير فى السلامة، وهى مجازفة محققة النهاية، فلا بأس فى أن تبدأ مبكرة قليلاً.. لا بأس فى أن تبدأ المجازفة من وقت حمل القنبلة بدل أن تبدأ وقت إلقائها! لم يبق إلا أن نعرف منزل رئيس الوزارة، ومواعيد خروجه وعودته والطريق التى يسير فيها ركبه.

وجاء صاحبى بالعنوان. إنه يسكن فيلا فى شارع شواربى المتفرع من شارع قصر النيل، وإنه يخرج الساعة التاسعة، وإن السيارة تسير من شارع شواربى إلى قصر النيل إلى ميدان سليمان باشا، فشارع سليمان باشا فميدان قصر النيل (الخديو إسماعيل) فشارع قصر العينى فشارع الشيخ يوسف (مجلس النواب) فرياسة الوزارة فى لاظ أوغلى.



السُلطة والقضَاء!

حسن محمد هند

ليس خافيا على الجميع ما حدث سنة ١٩٦٩ حين صدرت قرارات رئيس الجمهورية بفصل عدد كبير من القضاة وتحويل البعض منهم لوظائف إدارية نتيجة موقف نادى القضاة الذى أصدر بيانا رفض فيه اشتغال القضاة بالسياسة



■■ يؤسس الفقه لمفهوم الدولة فى الإطار الدولى حيث تتكون من شعب وإقليم وسلطة سياسية وهذه هى الشروط اللازمة للاعتراف بها على المستوى الدولى[1] ويميل عدد كبير منه إلى الأخذ بالرأى الذى يعترف بأن الدول والأفراد والمنظمات الدولية والهيئات الأخرى التى ليست لها هذه الصفة كالاتحادات الدولية والأقاليم الدولية وغيرها هى من أشخاص القانون الدولى[2].

بيد أنه على الصعيد الداخلى فإن الدولة تؤسس على سلطات ثلاث هى السلطة التشريعية التى تتولى مهمة التشريع، والسلطة التنفيذية التى تقوم على إدارة الدولة، والسلطة القضائية التى تتولى الفصل فى المنازعات بين الأفراد أو بينهم، والحكومة حين تمارس سلطة إدارة لا سلطة حكم، وبالنظر إلى تنظيم السلطة القضائية الوارد فى دستور سنة ١٩٧١ نجد أنه ورد . فى الفصل الرابع فى المواد من ١٦٥إلى ١٧٣بعنوان «السلطة القضائية». استقلال السلطة القضائية فى مجموعها وفى المادة ١٦٦ على استقلال القضاة وفى المادة ١٦٧ على تحديد الهيئات القضائية واختصاصها وفى المادة ١٦٨ على ضمان عدم قابليتهم للعزل وفى المادة ١٧٢ على أن مجلس الدولة هيئة قضائية مستقلة تختص بسائر المنازعات الإدارية، وقد صدرت القوانين رقم ٤٦ لسنة ١٩٧٢ بتنظيم السلطة القضائية والقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ بتنظيم مجلس الدولة والقانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٧٩ بتنظيم المحكمة الدستورية العليا، وبتعديل الدستور سنة ١٩٨٠ استحدث سلطة دستورية جديدة هى سلطة الصحافة ووردت فى المواد ٢٠٦، ٢١١ من الدستور، وقد تبنت دساتير مصر المتواترة منذ دستور سنة ١٩٢٣ حتى دستور سنة ١٩٧١ منهج الفصل بين السلطات. لذا ينبغى إلقاء الضوء على علاقة السلطة القضائية بالسلطة التنفيذية؛ إذ لم تأخذ مصر بما تطبقه بعض الدول من انتخاب أعضاء السلطة القضائية بل جرت تقاليدها حتى قبل دستور سنة ١٩٢٣ على أن تتولى السلطة التنفيذية تعيين رجال القضاء بمختلف مستوياتهم ولكن المُشرِّع قد دعم استقلال جهات القضاء المتعددة فى مجالات التعيين والترقية والتأديب، وقد تقرر ذلك فى القوانين الأساسية المنظمة لجهات القضاء[3].

وقد تناول كثير من القضاة أزمة الديمقراطية وتدخل السلطة التنفيذية فى السلطة القضائية ومنهم المرحوم د. فاروق عبد البر[4]. وبدأ هذا الاتجاه منذ إنشاء مجلس الدولة بالقانون رقم ١١٢ لسنة ١٩٤٦ الذى أنشئ باقتراح من السلطة التنفيذية؛ إلا أن ذلك لم يغير الشعور العدائى لهذه السلطة حياله، وظهر ذلك فى علاقتها به، وتكشف تقارير المجلس عن أعماله المنشورة فى مجلة مجلس الدولة، عن توتر مستمر فى العلاقات بينهما منذ إنشائه. وقد ازداد التوتر بين مجلس الدولة وبين الحكومة فبعد وصول حزب الوفد إلى الحكم فى يناير سنة ١٩٥٠ طلب أحد الوزراء باسم حكومة الوفد من السنهورى التنحى عن رئاسة مجلس الدولة بدعوى أنه كان ينتمى إلى أحد الأحزاب السياسية، فلما اجتمعت الجمعية العمومية لمستشارى مجلس الدولة وشجبت هذا الطلب خرج أحد وزراء الحكومة الوفدية لينشر فى الصحف أحاديث تمس شخص رئيس المجلس[5].

وبقيت حكومة الوفد على خصومتها للمجلس، فقد أجرت تعديلين على قانون المجلس صدر بهما القانون رقم ٦ لسنة ١٩٥٢ : جعل أولهما الاختصاص بنظر وقف تنفيذ القرار الإدارى المطعون فيه لمحكمة القضاء الإدارى بعد أن كان لرئيس مجلس الدولة وحده. وقد عزا السنهورى هذا التعديل إلى الأحكام التى أصدرها بوقف تنفيذ قرارات خاصة بالبورصة وما كان يقع فيها من تلاعب وعبث واستهتار، وبحرية الصحافة وما كان يقع عليها من اعتداء سافر. أما التعديل الثانى فصدر بهدف تمكين وزير العدل من الإشراف على المجلس ومستشاريه وموظفيه الفنيين[6].

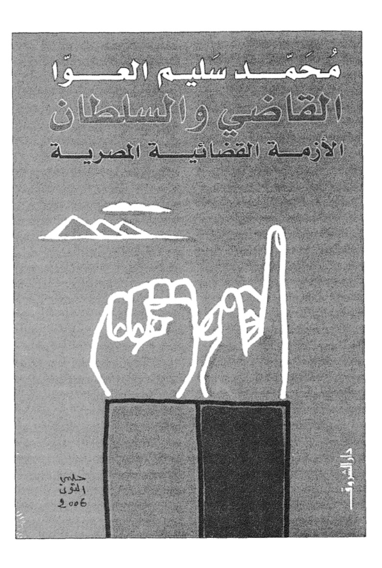
وجاءت ثورة ١٩٥٢ يوليو «ومع تقديرى الشخصى لثورة ٢٣يوليو ولشخص جمال عبد الناصر» وما جاءت به من آمال وأحلام عظام بيد أنه وقع صدام عظيم بين الثورة والسنهورى إذ إنه فى مساء ٢٧مارس ١٩٥٤ حاول الملك سعود إصلاح ذات البين بين الرئيس محمد نجيب وجمال عبد الناصر، فطلب من نجيب الحضور إلى قصر الطاهرة فحضر واستدعى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والدكتور السنهورى فحضروا جميعا وكان موقف الدكتور السنهورى أثناء هذا الاجتماع واضحا فى معاداته لأساليب العنف وافتعال المظاهرات. وقد رسخ فى أذهان رجال الحركة بزعامة عبد الناصر بأن السنهورى يقف فى صف نجيب، ويريد أن يصفى الثورة ويصبح رئيسا لمجلس الوزراء متحالفا مع الإخوان بعد أن رشح من قبل مصادر شتى لتولى رئاسة الوزارة المدنية التى كان مقررا لها أن تتولى السلطة فى الفترة التى بقيت على انتخابات الجمعية التأسيسية طبقا لتنظيم مقترح من جانب سليمان حافظ والدكتور العمرى وافق عليه عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ثم نجيب فى ٢٢مارس ١٩٥٤ .... وإذا كان الأمر كذلك فقد قرروا التخلص منه ومن نجيب على السواء. ولعل هذا هو سر توافق الاعتداء على محمد نجيب والسنهورى من حيث التدبير والتوقيت والتنفيذ. ففى مساء ٢٩مارس ١٩٥٤ هوجم محمد نجيب فى مقر مجلس الوزراء وفى ذات اليوم هوجم السنهورى فى مجلس الدولة، وكان المتظاهرون على وشك الفتك به لولا أن تلقى عنه الضربات بعض معاونيه[7].

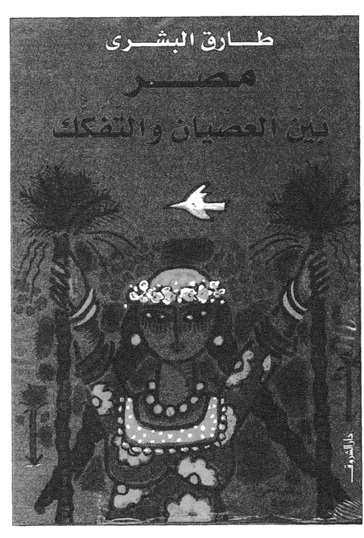
وليس خافيا على الجميع ما حدث سنة ١٩٦٩ حين صدرت قرارات رئيس الجمهورية بفصل عدد كبير من القضاة وتحويل البعض منهم لوظائف إدارية نتيجة موقف نادى القضاة الذى أصدر بيانا رفض فيه اشتغال القضاة بالسياسة، وقد أطلق عليه بيان ٢٨مارس وضمنوه ضرورة: تأمين الحرية الفردية لكل مواطن فى الرأى والكلمة والاجتماع......... وأن ذلك لا يكون إلا بتأكيد مبدأ الشرعية الذى يعنى فى المقام الأول كفالة الحريات للمواطنين كافة.

وفى ضوء نص المادة ٨٨ من الدستور الحالى الصادر سنة ١٩٧١قبل تعديلها فى مارس ٢٠٠٧ التى كانت توجب الإشراف القضائى على الانتخابات صدر حكم المحكمة الدستورية العليا فى القضية رقم ١١لسنة ١٣ ق بجلسة ٢٠٠٠/٧/٨ مقررا أن الإشراف القضائى يجب أن يكون حقيقيا وقرر قاعدة قاض لكل صندوق انتخابى. وقد أفرزت انتخابات سنة ٢٠٠٠وسنة ٢٠٠٥ عن ظهور أغلبية

- القاضى والسلطان
  الأزمة القضائية المصرية
  محمد سليم العوا
  القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٦
- مصر بين العصيان والتفكك
  طارق البشرى
  القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٦

ازداد التوتر بين مجلس الدولة وبين الحكومة فبعد وصول حزب الوفد إلى الحكم فى يناير سنة ١٩٥٠ طلب أحد الوزراء باسم حكومة الوفد من السنهورى التنحى عن رئاسة مجلس الدولة بدعوى أنه كان ينتمى إلى أحد الأحزاب السياسية





برلمانية جديدة لطائفة ما يسمى بالمستقلين.

وتحركت الحكومة بطلب تعديل ٣٤ مادة من الدستور[٨] من بينها المادة ٨٨ من الدستور بحيث يكون الإشراف لهيئة عليا للانتخابات والأدهى من ذلك أن هذا التعديل الدستورى أجرى دون تطبيق قاعدة قاضى لكل صندوق التى لم تكن قد ألغيت بعد، ورغم أن أحكام المحكمة الدستورية كشفت بجلاء[٩] عن حقيقة غاية فى الأهمية أن استقلال السلطة القضائية لازما لضمان موضوعية الخضوع للقانون ولحصول من يلوذون بها على الترضية القضائية. يؤيد ذلك:

أولا: إن إعلان المبادئ الأساسية فى شأن استقلال القضاء التى تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بقراريها الصادرين فى ٢٩/١/١٩٨٥ و١٣/١٢/١٩٨٥.

ثانيا: إن استقلال السلطة القضائية وحيدتها ضمانتان تنصبان معا على إدارة العدالة بما يكفل فعاليتها، وجدير بالبيان أن السلطة التنفيذية أوغلت فى تعطيل أحكام القضاء وليس أوضح من رفض وزير العدل الحالى لحكم المحكمة الإدارية العليا الصادر بإلزامه بعلاج القاضى المنزلاوى بمجلس الدولة على نفقة الدولة، وقيامه بالإشكال فى تنفيذ الحكم أمام محكمة جزئية، وهى محكمة غير مختصة يدرك ذلك جيدا بوصفه رئيسا أسبق للمحكمة الدستورية العليا، وقد تدخل السيد رئيس الجمهورية بإصداره قرار بتنفيذ الحكم، والشىء بالشىء يذكر فأثناء الحرب العالمية الثانية صدر حكم قضائى بهدم مطار وكانت مقولة تشرشل الخالدة «نخسر الحرب ولا نمتنع عن تنفيذ أحكام القضاء». أما فى مصر ورغم أن القاضى يعالج بتمويل من قبل صندوق يمول خصما من رواتب القضاة، إلا أن وزير العدل امتنع عن تنفيذ الحكم، وانتظر قرار رئيس الجمهورية.

وقد صدر كتابان فى غاية الأهمية فى علاقة السلطة بالقضاء هما «القاضى والسلطان» للدكتور محمد سليم العوا، و«مصر بين العصيان والتفكك» للمستشار طارق البشرى - دار الشروق سنة ٢٠٠٦.

استهل العوا فى المقدمة[١٠] بأن جوهر المشكلة السياسية فى أى مجتمع هى الصراع بين السلطة والحرية فأما السلطة فهى إنفاذ القول على الغير، وأما الحرية فهى حق الناس فى الاختيار عند القدرة عليه ولأن السلطان يصر على توسيع نطاق سلطانه فإنه يضيق بأولئك الذين تكون مهمتهم تضييق هذا السلطان ولم تجد معظم هذه المجتمعات المعاصرة خيرا من القضاة المستقلين لتولى مهمة مراقبة هذا الاختيار وهو ما يُعرف بالإشراف القضائى على الانتخابات ثم عرض لحقبة الصراع بين السلطة والقضاء سنة ١٩٦٩ والتى انتهت بقرارات فصل عدد من القضاة ثم طعن فيها أحد القضاة وصدر حكم لصالحه وأثمرت عن صدور قانون السلطة القضائية رقم ٤٦ لسنة ١٩٧٢. وخلص إلى أنه سيتناول فى ثلاثة فصول جوانب الصراع بين القاضى والسلطان فتناول فى الفصل الأول[١١] أصل القضية «الإشراف القضائى على الانتخابات»، إذ استعرض حكم المحكمة الدستورية العليا الصادر فى القضية رقم ١١ لسنة ١٣ق بجلسة ٨/٧/٢٠٠٠ والتى قضت بعدم دستورية نص الفقرة الثانية من المادة ٢٤ من القانون رقم ٧٣ لسنة ١٩٥٦ بتنظيم مباشرة الحقوق السياسية فيما تضمنه من تعيين رؤساء اللجان الفرعية من غير أعضاء الهيئات القضائية (قاضى لكل صندوق) وقد قامت الحكومة بتنفيذ هذا الحكم بيد انه استدعى مسائل كثيرة أهمها التى تتعلق بالشروط الواجب توافرها لتحقيق

نزاهة الانتخابات وضمان حريتها وعن الضمانات الواجب توفيرها ليكون استقلال القضاء الذى يشرف رجاله على الانتخابات كاملا بحيث يمكنهم من التصرف بحياد وحرية حقيقيتين بعيدا عن مؤثرات الإغراء والإغواء وبخاصة أن حكم الدستورية سالف البيان ذهب إلى «أنه لكى يؤتى هذا الإشراف أثره فإنه يتعين أن يكون إشرافا فعليا لا صوريا أو منتحلا .... لتكون السيادة للشعب وحده باعتباره مصدر السلطات». وقبل هذا الحكم بثلاث سنوات كان قضاة مصر قد عقدوا فى ٢٧ يونيو ١٩٩٧ بناديهم الندوة الأولى لضمان نزاهة الانتخابات التى ناقشوا فيها التعديلات الواجبة لقوانين الانتخاب العامة تأمينا لنزاهتها وتثبيتا للثقة العامة فيها وفى القانون والقضاء... وقد انتهوا إلى تأكيد توصية مؤتمر العدالة الأول سنة ١٩٨٦ بضرورة تنظيم الإشراف القضائى على الانتخابات فى كل مراحلها بما يحقق رقابة جادة وفعلية وبحيث يرأس القضاة اللجان الانتخابية كافة ولو استلزم ذلك إجراء الانتخابات على مراحل وأعدوا مذكرة بذلك إلى مجلس الشعب والشورى وأضاف أن القضاة الذين تتم الانتخابات تحت إشرافهم هم قضاة القضاء العادى والإدارى والمحكمة الدستورية العليا وبناء عليه صدر قرار محكمة النقض فى ٢٠٠٣/٥/١٢ فى الطعنين الانتخابيين رقمى ٩٥٩و ٩٤٩ لسنة ٢٠٠٢ الذى انتهى إلى تقرير بطلان الانتخابات فى دائرة الزيتون سنة ٢٠٠٠ وأسس ذلك على أن ست لجان فرعية أسندت رئاستها إلى غير القضاة من أعضاء هيئة قضايا الدولة والنيابة الإدارية (لأنهم ليسوا قضاة) وتناول اتجاه محكمة النقض الذى أصل لفكرة الهيئة القضائية وعرفها بأنها الهيئة التى تفصل بين الناس بقضاء أى الفصل بين الخصومات بحكم له قوة الإلزام.

ومن البديهى أن أعضاء هيئة قضايا الدولة والنيابة الإدارية ليس من شأنهم الفصل فى الخصومات بين الناس بحكم له قوة الإلزام ولا يتوافر لهم الاستقلال ولا الحصانة ولا الحيدة.

كما عرض د. العوا تاريخيا لفكرة التنظيم الطليعى فى القضاء الذى أسسه شعراوى جمعة آخر وزير داخلية فى عهد جمال عبد الناصر الذى كتب تأشيرة مؤرخة ١٩٦٨/٤/١٧ نصها «تشكل جماعة قيادية للهيئات القضائية وتلحق بتنظيم القاهرة». ويرى أن محاضر اجتماعات هذه الجماعة القيادية أن الهدف من استعمال تعبير «الهيئات القضائية بالرغم من عدم انطباق هذا التعبير على إدارة قضايا الحكومة والنيابة الإدارية كان هو تسويغ نقل بعض أعضاء إدارة قضايا الحكومة إلى مقاعد القضاء....... وإسقاط هيبة القضاء بعامة ومحكمة النقض بخاصة، ولإشعار الهيئة القضائية أن الحصانة التى كان يقررها الدستور المؤقت وقانون السلطة القضائية لن تحميهم من بطش السلطة».

وقد طعن أحد رجال القضاء فى القرارات بقوانين (قرارات مذبحة القضاء) وحكمت محكمة النقض بعد نضال مشرف بإلغائها جملة واعتبارها عديمة الأثر قانونا واضطرت الحكومة إلى إصدار قانون جديد بإعادة باقى المعزولين إلى مناصبهم. وما أشبه الليلة بالبارحة فقد أجرى الاستفتاء على تعديل المادة «٧٦» من الدستور فى ٢٠٠٥/٥/٢٥ . وقد شكل نادى القضاة لجنة من السادة المستشارين لدراسة ما جرى فى هذا الاستفتاء انتهت إلى التوصيات الآتية:

١. عدد اللجان الفرعية بلغ ٥٤٣٥٠ لجنة فرعية وعدد أعضاء الهيئات القضائية ١١١٢٥عضوا أى أن نسبة إشراف القضاة ٢٠٪

٢. استحال على القضاة رؤساء اللجان العامة المرور على اللجان الفرعية.

٣. اختلاف كشوف الناخبين عن بعضها بما يعنى أنه جرى تعديلها.

٤. عدد اللجان الفرعية التى رأسها أعضاء الهيئات القضائية لا تزيد على ٥٪

٥. كثير من اللجان القضائية التى أشرف عليها القضاة كان الإقبال فيها ضعيفا وتوجد لجان أخرى لم يحضر فيها أحد.

٦. عندما تمسك معظم القضاة الذين رأسوا اللجان الفرعية بتطبيق قانون مباشرة الحقوق السياسية فى شأن إجراء الاقتراع فقد أثار ذلك استياء رجال الإدارة.

٧. لم يراع فى الموظفين الذين رأسوا اللجان الأخرى أى شروط مثل الدرجة الوظيفية أو المؤهل الدراسى أو حسن السمعة وبلغت نسبة الحضور فيها أكثر من ٩٠٪ وأنهت هذه اللجان عملها قبل الموعد المحدد.

. ربط القضاة فى مداولات الجمعية العمومية فى ٢٠٠٥/٥/١٣ بين إشرافهم على الانتخابات وأمرين:

١. صدور مشروعهم لتعديل قانون السلطة القضائية الذى يكفل لهم الاستقلال.

٢. تعديل قانون مباشرة الحقوق السياسية بما يكفل لهم الإشراف الكامل على الانتخابات بجميع مراحلها. وإذ لم تأخذ الحكومة هذه التوصيات مأخذ الجد وألقت باللائمة على القضاة ونعت عليهم اشتغالهم بالسياسة. وانتهى د. العوا فى هذا الخصوص إلى أنه قد جرت فى النهر مياه كثيرة حتى أتهم القاضيان هشام البسطويسى ومحمود مكى وهما نائبان لرئيس محكمة النقض بأنهما قذفا فى حق قاض، وأحيلا بهذه التهمة إلى مجلس التأديب الذى أصدر حكما بلوم الأول وبراءة الثانى. وتناول فى الفصلين التاليين حكم مجلس التأديب الصادر ضد القاضيين هشام البسطاويسى ومحمود مكى، ومشروع تعديل قانون السلطة القضائية.

ولما كان حكم مجلس التأديب مثار طعن أمام القضاء وقد صدر تعديل قانون السلطة القضائية حال صدور الكتاب، وتعمل الحكومة حاليا على تعديل القانون مرة أخرى فإن الموضوع يتجسد فى تدخل السلطة التنفيذية فى شئون القضاة، وقد استعانت الحكومة بأصحاب المنطق الصورى الذين قاموا بتعديل المادة ٨٨ من الدستور وأسندوا الإشراف على الانتخابات برمتها لهيئة عليا مشرفة على الانتخابات ونفوا قاعدة قاض لكل صندوق من النص الدستورى بحيث إنه لا يوجد طعن فى الدستور ذاته ويبقى الأمر فى يد هذه اللجنة العليا التى يصدر بتعيين أعضائها قرار إدارى أيا كان مصدره وقد بادر أصحاب هذا الرأى للقول بأن مصر مليئة بالشرفاء من غير القضاة الذين يجب أن يبقوا فى محاكمهم ولا تهتز هيبتهم بينما يكمن الرد- فى رأينا- على هذه الحجج فى أن العلة تدور مع الحكم وجودا وعدما وأن علة الإشراف القضائى وقاعدة قاض لكل صندوق هو أن حصانة القاضى تقيه من الضغوط؛ كما أن القضاة هم الطليعة فى ظل انحدار طليعة البرجوازية المصرية التى حملت لواء التغيير قبل ثورة ٢٣يوليو١٩٥٢ ومنهم سعد زغلول وقاسم أمين وذلك فى ظل النص القديم الذى استلزم الإشراف القضائى الذى قال فى الإشراف «أشرف عليه: تولاه وتعهده وراقبه وأشرف الشىء» أمكنه........ وولج الحكم إلى أن الإرادة المقصودة من الأعمال التحضيرية هو قصد إمساك أعضاء الهيئات القضائية تقديرا لحيدتهم وذلك لتدعيم الديموقراطية وكفالة مباشرة حق الانتخاب سليما غير منقوص.



وإذ عرض العوا بدراسة مستفيضة لوقائع هذه المرحلة مستعينا بذاكرة ما أطلق عليه مذبحة القضاة ١٩٦٩ وهى المذبحة الثانية إذ أن المذبحة الأولى كانت سنة ١٩٥٤، وقد نتج عن الثانية فكرة إدخال التنظيم الطليعى فى القضاء، بينما نرى نحن أن فكرة الآلية القانونية من متخصصين أضحوا يشرفون على الحياة السياسية القانونية ويصوغون ويسوغون للسلطة تعديل الدستور والقانون بما يخرج القضاة من حلبة الإشراف على الصندوق الانتخابى ومن ثم التدخل فى شئون القضاة بقانون إثر قانون حتى يتحقق لهم ما يصبون إليه وهو ما سبق أن أطلق عليه السنهورى «التعسف فى استعمال التشريع» ذلك أن هذه التشريعات ليس غايتها الصالح العام المشترك الذى يحمى الأمن والسكينة الاجتماعية والتقدم الاقتصادى والاجتماعى.

وفى تصورنا أن أصل ذلك يعود بدءا من قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وكانت أول مشكلة واجهت الثورة[12]، هى الوصاية على العرش حين ترك الملك قبل سفره مظروفا مختوما بأسماء الأوصياء فى ظل دستور

القضاة هم الطليعة فى ظل انحدار طليعة البرجوازية المصرية التى حملت لواء التغيير قبل ثورة ٢٣يوليو١٩٥٢ ومنهم سعد زغلول وقاسم أمين







١٩٢٣ الذى كان ينص فى المواد ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ على ألا يؤدى أوصياء العرش عملهم إلا بعد أن يؤدوا لدى المجلسين (مجلسى البرلمان) مجتمعين اليمين باحترام الدستور وقوانين الأمة المصرية .... وأنه اثر وفاة الملك يجتمع المجلسان بحكم القانون فى مدة عشرة أيام من تاريخ إعلان الوفاة فإذا كان المجلس منحلا وكان الميعاد المعين فى أمر الحل لاجتماع المجلس الجديد يتجاوز اليوم العاشر فإن المجلس القديم يعود للعمل حتى يجتمع المجلس......... وقد اختلف الرأى: هل تطبق المواد الخاصة بالملك المعزول، ومعنى ذلك دعوة البرلمان الوفدى المنحل ليتم حلف اليمين الدستورية أمامه، أم تعتبر هذه الحالة حالة خاصة تواجه بإجراء جديد، وعندئذ لا يدعى البرلمان الوفدى المنحل....... وكانت وجهة نظر الوفد، كما عبر عنها فى ذلك الحين هى دعوة البرلمان السابق إلى الاجتماع لإعلان أسماء الأوصياء أمامه وقد قابل مصطفى النحاس على ماهر وأطلعه على آراء ثلاثة من رجال القانون الوفديين فى هذه المسألة الدستورية........ على أن القوى المناوئة للوفد لم تلبث أن سارعت لإحباط هذه المحاولة وأعلن مكرم عبيد وفتحى رضوان بالحزب الوطنى «أنه ليس لهذا البرلمان حكم فيما جاءت به الثورة، وقد يكون هذا البرلمان شريكا للملك المعزول فى أخطائه وآثامه التى استوجبت عزله وأثارت غضب الشعب عليه......أما الإخوان المسلمون؛ فقد اعتبروا أن الدستور لم يعد له وجود من ناحية الواقع ولا من ناحية الفقه، كما كان سليمان حافظ، وكيل مجلس الدولة حريصا أشد الحرص على عدم دعوة البرلمان الوفدى المنحل للانعقاد.

ويذهب د. وحيد رأفت عند أخذ الأصوات بعد هذه المناقشة التى شارك فيها عدد من المستشارين الحاضرين: «كنت وحدى صاحب الرأى القائل بأن يجرى على تنازل الملك عن العرش ما يجرى على حالة وفاته، وأنه يتعين بالتالى إعمالا لأحكام دستور ١٩٢٣ والأمر الصادر فى ١٣ إبريل سنة ١٩٢٢ بشأن توارث العرش دعوة مجلس النواب المنحل ومجلس الشيوخ إلى الانعقاد فورا لاختيار هيئة الوصاية على العرش، ولكى يؤدى الأوصياء اليمين الدستورية أمامهما، بينما انقاد جميع زملائى الآخرين إلى جانب رأى الدكتور السنهورى ووكيله سليمان حافظ وصدرت الفتوى من قسم الرأى بهذا المعنى.......... وهنا ثرت فى وجه الزميل سليمان حافظ مذكرا بأنه لا يليق بسدنة القانون وحماته أن يستعدوا الحكومة على نواب انتخبهم الشعب لتمثيله. وأضفت وهو ما أثبته هنا للذكرى التى قد تنفع المؤمنين أننا بصدد انقلاب عسكرى لا يعلم إلا الله أين سيقود البلاد، وان واجبنا كحقوقيين مدنيين أن نتضافر لمواجهة ما يصاحب مثل هذه الانقلابات العسكرية من خطر على الحريات.

وما إن اطمأن[١٣] الدكتور السنهورى على مؤازرة مستشارى الرأى له حتى أخذ هو والأستاذ سليمان حافظ رئيس قسم الرأى فى إعداد التشريع المترتب على هذه الفتوى..... كما سارعا بإبلاغ الرئيس على ماهر بمضمون تلك الفتوى فقام بدوره بإبلاغها إلى اللواء محمد نجيب وزملائه قادة حركة الجيش، و حتى لا يترك لهم فرصة العدول عنها أو مجرد التفكير فى ذلك أمر بأن تذاع فورا من محطة الإذاعة لكى يسمعها القاصى والدانى.

ونحن نرى أن هذه الفتوى قد دشنت لمفهوم تعدد الرؤى الذى يسود فقه القانون الإدارى بوجه عام، ولكن دوما يكون هناك راجح ومرجوح، ولاشك أن رأى الدكتور وحيد رأفت هو الرأى الراجح ويمكننا القول أنه الصائب إلا أن السنهورى ورفاقه رأوا الميل مع ثورة يوليو والوقوف فى وجه الوفد فصدرت الفتوى وبدأت مرحلة التوسيد للحكومة بآليات العقد والقرار وأفكار ابتدعها الفقه والقضاء لتمكن لسلطات الدولة من الحكم دوما بأطر قانونية، وثانى هذه المواقف كان تعديل قانون الأحزاب؛ إذ اقترح سليمان حافظ مشروع قانون بتنظيم الأحزاب السياسية وأخذ يدافع عن مشروعه فى صلابة ويجسد خطر الأحزاب على مسار الحركة، ويروى بعض المهازل والمفاسد التى أحاطت ببعض قادتها[١٤].

وما إن تولى محمد نجيب رئاسة مجلس الوزراء وصار سليمان حافظ نائبا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرا للداخلية فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ حتى صدر المرسوم بقانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ بتنظيم الأحزاب السياسية فى ٩سبتمبر ١٩٥٢ .

وهذا المرسوم بقانون صدر خصيصا لضرب حزب الوفد، باعتباره الحزب الوحيد صاحب التأييد الشعبى الأوسع.......... وكان المرسوم بقانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ بمثابة خطوة نحو محاصرة الأحزاب وإخضاعها لسلطة الجيش المتمثلة فى وزارة الداخلية».

ونرى هنا أيضا أن المشرع القانونى اتخذ شكل إصدار القانون للسيطرة على الأحزاب فيكون قد وسد للسلطة الوليدة السيطرة على العرش«سلطة رئيس الدولة» ثم السيطرة على الأحزاب.

ويأتى بعد ذلك الحادث الشهير فى اعتداء عمال النقل على السنهورى بمكتبه فى غضون أحداث مارس ١٩٥٤ الشهيرة التى عصفت بآلية تطبيق الديمقراطية إلى غير رجعة ويورد د. فاروق عبد البر صورة نشرتها جريدة كوريير ديلاسيرا الإيطالية، فى ٣٠ مارس سنة ١٩٥٤، للدكتور السنهورى، عقب الاعتداء عليه من جانب العسكر وتابعيهم فى ٢٩ مارس سنة ١٩٥٤ . فبعد أن مكن القانونيين للسلطة الوليدة، قامت بالاعتداء عليهم تباعا بدءا من السنهورى وسليمان حافظ الذين نجد أشباها لهم فى أروقة السلطة الحالية على كل شكل ولون.



ويبدو الطرح ذاته برؤية جلية فى كتاب المستشار طارق البشرى: مصر بين العصيان والتفكك، إذ يذهب إلى أنه لا يتفق مع الحديث عن الدعوة لتعديل الدستور لما يلى:

١ - أن المشاكل التى نعانى منها ليست من نقص فى الدستور ولكن من عدم تطبيق الجانب الإيجابى فيه.

٢ - أن المطالبة بتعديل الدستور قبل علاج المشاكل الراهنة التى أفضت إلى عدم تطبيقه لن تحل المشكلة التى ستستمر بعد تعديل الدستور.

٣ - أن تعديل الدستور يمكن أن يبرر إجراء تعديلات تنتكس بالحالة الدستورية ولا تطورها.

وطالب بإلغاء حالة الطوارئ التى استمرت منذ أكتوبر ١٩٨١ وعند إجراء الانتخابات أن تجرى بغير ضغط وطبقاً للقانون وأحكام المحاكم وأن سلطة التنفيذ المندمجة بالتشريع أدت للاندماج بما لا يقوم به فى الواقع أى تعدد أو تنوع أو تداول فى الهيئة القابضة على سده الحكم والمطلوب أيضاً فك القيود التى وردت فى قانون الأحزاب بالنسبة لحرية التكوين الحزبى والنقابات المهنية. وطالب بتحرير الجمعيات التعاونية من تبعيتها لوزارة الشئون الاجتماعية وتخفيف سلطة وزارة العدل على القضاة. وجدير بالبيان أن فكرة تشخيص الدولة وشخصنة السلطة تناولها كثير من الكتاب وأخص منهم بالذكر نبيل عبد الفتاح[١٥] الذى ذهب إلى أنها نزعة عمدية .. اختطفت منها الدولة لصالح مصالحها الطبقية الضيقة؟ لمصالح جماعة معينة وتناول أسباب هذه الظاهرة فى شخصنة الحاكم وامتداد عمليات الشخصنة من قمة الصفوة العليا إلى المراتب السلطوية الأدنى فى المستويات السياسية والحكومة ثم أمتد إلى الجهاز الإدارى حتى صغار الموظفين العموميين.

٢ - ظواهر الفساد السياسى والبيروقراطى وفى المحليات اجتاحت أجهزة الدولة وشاعت من قمة الهرم السياسى والاجتماعى والبيروقراطى إلى قاعدته مروراً بوسطه مما أدى إلى شيوع إحساس لدى غالبية الجمهور بأن الدولة لم تعد الإطار الجامع لكل المصريين وإنما إدارة تدار من خلال قلة تحتكر السلطة والقوة والثروة العمومية وإصدار القرارات.

٣ - أدى فساد المصارف العمومية وسوء إدارتها وغياب الشفافية والمساءلة القانونية إلى تدخل ذوى السلطة الواقعية المطلقة والنفوذ السياسى فى عمليات توجيه رؤساء ومديرى البنوك ومنح تسهيلات لرجال الأعمال.

٤ - أن ظواهر نهب ونهش المال العام بلا رادع أو ضابط أو رحمة أو خلق أو دين امتد إلى المحليات وأجهزة الحكم المحلى والمجالس



ضعف وإذعان القانون وقواعده أدى إلى هيمنة قوانين الفساد وأبرز قواعده تمثلت فى بيع الخدمات والتراخيص والقرارات فى سوق بيع صلاحيات الوظيفة العامة عبر الرشوة والارتشاء

الشعبية التى قيل فيها أن فسادها لا حدود له قط وبحيث بات هو القانون الحاكم لمعاملاتها.

٥ـ ضعف وإذعان القانون وقواعده أدى إلى هيمنة قوانين الفساد وأبرز قواعده تمثلت فى بيع الخدمات والتراخيص والقرارات فى سوق بيع صلاحيات الوظيفة العامة عبر الرشوة والارتشاء. وإذ انتهى فكر نبيل عبد الفتاح وضيف إليه البشرى الذى يؤسس لفكرة الدولة المشخصنة وهى الدولة القائم عليها لا تربطه عائلة قبلية ولا نقابة أو جماعة دينية ولا حزب سياسى أو طبقة اجتماعية وهو يسيطر بذاته على مفاتيح السلطة وتغير آلة الحكم وأجهزته كلها تحت أمرته ولا يقيده إلا الإمكانيات المادية للدولة وأجهزتها فى الحركة والنفوذ وهو يتغلب على ضغط عمال الدولة عليه بأن يشخصن الفئة المحيطة به من العاملين معه بإبقائهم فى وظائفهم أطول مدة ممكنة بحيث تحل العلاقات الشخصية محل علاقات العمل الموضوعية والمهم أنه لا يقوم من خارج إطار أجهزة الحكم ما يكون ذا تأثير عليه ولا تقوم آلية ما للتبادل والتأثير معه وهو خارج إطار السلطة والوظائف الرسمية. ومن الممكن القول أنه للأسباب السابقة مجتمعة. دعى طارق البشرى إلى العصيان ذلك أن الشخصنة أدت إلى استخدام الدولة للعنف وهو الحل الجاهز دائماً والسريع لمواجهة أى تحرك أو تجمع ولو فى مهده لإجهاض ما يتكون وردع ما هو فى طريق التكوين. ويستشهد بعبارة غاندى «أن الحاكم عندما يواجه الحركة الشعبية السلمية بالعنف يكون كمن ضرب بسيفه الماء ليقطعه» فالعنف لا يهزم الحركة السلمية مهما أذى رجالها فلا بد للحاكم من الشرعية مهما كان ذات سلطات مطلقة ويستشهد بتجربة الهند ويذهب إلى أن ما أدركه غاندى أن الإنجليز ما كانوا يستطيعون أن يحكموها بغير تعاون الهنود وخضوعهم لذا عمل غاندى على إنهاء هذا التعاون».

وجدير بالبيان أن ما قاله طارق البشرى هو ذات ما قاله نبيل عبد الفتاح فى مؤلفه سالف البيان عن الدولة والانقسام الجماعى وجمهورية الخوف الذى يأكل الروح والنفاق والفساد الذى يقف ضد قيم الجمهورية والمواطنة والاندماج القومى مما أدى إلى نشأة الحكومة الرخوة وأدت النخبة الحاكمة إلى تحطيم الأمة وغابت كوادر الصف الثانى بما يعنى استمرار الفشل وازدراء الجماهير ويتناول البشرى فكرة الإصلاح السياسى مروراً بالإصلاح الدستورى وأن تعديل المادة ٧٦ لا يظهر أثره إلا بعد خمس سنوات من سنة ٢٠٠٥ إلى ٢٠١١ ولذلك لن ينتهى الحكم الشخصى وفرض سلطة أجهزة الدولة إلا بوضع حد أقصى للمرة التى يمارس فيها الرئيس سلطته على هذه الأجهزة. وأن يكون مسئولاً أمام هيئات دستورية عما يرسم من سياسات ويتخذ من قرارات وما ينفذ من أمور.

ويرى أن الرقابة الخارجية على أى من شئوننا فى الانتخابات أو غيرها لن تنتج إلا مزيداً من التفكيك، و ينبغى أن نشغل همومنا بإضعاف مؤسسات وأجهزة بنيت بجهود الأجيال وصارت جزءاً من ثروتنا الوطنية ويستشهد بأن الوطنيين أمثال محمد شريف أيام الخديو إسماعيل كانوا حريصين على ألا تمتد الرقابة الأجنبية إلى تكوين الإدارة المصرية.ونضيف نحن نريد أن نقاوم عوامل التفكيك وقواه واقترح أن يتم قصر مدة الرئاسة على مرتين وأن الفصل فى صحة عضوية أعضاء البرلمان يكون لهيئة قضائية «لمحكمة النقض أو المحكمة الإدارية العليا».

وفى المسألة القضائية فقد قال طارق البشرى القول الفصل بأن عقداً قد انفرط وأن جهاز آلياً قد تفككت أجزاؤه ويأتى ذلك من اللاسياسة بصدد المسألة القضائية التى عرفت أول أحداثها حين كان النظام القضائى يلفظ أنفاسه وشاء له أن يقدم خصومه للقضاء وعرضت الدعوى على رئيس دائرة يطمئن الملك وحاشيته إلى تفهمها لرغباته وكان رئيس الدائرة يبلغ سن التقاعد فى يونيو ١٩٥٢ وعرضت الحكومة اقتراحا بمد سن الإحالة للتقاعد واجتمع نادى القضاة ورفض مد السن وبعد هزيمة ١٩٦٧ وفى سنة ١٩٦٨ بدأت الطريقة ذاتها وهى محاولة النظام السياسى فى حالة الضعف الذى سببته الهزيمة وحاول إدخال القضاة فى التنظيم السياسى وعن طريق إدخال عناصر من غير القضاة فى تشكيل المحاكم وهنا جاءت وقفة القضاة فى ناديهم وإصدارهم ما عرف باسم بيان ٢٨ مارس ١٩٦٨ ويقول «كما جرت أحداث سنة ١٩٥٢ فى نهاية نظام سياسى جرت أحداث سنة ١٩٦٩ فى نهاية نظام آخر».

ويضيف أن الوقفة الحادثة فى سنة ٢٠٠٦ أقوى الوقفات التى يقفها القضاة دفاعاً عن استقلالهم فى استمراريتها، وفى حدة الصراع القائم بشأنها؛ إذ لم يحدث قط فى الماضى أن ضرب قاضى من القضاة فى الشارع؛ كما حدث فى يوم ٢٤ ابريل ٢٠٠٦، ولم يحدث قط أن قدم شيوخ أجلاء من رجال القضاء إلى المحاكمة التأديبية (لجنة الصلاحية) التى يقدم إليها من ينسب إليهم الانحراف.



ونرى أولاً: أن النظام ظل يستند لفترة طويلة فى شرعيته لثورة يوليو ١٩٥٢، ثم تحول بعد فترة ليسند ذلك إلى ما أطلق عليه «روح أكتوبر١٩٧٣»، وقد حمل لفترة راية الحرية الاجتماعية وتبنى الدولة للتنمية فى مقابل تقييد بعض الحريات السياسية وبرر ذلك بأحداث الإرهاب، ثم بدأ النظام يبحث عن شرعية جديدة، فتم التمهيد النيرانى بتعديل المادة ٧٦ من الدستور بحيث يباح لأشخاص متعددى الترشيح لرئاسة الجمهورية، وقد قام أحد القائمين على صياغة التشريعات بإعداد تعديل لنص المادة «٧٦» من الدستور أجرى عنه استفتاء دستورى فى ٢٠٠٥/٥/٢٥، ودليل خطئها وإثمها أن السيد رئيس الجمهورية بذاته هو من طلب تعديلها مرة ثانية فيما بعد، وكان يتم بيع شركات القطاع العام بالقانون رقم ٢٠٣ لسنة ١٩٩١ رغم مخالفة ذلك لنصوص المواد ٣٠، ٣٤ (الملغاة) من الدستور، وصدرت قوانين التحول الاقتصادى وهى قوانين البورصة، والتحكيم رقم ٢٧لسنة ١٩٩٤ لتحمل شرعية مغايرة وجديدة وهى تلك التى يحمل بمقتضاها رجال الأعمال لواء التنمية لذلك كان من الضرورى إجراء تعديلات دستورية حتى لا يطعن على بيع شركات القطاع العام بعدم الدستورية، كذا إجراء تعديلات تشريعية لحماية رأس المال الخاص الذى دشن النظام فى شرعيته الثالثة أنه يقود قاطرة التنمية وإذ أحدث القضاة إحراجا للنظام لم يكن فى الحسبان فى الانتخابات التشريعية سنة ٢٠٠٠، وسنة ٢٠٠٥ إذ نجح فى هذه الانتخابات تيارات من المستقلين وغيرهم من المعارضين وندد القضاة فى ناديهم بالمخالفات التى تمت فى هذه الانتخابات وطالبوا بالإشراف القضائى الكامل عليها، واحترام أحكام القضاء فى خصوصها وعدم الالتفاف على الأحكام بالقول بأن الفصل فى صحة العضوية البرلمانية ينعقد للبرلمان «سيد قراره» وضرورة تعديل قانون السلطة القضائية بما يحقق استقلالها عن السلطة التنفيذية لذلك كان من الضرورى فى هذه الحالة استبعاد الإشراف القضائى بعد أن صار نادى القضاة بيت الأمة وتجسد فيه مفهوم البطل الشعبى الذى تحقق قبله لأشخاص مثل أحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد، وبعد أن طرحت فيه وبمناسبته أطروحات الإصلاح ومنها أطروحة د. يحيى الجمل والمستشار طارق البشرى الذى نادى بالعصيان ورفض ونرفض معه التدخل الأجنبى، ولكن نتمثل قول شعيب: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله».

ثانيا: إذا تعرضنا للسلطات الثلاث وما فعلت فيها جمهورية الخوف التى تأكل الروح نجد أن السلطة التشريعية يتم اختيار أعضائها عن طريق الانتخاب الذى يتم عبر تجييش الحكومة والحزب الحاكم لإنجاح أشخاص محددين يظلون مدينين بالولاء لصاحب الفضل. أما عن السلطة التنفيذية التى تتكون من مجلس الوزراء والوزراء والمحافظين الذين يعينون بقرارات جمهورية ويغدون موظفين عموميين يتلقون الأوامر وفق قواعد التبعية الرئاسية، أما عن السلطة القضائية فقد تم استعراض ما تم حيالها.

ثالثا أما عن استشرافنا لما سينجم عن ذلك التمهيد لتزاوج رأس المال والسلطة فلتأصيل فكرة السلطة التى يتعين

قال طارق البشرى القول الفصل بأن عقداً قد انفرط وأن جهاز آلياً قد تفككت أجزاؤه ويأتى ذلك من اللاسياسة بصدد المسألة القضائية التى عرفت أول أحداثها حين كان النظام القضائى يلفظ أنفاسه



عليها تحقيق العدالة يجب استعراض خلاصة آراء الفقهاء فى هذا الصدد والتى يمكن إجمالها فيما يلى:

يورد «جون لوك» ١٦ فى كتابه الحكومة المدنية فكرة عقد الأشراف الذى يبرمه الأشراف نيابة عن الشعب مع الحكومة واستلزم من الحكومة الوفاء للشعب بثلاث احتياجات «قانون مقرر ومعروف وقاضى منزه وقوة تنفيذية لفرض القرارات العادلة مع وجود فصل بين السلطات» كما أوجب «مونتسكيو» فى كتابه روح القوانين إلزام الحكومة بإجراءات تتسم بالحرية فى سن التشريع وقد بدت جليا فكرة العقد الاجتماعى عند جان جاك روسو بضرورة صدور القانون بإرادة عامة. وعند هيجل فإن حريات الأفراد لا تصبح شيئا ملموسا إلا إذا جعل الفرد من المصلحة المشتركة رائدة. وأجمل «بنتام» فى كتابه «مبادئ الأخلاق والتشريع» أن غاية التشريع تحقيق المصالح الاجتماعية بالحفاظ على مستوى لائق للحياة الإنسانية وقد أضاف فقهاء القانون مثل «دوجيه» إلى ما تقدم وجوب إضافة الروح التضامنية بإرساء الحقوق الطبيعية للأفراد التى تتجسد فى وجود قانون طبيعى. وأخيرا يتمسك الفقه الألمانى بضرورة تدخل الدولة لإعطاء الأفراد حقوقها مع الاعتراف بوجود مجال للحقوق الفردية والفصل بين السلطات ويتساءل الفقه الألمانى هل يمكن تجاهل الحرية؟! بالطبع فإن الإجابة هى النفى. ونعود إلى فكرة الصالح المشترك الذى يتكون من مجموع صوالح الأفراد بما يتضمن العدالة الاجتماعية -أول فروع الصالح المشترك- التى يجب أن تتأسس على العدالة التوزيعية فتتوزع الثروة على كافة أفراد الشعب بمساواة تناسبية؛ إذ لاشك أن المساواة مرتبطة بالحرية، ويتفرع عن ذلك مساواة الرجل بالمرأة وعدم تمييز أبناء طائفة على أخرى. و السكينة الاجتماعية هى ثانى فروع الصالح المشترك التى تتأسس على فكرة الشرعية وهى خضوع الجميع للقانون ومنهم الحكومة. ويأتى التقدم الاجتماعى الذى يبدأ بالحرية ومنها حرية الفكر والتعبير بما يتضمن حرية الصحافة وحقوق تكوين الأحزاب والنقابات والجمعيات ونقد العمل العام. وبناء عليه: تأتى فكرة تداول السلطة.

هذه الأفكار التى تضمنتها الفلسفة الدستورية وإعلانات حقوق الإنسان تتجسد فى عبارة واحدة «القيمة التى تستوعب كل قيم الحرية والعدالة والمساواة لتحقيق المنافع اللازمة للحياة الإنسانية»، وقد استقر الفقه القانونى على أن الدولة تتكون من شعب وإقليم وسلطة سياسية، فإذا لم تقم السلطة السياسية بتحقيق الصالح المشترك أو الصالح العام وفق ما تقدم ولم تحقق مبدأ الفصل بين سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية؛ فقد افتقدت الشروط الواجبة لاعتبارها سلطة، وهو ما أضحى جليا فى شخصنة السلطة. والأسباب التى أوردها تفصيلا الأستاذان طارق البشرى ونبيل عبد الفتاح ونعزوها لتزاوج رأس المال والسلطة الذى ستصل فيه مصر إلى مرحلة ما بعد الليبرالية المتوحشة. وإزالة أسباب هذا الانهيار فى رأينا. يأتى بالعودة إلى مفهوم الدولة المدنية التى تتحقق فيها العدالة- بمفهومها العام فضلاً عن عدالة توزيع الثروة بين المواطنين كافة- والشفافية، كما تمارس السلطة بأطر ديمقراطية يتحقق فيها الصالح المشترك للمواطنين كافة. ■

هوامش:

١. د. جعفر عبد السلام: مبادئ القانون الدولى العام. دار النهضة العربية سنة ١٩٨٦ ص ٣٠٧

٢. د. يونس العزاوى: مشكلة المسئولية الجنائية الشخصية فى القانون الدولى . مطبعة شفيق بغداد سنة ١٩٧٠ ص ٢٩

٣. د. سليمان الطماوى سالف الإشارة ص ٥٨٣

٤. يراجع بهذا الصدد كتاب: د. فاروق عبد البر: موقف عبد الرزاق السنهورى من قضايا الديمقراطية على نفقة المؤلف (د ش) سنة ٢٠٠٥ ص ١٢٦، ١٥٦،

٥. مجلة مجلس الدولة س ٢، يناير ١٩٥١، ص ٥٠٠ وما بعدها

٦. مجلة مجلس الدولة س ٤ ص٥٠٤ وما بعدها

٧. د. فاروق عبد البر سالف الإشارة ص ١٥٧

٨. ونرى أن هذه التعديلات الدستورية لا تستند إلى شرعية ثورة ٢٣يوليو١٩٥٢ بأى حال

٩. (الطعن رقم ١٣٣ سنة قضائية ١٩ مكتب فنى ٩ تاريخ الجلسة ٠٣ / ٠٤ / ١٩٩٩)(صفحة رقم ٢٣٧).

١٠. د. محمد سليم العوا: القاضى والسلطان الأزمة القضائية المصرية دار الشروق سنة ٢٠٠٦ ص ١٤.

١١. د. محمد سليم العوا سالف الإشارة ص ١٨ وما بعدها.

١٢. د. فاروق عبد البر: موقف عبد الرزاق السنهورى من قضايا الحرية والديمقراطية ٢٠٠٥ د ن ص١٠٣

١٣. د. فاروق عبد البر المرجع السابق ص ١١٠ وما يليها.

١٤. د. فاروق عبد البر المرجع السابق ص ١٤١.

١٥. الحرية والمراوغة دار ميريت القاهرة سنة ٢٠٠٥ ص ٣٥.

١٦. راجع مؤلفنا بالاشتراك مع د. نعيم عطية الفلسفة الدستورية للحريات الفردية دار الكتب القانونية سنة ٢٠٠٦ (تناولنا ماضمه الكتاب من آراء الفقهاء بصفة عامة).



لم يبق إلا التنفيذ

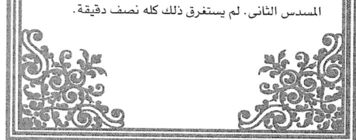
مذكرات عريان يوسف سعد

خفق قلبى. لقد حانت الساعة. فقمت أقصد منتصف الشارع حيث صممت على مواجهة السيارة. وإذا السيارة تخرج من شارع قصر النيل وخلفها موتوسيكل يعرج إلى اليمين فيدخل من شارع سليمان باشا فى الاتجاه الآخر فعجبت، ثم فطنت إلى الغلطة الهائلة. لقد حسب صديقى أن السيارة القادمة سيارتنا المقصودة وأوهمه الموتوسيكل الذى يتبعها أنه موتوسيكل الحرس. إن فى السيارة سيدة وأطفالها!! يا للهول! لو لم أفطن لهذا الخطأ!!

وعدت لأجد صاحبى فى البيت فما أن رآنى حتى عانقنى وهو يكاد يبكى. لقد كتب الله لنا النجاة من ارتكاب جريمة كانت كافية لتشويه حركة الاستقلال كلها.

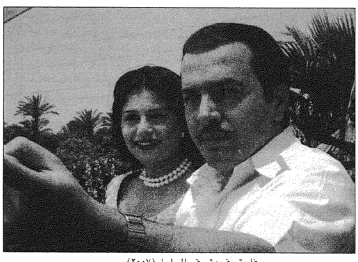
أسرعت نحو الشارع فتوسطته وإذا السيارة والجنديان راكبا الموتوسيكل خلفها تخرج من شارع قصر النيل، وتدور فى الميدان فوقفت فى وجهها. وأخذت القنبلة من جيبى وقلبتها وقذفتها نحو السيارة القادمة. وكان السائق أسرع منى فدار بالسيارة حول نفسها ووقف وقفة فجائية واستقرت القنبلة بجانب العجلة الخلفية وانفجرت، وما كادت تنفجر حتى كانت القنبلة الثانية تنفجر فوق السيارة.

سقط الجنديان وموتوسيكلاهما، ونهضا لينضما إلى اثنين قفزا من السيارة، وأحاط الجميع بى وكل منهم شاهر مسدسه على رأسى. قال الضابط: معك إيه؟ قلت: مسدسان. قال: سلمهما. خطر لى خاطر كالبرق. إن أنا وضعت يدى فى جيبى، وأخرجت المسدس ربما أطلقوا علىَّ النار. قلت له: مد يدك وخذهما. مد الضابط يده فى جيبى فأخرج مسدسًا، ويده فى الجيب الآخر فأخرج المسدس الثانى. لم يستغرق ذلك كله نصف دقيقة.



فاروق «التليفزيونى»!

بشير الكاتب


فاروق وفريدة.. فى المسلسل (٢٠٠٧)


.. وفى الواقع (١٩٣٦)

لقد استمتعنا بمشاهدة المسلسل التليفزيونى «الملك فاروق»، لأنه كان يمثل حقبة مهمة من تاريخ مصر الحديث. وكان الأستاذ عمار أبوعابد قد كتب كلمة عن هذا المسلسل فى العدد ٩٩٨٦، بتاريخ ٢٦ أيلول ٢٠٠٧ من صحيفة تشرين، وكذلك فى العدد ٩٩٩٤، بتاريخ ٦/١٠/٢٠٠٧ فى نفس الصحيفة، فأظهر قيمة المسلسل من ناحية التمثيل والإخراج، ولكنه أشار بأن المسلسل كان محاولة لإحياء ذكرى العهد الملكى فى مصر ومحاولة لاستعطاف الرأى العام عنه أو رد الاعتبار له.

ومع كل تقديرى لفكرة الأستاذ أبوعابد، إلا أننى أعتقد أن الدكتورة لميس جابر كتبت المسلسل بموضوعية دقيقة، وراعت التسلسل التاريخى للحوادث وصورت تلك الفترة من تاريخ مصر تصويراً حقيقياً دون أى تحيز، وكان هذا المسلسل مبادرة جيدة منها لكى يطلع الجيل الجديد على الحقائق التاريخية بشكل موضوعى. فتلك الفترة من تاريخ مصر لم تكن كما قد يتصورها البعض فترة مظلمة تعج بالخيانة والفساد، وليس الملك رغم العديد من تصرفاته التى ترجع بشكل أساسى إلى عدم نضجه فى الحكم والسياسة، بالملك الخائن أو الظالم، وإنما كان يتمتع بالعديد من الخصال الطيبة والمزايا الإنسانية التى كان يمكن أن تُستثمر فى الطرق الصحيحة لو قدر له من يقف بجانبه كمرشد أو ناصح أمين.

ولا شك أن إنتاج المسلسلات التاريخية أمر ليس بالسهل. وقد يستطيع المخرج أن يعتمد على التماثيل الباقية فيخرج مسلسلاً عن زنوبيا ملكة تدمر أو كليوباترا ملكة مصر، أو يستعين باللوحات والرسومات التى تمثل غزو نابليون لمصر والمعارك التى جرت بينه وبين المماليك، أو حملة نابليون إلى روسيا وعودة جيشه المهزوم منها. ولكن كيف يتمكن من إخراج فيلم عن معركة اليرموك وفتح بلاد الشام أو فتح عمورية من قبل المعتصم أو فتح الأندلس من قبل طارق بن زياد. أو هرب صقر قريش من دمشق إلى الأندلس وتأسيسه للدولة الأموية هناك، إذ لا يوجد أى تماثيل أو لوحات تجسد تلك الحوادث.

ما أود أن أقوله: إن إخراج الدراما التى تمثل التاريخ الحديث لا يقبل انحرافاً عن الواقع أو تحويراً لما كانت الأمور عليه، لأن الصور الوثائقية موجودة وهى فى متناول يد المخرجين، ولا تحتاج إلا إلى دقة وصدق فى النقل إلى المشاهد..

بالنسبة لمسلسل «الملك فاروق»، لا شك أن الحلقات قد تمكنت من سرد الحوادث المختلفة اعتباراً من تولى الملك فاروق العرش حتى نهاية النظام الملكى بكل دقة وأمانة تاريخية، ولم تهمل تقريباً حادثة أو مناسبة مهمة وذلك وفقاً للتسلسل الزمنى الصحيح.

الكاتبة لم تحاول أن تبرئ العهد الملكى أو تستدر العطف عليه، ولكنها عرضت الواقع السياسى المصرى كما كان بكل موضوعية، وتركت الحكم للمشاهد. وأعتقد أنها قامت بمهمة تاريخية قيمة، حيث أتاحت الفرصة للجيل الحاضر أن يطلع على مجريات الأمور فى مصر اعتباراً من الربع الثانى للقرن العشرين، وألا يكون متأثراً أو محكوماً بمقولة معينة فرضتها الظروف السياسية اللاحقة. وصحيح أن المعلومات التاريخية حول تلك الحقبة أصبحت متوفرة وخاصة فى السنوات الأخيرة، ليس فقط فى الكتب وإنما فى الدوريات على تباينها فقد أفردت مجلة «الموعد» مؤخراً حيزاً فى كل عدد للملك فاروق بقلم «محايد» ذكرت فيه الكثير من المعلومات حول فاروق وحكمه، كما أنه قد صدرت فى مجلة «وجهات نظر» مقاطع من مذكرات السفير البريطانى السير مايلز لامبسون وبشكل خاص فيما يتعلق بحادثة ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢.. ولكن الكاتبة تمكنت من سرد جميع المعلومات المتعلقة بحكم الملك فاروق. واستطاعت بشكل يستدعى التقدير تصوير الحوادث المختلفة وخاصة حادثة ٤ فبراير، والمقابلة التى جرت بين الملك والسفير البريطانى بعد محاصرة قصر عابدين، فعرضتها فى منتهى الأمانة، وأنصفت فاروق، هذا الشاب الأغر الذى كان فى الثانية والعشرين من عمره، كيف تصرف بحكمة وجنّب بلاده هزة عنيفة، وختم مقابلته للسفير البريطانى بتهكم ذكى، حينما أبلغه سبب عدم توقيعه على وثيقة التنازل عن العرش التى عُرضت عليه وقد كُتبت على ورق عادى لا يليق تقديمه إلى الملوك، وإذا كانت عند السفارة الإنجليزية أزمة ورق، فكان بإمكان السفارة طلب إمداد من الورق من القصر.. هذه الكلمات تدل على ذكاء ورباطة جأش عفوية من ملك كان عرشه فى مهب الريح!.. وهذا مثال على أن المسلسل تمكن من عرض الوقائع المختلفة بأسلوب جذاب وصادق، مما يجعل المشاهد الذى كان متأثراً بالمقولات المختلفة عن الملك فاروق

رغم أننى سورى، فإنه قُدر لى أن أعايش تلك الفترة من تاريخ مصر أولاً بسبب عمرى. وثانيًا بفضل متابعتى لقراءة المجلات المصرية كالمصور والاثنين والدنيا، وآخر ساعة وأخبار اليوم والهلال التى كان والدى مشتركًا بها



يراجع نفسه فى محاولة لتصحيح «بعض» معلوماته السابقة..

أما بالنسبة للإخراج، فلا شك أنه يجب علينا أن نهنئ الأستاذ حاتم على.. فهو أولاً فى عمر لا يسمح له أن يكون شاهداً على الوقائع التى جرت فى الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن الماضى، ثانياً: أنه سورى لم يعش فى مصر ولا أظن أنه كان على اطلاع على ما كان يجرى فى مصر إذا لم يكن قارئاً متابعاً للصحافة المصرية فى ذاك الزمن.. ولا أدرى إذا تيسر له ذلك!.. حين إعداد هذا المسلسل، فالمخرج الذى يقوم بإخراج مسلسل كهذا المسلسل يجب أن يكون مطلعاً على أدق التفاصيل للحياة السياسية المصرية فى تلك الفترة أو أن يتمكن من الاستعانة بمن سمحت له سنه وظروفه وتنشئته أن يكون واقفاً بدقة على ما كان يجرى فى مصر فى تلك الآونة. ولذا فللأستاذ حاتم على العذر كل العذر إذا لم يتمكن أحياناً من التحكم فى الشخصيات أو فى التصرفات التى كانت تصدر عن شخصيات ذاك الزمن، مما قد لا يتطابق مع ما كانت عليه فى الواقع. وأنا رغم أننى سورى، فإنه قُدر لى أن أعايش تلك الفترة من تاريخ مصر أولاً بسبب عمرى. وثانياً بفضل متابعتى لقراءة المجلات المصرية كالمصور والاثنين والدنيا، وآخر ساعة وأخبار اليوم والهلال التى كان والدى مشتركاً بها، وكنت فى سن أتوق فيها إلى القراءة بنهم فتجمعت فى ذاكرتى معلومات كثيرة عن تلك الحقبة من تاريخ مصر.

أ ـ شخصيات المسلسل:

١ ـ الملك فاروق: لقد كان اختيار الفنان تيم الحسن، اختياراً موفقاً جداً جداً، ولا أظن أنه يوجد بسهولة بين الممثلين العرب من هو أفضل منه ليلعب دور الملك فاروق وخاصة فى شبابه، وحتى بعد أن تخطى الأربعينيات وبدأ وزنه يزداد وشعره يقل.. وربما كان يجب أن يكون تساقط شعر الرأس تدريجياً، لا كما حدث فى المسلسل فجائياً فى الحلقات الأخيرة. وقد ترافقت فترة تساقط الشعر مع استعمال النظارة الطبية وعلى الأغلب السوداء، وهذا ما كان عليه الأمر فى الواقع.

ولقد ظهر فاروق بصفاته المختلفة، فهو ملك لم يشبع مراهقته كشاب، وصاحب نزوات وميل إلى التفرد فى الرأى والسيطرة، ويحمل عواطف مضادة نحو السفير البريطانى وبالتالى إلى الإنجليز ويميل إلى أعداء الإنجليز الذين هم الطليان والألمان. وكان يقع دون شك تحت تأثير حاشيته وخاصة الطليان منهم كـ (بوللى)، ولكنه من جهة أخرى لم يكن بالملك المستبد الفرد بل يحكم ضمن قيود من الدستور الذى لا يمكنه أن يخالفه. ولم يكن يستعمل العنف أو الظلم أو التعسف تجاه من لا تروقه تصرفاتهم، وحتى إنه كان يتمتع بروح إنسانية تجاه البسطاء من حاشيته ويريد الخير للأمة المصرية مع شعور وطنى تجاه القضايا القومية كالجامعة العربية وفلسطين.

ولقد أثرت حياته الخاصة على سلوكياته، فعلاقته بزوجته فريدة (صافيناز ذو الفقار) قد بردت تدريجياً، التى انتهت أخيراً بالطلاق. من ناحية أخرى، فإن سيرة والدته الملكة نازلى أصبحت موضوعاً متعباً ومقلقاً له، فهى تريد بحكم الأمومة أن تعامله كولد لا كملك مسئول أمام الحكومة والشعب.. وعلاقة والدته بأحمد حسنين اضطرته أن يقبل الأمر الواقع ويوافق على زواجهما، ثم حادثة طلاق شقيقته الأميرة فوزية من شاه إيران كانت صدمة بالنسبة إليه. وأخيراً أتته الطامة الكبرى وهى علاقة والدته برياض غالى ثم ما أنتجته هذه العلاقة من زواج غالى بالأميرة فتحية ثم زواج الأميرة فائقة بفؤاد صادق.. وكلا الزواجين لم يكونا مناسبين ولكن زواج الأميرة فتحية برياض غالى كان بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير، لاختلاف الدين وسوء السيرة الذاتية والتفاوت الاجتماعى الكبير بين الطرفين، ذلك مما حدا الملك إلى اتخاذ إجراءات قاسية بحق والدته وشقيقته فتحية. وقد تمكن الفنان تيم الحسن من تجسيد هذه الاضطرابات الشديدة التى تعرض لها فاروق بكل براعة.

ويقال إن فاروق كان يتصرف أحياناً بعصبية شديدة وقد يرفع صوته أمام والدته.. ولكنه كان قادراً من جهة أخرى رغم صغر سنه على ضبط أعصابه والتحكم بها فى الأزمات المهمة، وأكبر مثال على ذلك تصرفه مع السير مايلز لامبسون «يوم ٤ فبراير». وربما يمكن أن يؤخذ على الفنان تيم الحسن أن صوته كان أحياناً خافتاً إلى درجة يصعب فهم ما يقوله، وقد يكون ذلك راجعاً إلى الموسيقى التصويرية العالية التى كانت ترافق أغلب أجزاء المسلسل.

٢ ـ الملكة نازلى: لا شك أن الفنانة وفاء عامر التى تتمتع بجمال مبهر تمكنت من تمثيل دور الملكة نازلى بكل براعة وإتقان، وإن كانت الملكة نازلى أقل جمالاً منها. ولقد مثلت الفنانة وفاء عامر دور الملكة الأرملة التى عاشت مع زوج ملك يكبرها بسنين عديدة، فلم ترتوِ من الحياة الصاخبة التى تتوق إليها ولم تُشبع العواطف المتأججة التى كانت بداخلها. وقُدر لها أن تعرف حسنين منذ سنوات عديدة وتعجب بشخصيته الهادئة القوية وتصرفاته المتزنة الجذابة، فوقعت فى حبه وتعلقت به وكان آخر المطاف أنها تزوجته رغم كل محاولات ابنها الملك لثنيها عن هذا الموضوع. وربما يمكن أن يؤخذ على المخرج أنه لم يظهر أثر السنين على وجه الملكة نازلى، فقد بقيت حتى آخر المسلسل محتفظة بنضارتها ورشاقتها وحيويتها.

٣ ـ أحمد محمد حسنين: لقد تم اختيار الممثل عزت أبوعوف لهذا الدور، وأعتقد أنه ربما كان من الأفضل إعطاء هذا الدور إلى الممثل هشام سليم، فهو بقليل من الماكياج، كان يمكن أن يكون نسخة طبق الأصل من أحمد حسنين، فالفنان أبوعوف، رغم قامته التى تشبه قامة حسنين، فإن وجهه لم يكن يتطابق مع سحنة أحمد حسنين الهادئة. وأحمد حسنين كان لا يفرق تسريحة شعره، بل يسرحه إلى الخلف، وشارب أحمد حسنين ليس كما كان عليه شارب عزت أبوعوف رفيعاً دقيقاً وساكناً كشارب كلارك غابيل. وحسنين كان يضع طربوشه بشكل مستقيم وليس بميل إلى الجهة اليمنى مع الشرابة. وحسنين كان معروفاً بأنه يتحدث بهدوء وبطء، وليس بعنف وسرعة وحدة ودائماً مع حاجبين مقطبين.. وفى أحيان كثيرة كان يتكلم بسرعة لا تفهم معها كلماته. وكان حسنين رجلاً فى غاية التهذيب والأدب ولا يمكن أن ينسى أصول البروتوكول الملكى سواء فى حديثه مع الملك فلا يمكن أن تتكلم معه ويده فى جيب بنطاله (كما فى الحلقة ١٣)، أو أثناء حواره مع الملكة نازلى، فهو مهما شعر بتعلقها به، فلا أعتقد أن تهذيبه كان يسمح له أن يخاطبها بقسوة تصل إلى درجة اتهامها بأنها مجنونة (الحلقة ١٠)!.. ثم هل من المعقول أن يستقبل الأمير محمد على الوصى على العرش وهو فى (الروب دوشامبر) ويكتفى بوداعه وهو وراء مكتبه بقوله «بأمان الله» (الحلقة ١٢)؟.. كما أن أحمد حسنين لم يكن يستعمل العصا أبداً ولا توجد له صورة مع عصاه!

٤ ـ على ماهر باشا: قام بدوره الممثل نبيل الحلفاوى. وفى رأيى أن اختياره لهذا الدور لم يكن موفقاً، ولو أن الممثل عزت أبوعوف كان أقصر قامة، لكان أفضل منه بكثير فى تمثيل دور على ماهر باشا، وربما كان يمكن ذلك لو أجرى تعديل على شارب عزت أبوعوف وهو بدور حسنين، بحيث يكون أعرض قليلاً، واستعيض عن الطربوش القصير الذى وضع على رأس نبيل الحلفاوى بطربوش أطول وكان مائلاً مع الشرابة إلى الجهة اليمنى لكان أفضل بكثير. فالحلفاوى ذو العينين الجاحظتين والفم المندفع قليلاً إلى الأمام، وطربوشه القصير المستقيم المائل قليلاً إلى الخلف لا يمكن أن يذكر أبداً بعلى ماهر.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإننى أربأ أن يكون على ماهر باشا عميلاً يقبض من الطليان كما جرت الإشارة إليه فى المسلسل ولو بصورة عابرة، فقد كان رجلاً فى منتهى العفة والاستقامة والولاء للعرش. وهذا هو رأسماله الأساسى، لأنه لم يكن يستند إلى حزب أو كتلة شعبية. ولكن شخصيته القوية وكفاءته وولاءه للعرش هو الذى جعل منه «على ماهر» الذى كان الجميع يقدرونه ويحترمونه ولو لم يحبوه.

ولقد اعتبر عبدالوهاب طلعت باشا كبير الأمناء رجل على ماهر فى القصر والشخص المرفوض من قبل السفارة الإنجليزية. وعبدالوهاب طلعت باشا كان رجلاً مهيباً أنيقاً يضع نظارة طبية دائماً، وقد رأيته





شخصيًا حينما أوفده الملك فاروق كمندوب عنه مع اللواء عمر فتحى باشا للمشاركة فى جنازة المرحوم سعد الله الجابرى رئيس وزراء سوريا الأسبق. وصور عبدالوهاب طلعت باشا تملأ الصحف والمجلات المصرية، فقد كان فى كل مناسبة يقف خلف الملك فاروق مباشرة، والشخص الذى اختير لتمثيل دوره كان أبعد ما يكون عنه، وكان يبدو كعامل ريفى بسيط يرتدى بذلة أفرنجية رسمية.

٥ ـ مصطفى النحاس باشا:

لقد كان اختيار الأستاذ صلاح عبدالله ليقوم بدور النحاس اختيارا موفقًا جداً. ويتهيأ للمشاهد أن هذا الممثل قُدر له أن يعرف النحاس شخصياً. فقد استطاع أن يعيد للمشاهد شخصية هذا الزعيم الشعبى الكبير، ببساطته، وأريحيته وإيمانه بالشعب وتمثيله الفعلى له، وسماحته التى تدل على نفس كبيرة وقلب مفعم بالطيبة وحب الناس. ويقال إن النحاس كان يندر أن يتناول الطعام بمفرده، بل كان دوماً يستضيف من يكون فى زيارته. ولقد تمكن الممثل الأستاذ عبدالله أن يجسد النحاس بشكل قريب جداً إلى الواقع.. فطربوشه المائل إلى الخلف واستخدامه للعصا، وطريقة حديثه ولهجته الخطابية وإيمانه بحزبه وسعيه إلى كبح جماح الملك وإرجاعه دوماً إلى النصوص الدستورية وحبه لمن يعمل معه من رجالات الوفد، ونفسه المتسامحة حتى مع مكرم عبيد باشا الذى انشق عنه وكتب ضده كتاباً أسود حين التقاه فى عزاء صبرى أبوعلم باشا. ولقد كان مشهداً رائعاً موقف النحاس فى مجلس النواب وهو يدافع عن نفسه تجاه اتهامات مكرم عبيد له.. إلى درجة أنه عرض الفراء الذى اشترته زوجته أمام المجلس (كما كان فى الحلقة ٢٤).

ولكن من الغريب أن لا يهتم المخرج بإجراء ماكياج على رأس النحاس بحيث تظهر صلعته المعروفة.. ولم يكن هذا التدبير بالأمر العسير، ثم كان من الغريب أن نرى صاحب المقام الرفيع النحاس باشا يسافر إلى الصعيد مع زوجته وهى بكامل قيافتها ومرتدية (اليشمك الأبيض) ويجلسان مع جمهرة من أعضاء الوفد على مقاعد خشبية من التى كانت توجد فى الدرجة الثالثة فى القطارات. ومهما كان النحاس رجلاً شعبيًا متواضعًا، فلا أعتقد أنه كان يجلس فى قطار الصعيد فى الدرجة الثالثة!.. ثم إنه ليس من المعقول أن يرتدى النحاس بدلة (الردنكوت) الرسمية وهو يسافر بالقطار بجولة فى الصعيد. أما زينب هانم الوكيل (زوجة النحاس باشا)، فكانت فى الحقيقة أجمل مما ظهرت عليه فى المسلسل، كما أنها بدت فى المسلسل فى غاية الوداعة والمسالمة، مع أن السيدة زينب الوكيل كانت ذات شخصية قوية، حتى إنها كانت فى حياتها مع النحاس مسيطرة عليه ربما لجمالها أو لفارق السن بينهما، ولما فُطرت عليه من حب التحكم، ولا شك أنها أوجعت رأس زوجها أحيانًا بمداخلاتها ووساطاتها وحتى من بعض طموحاتها المادية، كما كان يشار إلى ذلك من قبل معارضى النحاس.

٦ ـ حسين سرى باشا:

تمكن الممثل الذى يقوم بدوره أن يعرضه بشكل جيد، إذ إنه كان يمثل الخيط الرفيع الذى يربط القصر بالسفارة البريطانية. وحسين سرى كان رجلاً ذا عقل هندسى وتفكير منظم. وقد تجلى ذلك عندما نصح الملك قبل ثورة ٢٣ تموز بإسناد وزارة الحربية إلى محمد نجيب ورئاسة الوزارة إلى النحاس. وربما لو أن فاروق اتبع نصيحته لتلافى حدوث الثورة ضده.. ولكن حسين سرى ظهر فى المسلسل، وخاصة عندما كلفه فاروق برئاسة الوزارة لأول مرة عام ١٩٤٢ أكبر كثيراً مما كان عليه.. فأغلب الظن أنه كان فى الخمسينيات من عمره، ولكنه ظهر بطربوشه الذى يصل إلى أذنيه وشعره الأبيض ووجهه المتهدل أكبر كثيراً مما كان عليه فى الواقع.

٧ ـ الأميرة شويكار:

هذه الأميرة التى كانت مطلقة الملك فؤاد الأول، ورثت عن أخيها ثروة كبيرة، وكانت مشهورة بحفلاتها الصاخبة ومحاولاتها استمالة الملك فاروق بتلك الحفلات. ولكنها كانت لا تعتبر جميلة، بل على الأصح قبيحة الشكل، وكانت قد تقدمت بالعمر.. وهى كما كانت تبدو فى صورها، ذات وجه نحيل متطاول، وجسم ضئيل وعينين غائرتين، وليست كما بدت فى المسلسل أميل إلى البدانة وذات وجه مستدير فيه مسحة من الجمال.

٧ ـ شخصيات أخرى متعددة ظهرت فى المسلسل كانت بعيدة كل البعد عن حقيقتها وذلك كمكرم عبيد باشا، الرجل الثورى والخطيب المفوه، كان يبدو هادئًا جداً ومسالمًا للغاية، إلا مرة واحدة حينما عزى النحاس بوفاة صبرى أبوعلم باشا. ورغم مرور السنين ظهر مكرم عبيد وقد بقى محافظًا على كثافة شعره ولون شاربه الأسود، إلا فى الحلقات الأخيرة فقط.

وأحمد ماهر باشا الذى قام بدوره الممثل محمود الجندى، ربما كان موفقًا فى تقليد حركاته ولهجته فى الكلام، ولكن أحمد ماهر لم يكن ذا حاجبين أسودين كثيفين كما ظهر بهما محمود الجندى، ولم يكن يرتدى طربوشه إلى الأمام، بل مائلاً قليلاً إلى الجهة اليمنى والخلف، ولم يكن شعره أسود يتبارز من جانبى الطربوش حتى أذنيه.. كما أن شاربه لم يكن بالشكل الذى كان عليه فى المسلسل.

وقد صورت حادثة اغتيال أحمد ماهر باشا فى البهو الفرعونى فى مجلس النواب من قبل محمود العيسوى وهو يرتدى بذلة بيضاء.. ولم يكن اغتياله فى فصل الصيف، ولكن ربما صور بالبذلة البيضاء لإظهار الدم الذى تدفق على بذلته بوضوح.



أما ممثل دور محمود فهمى النقراشى باشا، فلم يكن يمت بأى شكل من الأشكال إلى ما كان عليه النقراشى.

ولكن الممثلة منة فضالى استطاعت أن تكون قريبة الشبه والتصرفات إلى حد كبير من الملكة فريدة، على عكس والد الملكة (يوسف ذو الفقار باشا)، فأنا أذكره عندما كان يصطاف فى فالوغا (لبنان) ويجلس صباحاً فى مقهى الشرشارة، وبقى فى مخيلتى رجلاً فى منتهى الرشاقة والوسامة، تنطبق عليه أوصاف رجل السلك السياسى، ولم يكن شخصاً بدينًا مترهلاً كما بدا فى المسلسل.

وربما كان أنجح من جسده المسلسل هو فؤاد سراج الدين باشا، فقد كان فعلاً نسخة طبق الأصل للباشا الثرى البدين ذى (الشامة) على خده.. والذى عرف كيف يدخل قلب النحاس حتى وصل إلى منصب سكرتير حزب الوفد. ولم يكن فاروق يرتاح إليه، لأننى أعتقد أن فؤاد سراج الدين الرجل الإقطاعى الكبير ذو الأصول العائلية العريقة لم يكن يعطى فاروق ما يرغبه من اهتمام أو خنوع.

ولابد لنا أن نذكر أن الفنان الذى قام بدور كريم ثابت باشا، لم يكن يشبهه أبداً سواء فى شكله أو فى تصرفاته.. ثم إن كريم ثابت لم يعين مستشاراً صحفياً للقصر إلا فى أواخر الأربعينيات أو ربما بداية الخمسينيات بعد أن أنعم عليه برتبة الباشوية.

أما بالنسبة إلى كبير الياوران عمر فتحى باشا، فقد كان فعلاً أمينًا مخلصاً للملك، ولكن الممثل الذى اختير للقيام بدوره ربما كان يشبه قليلاً عمر فتحى باشا فى شبابه.. ولكن عمر فتحى الذى نعرف صوره وهو دوماً إلى جانب أو خلف الملك، كان شعره وشاربه قد بدآ بالشيب فى أواخر الأربعينيات. ولم يكن ينتعل الجزمة بل يرتدى بنطالاً طويلاً، ولا يعقل أن يبقى معلقًا الأوسمة على صدره بشكل دائم، لأن الضباط يضعون إشارات الأوسمة على صدورهم ولا يعلقونها إلا فى المناسبات الرسمية.

ولا شك أن الممثل الذى قام بدور السفير البريطانى (اللورد كيلرن) كان ناجحاً جداً.. فقد كان قريب الشبه به إلى حد مقبول، وكان ناجحاً جداً فى تمثيل العنجهية البريطانية الإمبراطورية، والضرب بعرض الحائط بكل الأصول والأعراف والتقاليد الدبلوماسية الدولية حينما تصطدم بمصالح الإمبراطورية. واللغة الإنجليزية التى كان يتكلمها كانت بلكنة إنجليزية حقيقية.

عدا عن كل ذلك، فكان يجب ألا نستمع إلى أغنية أسمهان (ما بين رنين الكاس) لأن هذه الأغنية كانت فى فيلم «غرام وانتقام» الذى جرى عرضه بعد سنتين تقريباً من مجريات الحلقة الـ ١٥.

ب ـ ملابس الممثلين

لا شك أن مسلسل الملك فاروق سواء من ناحية التأليف أو الإخراج أو السيناريو كان مسلسلاً ناجحاً. وليس من الغريب أن تتمكن الدكتورة لميس جابر من كتابة هذا المسلسل، فهى وإن كانت فى عمر لم يسمح لها بأن تعيش فى تلك الفترة من تاريخ مصر، فإنها ولا شك قد اطلعت عليها سواء مما قرأته عنها أو مما سمعته من الوسط الذى عاشت فيه. وكانت كما سبق القول موضوعية جداً. وقد تمكنت أن تنقلنا ببراعة إلى أجواء مصر الحقيقية قبل أكثر من نصف قرن.. بارك الله بها. ولكن الأمر الذى يدعو إلى الإعجاب أن يقوم مخرج سورى شاب بإخراج مسلسل كهذا المسلسل، وهو غريب عن البلد، لم تتح له فرصة مواكبة التاريخ الذى تمر فصول المسلسل خلاله، فتهنئة مخلصة له وللجهود الجبارة التى بذلها. ولكن المأخذ الكبير على هذا المسلسل ـ وهذا مما أضعفه وأبعده كثيراً عن الواقع ـ هو (مع احترامى لشخصه وأنا لا أعرفه) الشخص الذى تولى اختيار

الملابس والقيافات. فهو قد اخترع قيافات لم تكن أصلاً موجودة أو بالأصح ليس لها وجود، فعمد إلى نوع من زركشة الملابس ليس له أساس أو لزوم، فعرض علينا قيافات مزركشة بشكل مضحك كألبسة البوابين الذين يقفون على أبواب الفنادق الكبيرة.. قيافات ليس لها تواجد مصرى أو عالمى ولا تليق بملوك ورؤساء وزارات ورجالات كبار وملكات وأميرات وسفراء، لأنها كانت أشبه ما تكون بقيافات لاعبى السيرك أو بوابى الفنادق كما قلته آنفاً.. أو ربما منومين مغناطيسيين من الذين يمارسون ألعاب الخفة!.. وأنا لا أقول هذه الأقوال من باب المبالغة أو التجنى، لأننى سأورد العديد من الأمثلة والإثباتات على ما أقول. وإنه لمن دواعى الأسف الشديد أن السلبيات التى ظهرت فى موضوع الملابس والقيافات خفضت كثيراً من قيمة هذا المسلسل الممتاز. لقد كان بالأحرى لمصمم الملابس ألا يبتكر قيافات خيالية غير واقعية، وكان من الأفضل كثيراً لو كلف نفسه عناء الرجوع إلى المجلات المصرية القديمة كالمصور والاثنين والدنيا ويطلع على الصور المنشورة آنذاك سواء للملك أو للأشخاص الذين تناولهم المسلسل. وأنا أؤكد له أنه كان سيوفر على نفسه ابتكار كثير من القيافات المضحكة التى ظهرت فى المسلسل، والتى ليس لها أساس أو وجود فعلى.

إن القيافات الرسمية التى كانت فى مصر والتى وضع أسسها الملك فؤاد الأول وقد استوحاها من البلاط العثمانى الذى عمل فيه لفترة كانت على الأشكال التالية: بدلة التشريفة الكبرى وهذه إما أن تكون بالمعطف الأسود الذى يصل إلى ما تحت الركبة والبنطال الأسود، وذلك فى فصل الشتاء أو بالمعطف الأبيض المماثل والبنطال الأسود فى فصل الصيف، وقد تمكن مصمم الأزياء من تشبيهها إلى درجة مقبولة، ولكن هذه القيافة لم يكن الملك يرتديها إلا فى المناسبات الرسمية الكبيرة لحفل افتتاح البرلمان أو حين استقبال الملوك أو الرؤساء الزائرين، ولذا فقد كان من المضحك حقاً أن نرى الملك فاروق (كما فى الحلقة ٢٥) يذهب إلى مباراة رياضية وهو بملابس التشريفة الكبرى، وإلى جانبه أحمد حسنين باشا وهو ببدلة رسمية لا تلبس إلا ليلاً!

إن القيافة الرسمية الدارجة التى كانت فى مصر فى العهد الملكى هى (بدلة الردنكوت) المأخوذة عن العثمانيين، وهى سترة سوداء تصل إلى ما تحت الركبة مع بنطال أسود أو مخطط، وتكون ياقة السترة من الأطلس الأسود، أما فى الصيف فيكون الردنكوت من قماش خفيف وبلون فضى مع ياقة من الأطلس بنفس اللون. أما بدلة (البونجور) التى ترتدى فى المناسبات الصباحية الرسمية، وهى سترة ذات ذيل إلى الخلف وبنطال مخطط، فلم تكن تستعمل أبداً فى مصر إلا من قبل بعض رجالات السلك السياسى الأجنبى، فما بالكم إذا كان مصمم الأزياء قد حرَّف أيضاً هذه القيافة فجعلها بسترة سوداء وبنطال أبيض مما ليس له وجود فى الدنيا بأسرها. ولقد بدا الأمير محمد على وهو الرجل المهيب ذو اللحية البيضاء، بمظهر مضحك وهو يرتدى بونجور مطرزاً أشبه ما يكون بمهرج فى السيرك (الحلقة ١٢ من المسلسل).

أما قيافة الملك فاروق حين استقباله لعلى ماهر باشا، بعد زيارة هذا الأخير للسفير الإنجليزى.. فقد كانت قيافة خيالية ليس لها وجود إلا فى مخيلة مصمم الأزياء. وكانت تشبه إلى حد كبير قيافة ضباط الجيش الفرنسى قبل الحرب العالمية الثانية (كما فى الحلقة ١٠). وفى (الحلقة ١١) ظهر ناظر الخاصة الملكية (مراد محسن باشا) وهو يرتدى بدلة بيضاء تبدو أشبه بالسموكنج ويضع ربطة عنق (بابيون) بيضاء وذلك فى حفلة فى حديقة القصر. والواقع أنه لا توجد قيافة من هذا النوع أبداً!.. ثم.. هل كان الملك فاروق يستعمل الجلابية الفضفاضة وهو فى غرفة نومه.. وحتى إذا كان يستعملها فهل من الضرورى أن تكون مطرزة مذهبة كالتى ترتديها السيدات؟.. وكان من المضحك جداً أن نرى فاروق أثناء لقائه بوالدته الملكة نازلى خلال المعاتبة التى جرت بينهما، مرتدياً كسوة بلون أخضر مع ياقة مطرزة بشكل غريب وربطة عنق على شكل (فولار) مع دبوس كبير موضوع فى الجزء العلوى من (الفولار).. ولو تحرينا جميع صور الملك فاروق لما وجدنا صورة تمثله بقيافة شبيهة بتلك التى ظهر فيها!

ثم فى حفلة افتتاح البرلمان وإلقاء الملك لخطاب العرش، فإن النواب كانوا يرتدون فى مصر ما يسمى «بالبذلة الاستامبولية» وهى تشبه «الفراك»، سوى أن «الفراك» ذو ذيل إلى الخلف، أما الاستامبولية فكانت على شكل سترة تصل إلى الركبة وتستعمل معها ربطة العنق (البابيون) البيضاء. أما القيافة التى ظهر فيها النواب فى افتتاح البرلمان فكانت تشويهاً فظيعاً لبذلة (السموكنج) التى لا تلبس إلا ليلاً والتى تكون على شكل جاكيت قصير مع ياقة من الأطلس الأسود. لا كما ظهرت فى المسلسل بياقات لماعة بيضاء أو رمادية.. فهذه كانت أيضاً قيافات مبتكرة من قبل مصمم الأزياء وليس لها أصل واقعى على الإطلاق.

عدا عن ذلك كله، فهل من الضرورى كما ظهر فى الحلقة الـ ١٠ أن ترتدى الملكة نازلى حين أرادت الحديث مع ابنها فاروق حول علاقتها بحسنين لباس السهرة.. وحتى إن كانت ترتديه فما معنى وضعها الفراء على كتفيها وهى فى غرفة النوم؟

ثم إن حسنين كان دوماً يظهر فى مكتبه وهو يرتدى بدلة (الردنكوت) وبياقة من الأطلس الفضى، ويضع ربطة عنق على شكل (فولار) مع دبوس كبير وياقة منشاة مكسورة.. فهذه ليست القيافة اليومية لرئيس الديوان الملكى أحمد حسنين ولا حتى فى المناسبات الرسمية.. وكم كان من الغريب أن نرى حسين صبرى باشا عندما مثل بين يدى الملك حين تكليفه برئاسة الوزارة، أن يكون مرتدياً مع الردنكوت الأسود ربطة عنق على شكل بابيون حمراء (كما فى الحلقة ١٤). ولقد تكررت نفس القيافة مع النقراشى باشا (كما فى الحلقة ٢٧).

والفنان الذى صمم أزياء المسلسل، ألغى تقريباً ربطة العنق العادية، وألبس الجميع (فولاراً) وأصر على وضع دبوس كبير للجميع فى أعلى الفولار، كما أنه ألبس محمد محمود باشا ردنكوت «بلون بنى» وهذه أيضاً كانت قيافة «مخترعة» من قبله.

ربما يقول قائل: وما قيمة هذه الملاحظات عن الملابس والقيافة؟، ويعتبرها أموراً تفصيلية أو ربما يصفها بأنها تافهة.. ولكن الواقع غير ذلك، لأن هذه الملاحظات أضعفت المسلسل كثيراً رغم جودة الكتابة وبراعة السيناريو وحبكة الإخراج. ولو أن (دافيد لين) كان يصور لورنس أو الشيخ عودة أبو تايه أو الأمير فيصل بغير القيافة والمظهر الذى بدوا فيه أو أن المرحوم مصطفى العقاد أظهر الجنرال غرازيانى بقيافة ضابط إنجليزى أو ألمانى، وعمر المختار بشكل شيخ تونسى أو مراكشى لما كان لهذين الفيلمين التأثير الكبير الذى أحدثاه.

وأرجو من القراء ألا يظنوا أننى أبالغ فى انتقاد الملابس والقيافات، ويمكن لأى شخص يريد أن يتأكد من صحة المعلومات التى أوردتها، الرجوع إلى المجلات المصرية التى كانت تصدر فى تلك الفترة.

ولكن مع كل ذلك، يبقى مسلسل «الملك فاروق» عملاً جيداً وهادفاً وبوجه خاص بالنسبة لجيل عربى كبير، لا يعرف شيئاً عن هذه الحقبة التاريخية فى أكبر بلد عربى فى نهايات القرن العشرين، بارك الله فى الكاتبة والمخرج والممثلين جميعاً.

وكم أتمنى أن يظهر فى البلاد العربية وبالتحديد من القطر العراقى كاتب كالدكتورة لميس جابر ليكتب بنفس الموضوعية والحيادية والتجرد عن الملك فيصل الأول ملك العراق وتأسيس الدولة العراقية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى، ثم كيف انتهت هذه الدولة بمجزرة قصر الرحاب والنهاية الحزينة للملك فيصل الثانى، فإن من حق الجيل العربى الشاب أن يطلع على حقيقة الأحداث التى جرت فى أجزاء مختلفة من الوطن العربى فى خمسينيات القرن الماضى، لما يحمله من ذكرى وعبر.. مع أخلص التمنيات للدراما العربية. ■



يبقى مسلسل «الملك فاروق» عملاً جيداً وهادفاً وبوجه خاص بالنسبة لجيل عربى كبير، لا يعرف شيئاً عن هذه الحقبة التاريخية فى أكبر بلد عربى فى نهايات القرن العشرين





تعليـــــق



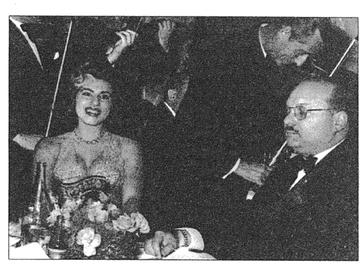
... نهـــاية مـــلك

لطيفـــة ســـالم

■■ مع تدهور الأوضاع الداخلية، راودت الملك فاروق فكرة التصالح مع الوفد الذى كان قد أعاد ترتيب أوراقه ووجد أن من مصلحته إتمام ذلك، وأجريت الانتخابات وفاز فيها، وشكل وزارته فى ١٢ يناير ١٩٥٠، وانتهج منهاجًا يختلف عما سبقه، حيث حقق الرغبات الملكية دون تردد على أساس احتواء فاروق ليتفرغ لحركة الكفاح الوطنى ضد الإنجليز. واستمر فاروق فى العبث بأموال الدولة، وحدثت عدة أزمات، كان من أبرزها العدوان على مجلس الشيوخ وقضية الأسلحة الفاسدة، ولكن لم يستمر الوفاق طويلاً بين الملك والوفد، فقد جمعتهما المصلحة، ولم يغب عن ذهن الملك لحظة أن النحاس هو عدوه اللدود، وحينما أدرك الأخير أن الرضا الملكى لن يستمر ركز جهوده على محاربة الإنجليز، فتصلب فى المفاوضات، وأقدم على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى الحكم الثنائى. واستسلم فاروق ووقع مراسيم الإلغاء خوفًا من النتائج المترتبة على الرفض فى وقت بلغ فيه غضب الشعب مداه، بالإضافة إلى الشعور الذى انتابه بأنه فى طريق الزوال، وأن مثل هذا العمل الوطنى ربما يضع به نواة يستند عليها ويستعيد بعضًا من شعبيته التى فقدها، لكنه فى الوقت نفسه استاء من أن يظهر الوفد مرة أخرى فى ثوب البطولة الوطنية، خاصة أنه - أى الوفد - شجع وبارك حركة كتائب الفدائيين ضد الإنجليز فى القناة، لذا فقد قلق فاروق من أية مكاسب يحصل عليها الوفد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه خشى من أن توسيع نطاق النضال ضد الإنجليز يتحول بعد ذلك ضده، وبالرغم من أنه كان يمتلك ورقة الإقالة، فإن الظروف التى كانت تمر بها مصر فى ذلك الوقت اختلفت عن سابقتها، وسرعان ما تهيأت الفرصة عندما اشتعلت القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، ليقيل فاروق الوزارة فى اليوم التالى للحريق بعد أن أعلنت الأحكام العرفية.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن فاروقا ترك سياسته المتأرجحة تجاه الإنجليز أثناء تلك الفترة، فكان إصغاؤه لهم واضحًا، إذ أدرك تمامًا مدى ارتباط عرشه برضائهم عنه، وفى الحين ذاته رأت لندن أن التقارب إليه وعدم معاكسته سوف يُمكنها من حل القضية المصرية لما هو فى صالحها. ولما ارتفع المد الوطنى، وجدت أن المصالح بين العرش والوفد يتيح لها الوصول إلى نتائج مرضية، لذا فقد أيدت وباركت عودة الوفد للحكم، ولكن لم تأت الرياح بما تشتهى السفن وتأجج الموقف ضدها، وبالتالى أصبح هناك اتفاق بينها وبين فاروق على إقصاء الوفد عن الوزارة، ومهدت أحداث الإسماعيلية التى وقعت فى ٢٥ يناير وحريق القاهرة فى اليوم التالى إلى تحقيق المرغوب.

وأشارت أصابع الاتهام فى حريق القاهرة إلى جهات عديدة، وحامت الشبهات حول الكثير، ودخل فاروق فى دائرة الاتهام، وسيقت الأدلة على ذلك، لكنها لم تكن موثقة، وإنما شملت تصرفات صدرت عن القصر لم تكن معهودة من قبل، ومن ثم شكلت استنتاجات تفيد أن الملك صاحب يد فى الحريق، إذ إنه أثناء اشتعاله كان على المائدة الملكية فى قصر عابدين مدعوون منهم الكثير من الضباط يتناولون الغداء احتفالاً بمقدم ولى العهد، وأن ما اتبع يخالف ما جرت عليه العادة من ترتيبات، وأنه رغم علمه بأن القاهرة ماجت منذ الصباح بالمظاهرات لم يلغ الدعوة، كما رفض تدخل الجيش فى البداية لإخماد الحريق، وعندما وافق كانت النيران قد أتت على الكثير. ومما لا شك فيه أن موقف فاروق أسهم فى مأساة أحداث هذا اليوم، ولكن لم يُجزم حتى اليوم بأنه الفاعل.



فاروق مع إيرما فى كازينو مونت كارلو (١٦ فبراير ١٩٥٤)

قسمات شخصية

لاحق فاروق الفشل فى المحافظة على مكانته بعد انخفاض شعبيته، وبالذات بعد أن أصبحت حياته الخاصة تلوكها الألسنة فى كل مكان، وسقطت نهائيًا القدوة الحسنة التى يجب أن يتمتع بها ولى الأمر. ومن المعروف أن الحياة المغلقة التى عاش فى كنفها فى بداية تكوينه أثرت على شخصيته، كما أن التصرفات غير اللائقة لأمه التى بدت عليها مع توليه السلطة أثرت هى الأخرى عليه، أيضًا فإنه افتقد الرباط الوثيق مع أخواته ما عدا فوزية، وذلك رغم التصاقه بهن فى مرحلة طفولته، كذلك فقد ورث النزعة الاستبدادية عن أبيه، هذا بالإضافة إلى بعض العادات التى تأصلت فيه ولازمته، ومنها الشراهة فى الأكل، وحب الاقتناء الذى دفعه أحيانًا للاعتداء على ملكية الغير، كذلك استخدم ذكاءه فى ممارسة القمار ليستحوذ على ما فى جيوب الآخرين.

أما عن علاقاته النسائية، فقد ارتبط فى مقتبل عمره عاطفيًا بصافيناز، تلك التى تزوجها وأصبحت الملكة فريدة التى أحبها واحترمها المصريون، ولكن لم تدم علاقة الحب بين الزوجين طويلاً لذلك المناخ الذى أوجده الملتفون حوله واستسلم له، فأصبحت له العلاقات النسائية المتعددة التى حرص فيها على المظهر أكثر من الجوهر، وقد اتسعت وقت الأزمات التى كان يمر بها سواء السياسية أو النفسية. وبطبيعة الحال كان فاروق تواقًا إلى وريث له، وذلك بعد أن رزق بثلاث بنات هن: فريال وفوزية وفادية، وأصبح طلاق فريدة متوقعًا بين الحين والآخر، وتم فى ١٩ نوفمبر ١٩٤٨. وفى أعقابه ازداد تهور الملك، وجاءت رحلته الخاصة إلى أوروبا لتسجل الصحافة الأجنبية استهتاره. ويأتى زواجه الثانى من ناريمان فى ٦ مايو ١٩٥١ ليمثل مغامرة أخرى من مغامراته، وقد أنجبت له ولى العهد الذى كان ينتظره طويلاً، واحتفل بقدومه يوم حريق القاهرة.

ومما يُسجل أن الحاشية التى أحاطت بفاروق لعبت دورًا إيجابيًا فى النيل منه، إذ تأثر بتوجيهاتها، واحتل قمتها العاملون فى القصر الذين ورثهم عن أبيه سواء من الإيطاليين أو المصريين، بالإضافة إلى الجدد الذين التصقوا به وعدوا مستشارين له فى مختلف المجالات وأوصلوه إلى حافة الهاوية.

الانـــهـــيـــار

مثلت الفترة الزمنية منذ حريق القاهرة وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ منعطفًا خطيرًا، إذ تخبط فاروق أثناءها محاولاً مصارعة الأمواج المتلاطمة التى لم تهدأ إلا بغرقه، فتتابعت وتلاحقت إبان هذه المدة الوزارات التى فشلت فى أن تنجح فى مهامها، ولعبت يد الملك بالتغيير لأهوائه ومصالحه، وكانت آخر وزارة قبل قيام الثورة هى التى صدر أمر ملكى بتشكيلها فى ٢٢ يوليو. ولم يكن فاروق بغافل عما يمكن أن يحدث فى الجيش ضد النظام القائم، لذا حرص كل الحرص على أن تكون له السيطرة عليه، ودخل فى صراع مع الوفد فى هذا الشأن، ولكن بدأ الاستياء يدب بين الضباط الشبان مع أخريات الحرب



الجدل الواسع حول مسلسل الملك فاروق، والذى اختلط فيه بعض الحنين إلى الماضى بكثير من السخط على الحاضر، انتقل فى معظمه من مربع التاريخ «الموثق» إلى مربع السياسة «بأهوائها»، الأمر الذى ربما جعل هذا «التعليق التأريخى» ضروريًا



العالمية الثانية بسبب سوء تصرفات الملك، فتعددت لقاءاتهم، وجاءت حرب فلسطين لتوحد جهودهم. وفى سبتمبر ١٩٤٩ تشكلت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، واستغلوا الأوضاع المتردية، وشكلت منشوراتهم مصدرًا لإزعاج فاروق، تلك التى انتشرت معلنة صراحة إسقاط الولاء له. ووقع الملك فى الحذر، وأدخل فى روعه سحق هؤلاء الضباط، حيث عدهم متمردين، فى وقت قرروا فيه دخول معركة التحدى، ونجحوا فى مسألة انتخابات نادى الضباط فى آخر عام ١٩٥١، إذ أصروا على أن يكون اللواء محمد نجيب مرشحهم لرئاسة مجلس الإدارة، ووقفوا أمام مرشح الملك، أيضًا فإن الضباط الأحرار فازوا ببعض مقاعد مجلس الإدارة. وسقط أعوان فاروق، وراحوا يعملون بهمة ونشاط لكسب مزيد من الانتصارات عليه، وخاصة بعد حريق القاهرة، إذ أيقنوا مدى سهولة السيطرة على القاهرة.

وأمام ذلك صدر قرار القائد العام بحل مجلس إدارة النادى فى ١٦ يوليو، ولم ينصت فاروق للناصحين له بأن ثورة الضباط لا تحمد عقباها، وأبدى استخفافًا بالأمر، وبين أنه سينكل بالخارجين عن طوعه، ويكتب القائم بالأعمال البريطانى لحكومته فى ٢٠ يوليو، ليصور الحالة الخطيرة التى عليها الجيش ويُبين أن هناك ثورة عسكرية على الأبواب. وبالفعل أسهمت تصرفات فاروق بالتبكير فى قيام الضباط الأحرار بالحركة، وأصبح لابد لهم من استعجال ضربتهم قبل أن يسبقهم الملك بعد أن توصلت أجهزة الأمن إلى معرفة الاثنى عشر ضابطًا.

المشهد الأخير

لم يكن فاروق يُقدر تمامًا خطورة الموقف فى الجيش، حيث عد ما يحدث فقاعات هوائية، وقد أعطاه جبروته وصلفه الثقة المتزايدة فى النفس، واستمر هذا الأمر حتى صباح ٢٣ يوليو، وسرعان ما علم ما قام به الضباط الأحرار. وعندما فشلت محاولات منع إذاعة بيانهم، أيقن خطورة الموقف، وانهارت حالته، وانقلب استهتاره إلى خوف سيطر عليه، فاتصل على الفور بـ «كافرى Caffrey» السفير الأمريكى فى القاهرة لإنقاذه، وهنا لابد من توضيح أن الملك كان على علاقة طيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اعتقد منذ بداية حكمه أنه من الممكن أن ينال تأييد ومساندة واشنطن ليتحدى لندن ويوقع الشقاق بينهما، ولم يدرك كنه التآخى الأنجلو أمريكى فى ذلك الوقت، كذلك فإنه أمام قوة التسلط البريطانى عليه اندفع إلى مزيد من التقرب للجانب الأمريكى الذى كان يرى فيه أنه من الممكن أن يمد يده للمساعدة فى نجاح المفاوضات مع بريطانيا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ليكون عونًا فى وقف أى تأثير شيوعى سوفيتى، خاصة مع تحرك الجماعات اليسارية فى مصر.

وعقب إذاعة بيان حركة الضباط الأحرار فى صباح ٢٣ يوليو، حدث نوع من التعاون بين الخارجيتين البريطانية والأمريكية، إذ اتحدت وجهة النظر بشأن أن ما حدث فى مصر هو أمر داخلى، وهذا ما ركز عليه اللواء محمد نجيب القائد العام للحركة فى اتصالاته سواء مع السفارة البريطانية أو السفارة الأمريكية، ومن الواضح أن كلا من لندن وواشنطن كانتا على يقين من أن فاروقًا لم تعد له القدرة على الإمساك بزمام الحكم، خاصة أن مسألة إشراك مصر فى نظام الدفاع المشترك لم تخرج إلى حيز التنفيذ. ومن ثم فإن التغيير كان مطلوبًا، وركزت بريطانيا على أن تدخل قواتها يمكن أن يحدث إذا مُست أرواح الإنجليز أو ممتلكاتهم، واتفقت مع الولايات المتحدة على أنه إذا كان هناك خطر أحمر - أى سوفيتى - فلابد من تغيير موقفهما، والمعنى واضح.

ورغم الخوف الذى يسيطر على فاروق، فقد راوده الأمل فى إمكانية حصر الحركة، ولذا فإنه عندما استقبل على ماهر فى ٢٤ يوليو - الذى شكل الوزارة - وعرض عليه الأخير مطالب قادة الحركة لم يجد من الملك الأذن المصغية فيما يختص ببعض أفراد حاشيته، ولكن لم يستمر ذلك طويلاً وسرعان ما جثم الخوف على قلبه، فانتقل من قصر المنتزه إلى قصر رأس التين رغبة فى الحماية.

ويتحرك القائم بالأعمال البريطانى والسفير الأمريكى لدى قادة الحركة لضمان الأمان لفاروق وعائلته.

وحينما اطمأن قادة الحركة على عدم التدخل العسكرى البريطانى عجلوا بالإقدام على عزل فاروق، ودارت المناقشات حول مصيره بعد تنفيذ قرار عزله، ورُجح الرأى المعتدل بأن يذهب فاروق إلى المنفى، وأقصى الرأى الخاص بضرب عنقه، وذلك وفقًا لعدة اعتبارات تمثلت فى الخشية من التدخل الأنجلو أمريكى، والرغبة فى تفادى إراقة الدماء لأن ذلك ربما يكون له رد فعل سيئ من الشعب على الحركة التى مازالت فى مهدها. وأخيرًا فإن النزعة الخيِّرة الرافضة للقسوة احتلت موقعًا على خريطة التنفيذ، ومعروف أنه من سمات المصريين أنهم شعب لا يميل إلى العنف.

وفى صباح ٢٦ يوليو تم حصار قصر رأس التين بواسطة الحركة، وردًا على ذلك أمر فاروق بتحصين القصر، وحدث تبادل قصير لإطلاق النار بدأه القصر وأسفر عن خسائر بسيطة، وعلى الفور استسلم القصر، وتدخل السفير الأمريكى فى الحال وهدأ من روع فاروق الذى التقى به رئيس الوزراء ليعرض عليه الإنذار، واحتوى على مطلبين: التنازل عن العرش لصالح ابنه أحمد فؤاد الثانى فى موعد غايته الظهر، وأن يترك مصر بالطريقة التى يختارها فى موعد غايته السادسة مساء، فصال فاروق وجال، وصرح بأنه سيقاوم، وأن لديه القوة والقدرة. وهنا تلطف معه على ماهر وأقعده عن ثورته، وبين له أن نتيجتها حرب أهلية لا يرضاها، وأن الشعب تفاقم سخطه، وبالتالى فموقفه لا يؤهله لأى حركة مقاومة، وأن ما عليه إلا تحقيق المطلوب منه لضمان العرش لابنه. فتقبل فاروق الأمر الواقع، وطلب من السفير الأمريكى أن يواصل جهده ويعمل على سلامته ويحضر لتوديعه قبل السفر، وفضل الملك أن يكون سفره على يخت المحروسة، وعرض عدة طلبات فيما يختص بالمرافقين معه، وأن يحافظ على كرامته فى وثيقة التنازل عن العرش، وأن تتخذ جميع مراسم التوديع الخاصة بمغادرة الملك البلاد.

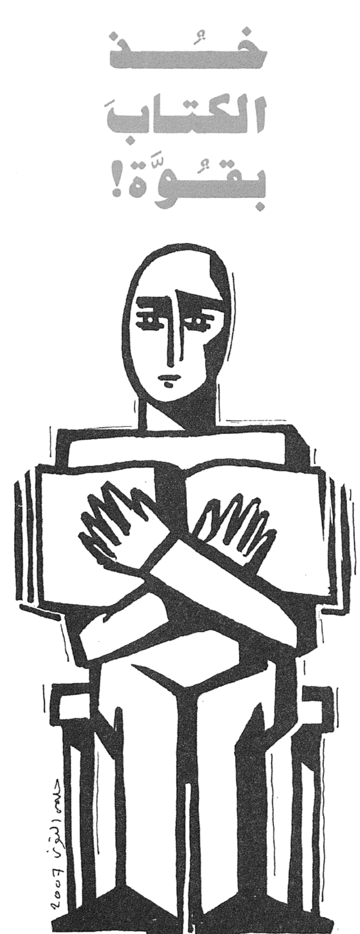
ووقع فاروق على الوثيقة مرتين، واختلفت الآراء حول ذلك. وعلى أية حال فقد كان الموقف عصيبًا رغم أنه عاش توقعاته منذ حادث ٤ فبراير، ولكن فقدان السلطة والجاه ليس بالأمر الهين فى الوقت الذى سيطرت عليه الرغبة فى إنقاذ نفسه مهما كان الثمن. واستنفر السفير الأمريكى والقائم بالأعمال البريطانى نفسيهما من أجل العمل على سلامة فاروق ورحيله فى هدوء.

ومضى الملك السابق يعد نفسه لخروجه الأخير من مصر، وارتدى زى أمير البحار، والتقى بأختيه فوزية وفايزة وزوجيهما وحماته، ثم حضر السفير الأمريكى وسكرتيره ورئيس الوزراء، وسرعان ما غادرت ناريمان وأحمد فؤاد وفريال وفوزية وفادية القصر، وحيا فاروق موظفيه وضباطه، وأجريت له المراسم الرسمية، وصافح مودعيه وقال لعلى ماهر: «أدعو لكم بالتوفيق، وأتمنى كل الخير للبلاد، وأنه يجب على الإنسان أن يخضع لحكم الظروف والأقدار، وأسأل الله للجيش وللبلاد كل النجاح» وحضر محمد نجيب ومعه بعض ضباط الحركة متأخرين لوداع فاروق الذى دار بينه وبين القائد العام للحركة الحوار المعروف. ومما يذكر فى هذا الصدد أن ترتيبات الوداع أعدّ لها السفير الأمريكى مع رئيس الوزراء.

ومع غروب شمس ٢٦ يوليو ١٩٥٢ تتحرك المحروسة لتقل فاروق بعد أن هوى إلى منفاه، ويختار إيطاليا للعلاقة العاطفية التى تربطه بها، فيعطى أمره بالإبحار إلى نابولى التى اختارها جده إسماعيل، وكان قد أهدى له قصر فيها، كما وضع فاروق فى اعتباره أنه سبق أن رحب بملكها فيكتور عمانويل وأسكنه قصر أنطونيادس بالإسكندرية عام ١٩٤٦. وبذلك يسدل الستار على آخر ملك حكم مصر بعد أن أمضى فى حكمها فترة ضمت عقدًا ونصفًا من الزمان، زخمت بالأحداث التى أدار دفتها، ولم يكن ربانًا ماهرًا أمام الأنواء، فاستبد وطغى. فلم ترحمه، فكانت النهاية التى لم تقتصر عليه فقط، وإنما دخل تحتها أيضًا مكونات العصر الملكى برمته، لتبدأ مصر فترة جديدة من حياتها فى ظل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وتختار لنفسها النظام الجمهورى، وتسقط كل ما سبقه. ■

محمد عدنان سالم

خُذ الكتابَ بقُوَّة!



■■ هل كانت مصادفة أن يأتي الأمر بقراءته في أول آية يتنزل بها وحي السماء، عندما أراد الله لهذه الأمة أن تنهض من رقادها على رمال الصحراء، فترص صفوفها وتوحد كلمتها أولاً، ثم تنشر رسالتها ثانياً، لتبني للإنسانية حضارة تشع أنوارها على ثلث المعمورة في فترة وجيزة معجزة، ولتقدم أصدق وأسرع نموذج تطبيقي فعال للأمر الإلهي الأول (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم) «العلق ٩٦/١-٣»؟!

هل كان حدثاً عارضاً أن يجعل الرسول تعليم الأبناء فداءً للأسرى، وأن يؤسس معاوية نواة بيت الحكمة، ثم يقوم خالد ابن يزيد بتنظيمها وتزويدها بالكتب المترجمة والمؤلفة، وأن يطلب المأمون أحمال الكتب شرطاً للصلح مع بعض البلاد المفتوحة، وأن يدفع لمترجمه حنين ابن اسحاق وزن ما يترجمه له من الكتب ذهباً، مهما بالغ في ثخانة ورقها وتكبير حروفها وتوسعة ما بين أسطرها؟!

ألم يهب الأمريكيون لإصلاح نظم التعليم لديهم، عندما سبقهم الروس إلى القمر، بوصفها مكمن الداء ورأس الدواء؟!

ألم يهب الفرنسيون عندما لاحظوا نسبة ضئيلة من التراجع في القراءة لدى أجيال الشباب عام ١٩٩٣ لينظموا مهرجان جنون المطالعة، فيفتحوا أبواب المكتبات العامة والخاصة، وينزل الوزراء والمفكرون والكتاب إلى الشوارع والحدائق والساحات، ليعيدوا للشعب زخم القراءة؟!

إن الكتاب خزانة المعرفة، والقراءة سر التقدم ومفتاح النهوض.. لا أعني قراءة المقررات المدرسية، فهي قراءة تستهدف الشهادة ولا تبني الثقافة، وتنتهي بالحصول على هدفها، فيتردى المجتمع في أمية ثقافية لاحقة، دونها أمية الحرف، نلاحظ آثارها في عزوف أجيال الشباب عن متابعة التحصيل وعن القراءة، وفي ضحالة المعارف، وركاكة اللغة، ومستوى الأحاديث في الأسمار، ونوع الإجابات في المسابقات المعروضة على الملأ في الفضائيات، إنما أعني القراءة خارج المقررات المدرسية، القراءة المستمرة من المهد إلى اللحد، أعني القراءة التي ترقى بالكتاب إلى مستوى الحاجة، فيكون الكتاب رغيف الفكر إلى جانب رغيف المعدة. هل يقوم جسد من دون رغيف؟! كذلك لن ينمو فكر من دون كتاب..

بل إن هم الجسد إلى الرغيف يورث البطنة والتخمة، ونهم الفكر إلى الكتاب يوسع آفاق المعرفة، ويهتك أستار المجهول، ويكشف أسرار التقدم.. إن وعاء المعدة محدود، ووعاء الفكر بلا حدود.. من يقرأ أكثر يرتق أكثر، وستكون منزلته عند آخر كلمة يقرؤها.

لا أحب إنشاد القصائد في مديح الكتاب، من أجل أن ألفت الأنظار إليه، فقد أغناني الشعراء عن ذلك، إنما أريد أن ألفت النظر إلى أننا، في عصر المعلومات وتفجر المعارف وثورة الاتصال، لن نستطيع أن نحتفظ بجهلنا أو تجاهلنا للكتاب، لن نستطيع أن ندخل حلبة السباق العالمي من دون كتاب.

لقد أصبحت الأمم تقاس بمقدار ما تملكه من ثروة المعلومات، لا بما تملكه من ثروة المال وقوة السلاح وتطاول المداخن الشاهقة وناطحات السحاب. ولقد تنامى العمل الفكري على حساب العمل اليدوي، وها هي ذي أيرلندا خلال عشرين عاماً تنافس أمريكا فتصدر من البرامج الإلكترونية ما قيمته ٦٠ بليون دولار، بعد أن أصلحت نظامها التعليمي وعرفت الطريق.

إن المعلومات سباق الألفية الثالثة، ونحن الآن على عتبة السباق، وسيقال لنا عند خط النهاية: (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) «الإسراء ١٧/ ١٤».

يقول ليف فلاديمير مدير مكتبة داج همر شولد الأسبق: «إن أي مصدر للقوة ليس بوسعه أن يولد قدراً من النور، أكبر مما يصدره كتاب صغير» ولا أدل على صدق مقولة فلاديمير من هذا الحشد الكبير الذي تحشده الرقابات لمحاصرة الكتاب، خوفاً من أن يتسرب منه شعاع يضيء، أو ريح تعصف، أو هدير يقلق. ذلك أن الكتاب فكرة، والفكرة إبداع، والإبداع تجديد، والتجديد تجاوز للمألوف، وتجاوز المألوف مخالفة، والمخالفة تحدٍ، والتحدي يخلق الآخر، والآخر تعدد، والتعدد يثير التصادم، ومن التصادم ينبعث الرعد، صوتاً يخرق الصمت، ونوراً يضيء ظلام الطريق، ويبعث على الحركة، والحركة حياة.. من هذا كله تنبع قوة الكتاب، وقديماً قيل: «إذا أردت أن تستريح، فعليك أن تغلق الباب الذي يأتيك بالريح».

ولكن هل يملك الكتاب فعلاً كل هذا السحر؟ وهل يحمل كل كتاب حقيقة خالصة بين دفتيه؟ هل يمكن لكتاب من عند غير الله أن يكون صواباً كله؟ هل يخلو كتاب من خطأ، حتى لو أسميناه خطأ مطبعياً؟! أليس في بعض الكتب تضليل يخلط الحق بالباطل، ويلبس الشر لبوس الخير، بل أليس في بعضها ما هو شر كله؟ فكيف يستطيع الإنسان أن يميز الخبيث من الطيب؟ ألا يستدعي الأمن الثقافي للمجتمع إقامة الحواجز

هل يملك الكتاب فعلاً كل هذا السحر؟ وهل يحمل كل كتاب حقيقة خالصة بين دفتيه؟
هل يمكن لكتاب من عند غير الله أن يكون صواباً كله؟
هل يخلو كتاب من خطأ، حتى لو أسميناه خطأ مطبعياً؟!



والغرابيل لمنع الخبيث من التسلل إلى عقول أفراده؟!

أبداً.. لست أرى ذلك، بل إننى أرى فى ذلك نوعاً من الأحادية يورث العقم، ويقتل الإبداع، ولا تنبثق الحقيقة إلا من تصادم الأفكار، ولن يعرف الحق إلا إذا اقترن بالباطل: (كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) «الرعد ١٣/ ١٧».

إن المصفاة الحقيقية للأفكار فردية وهى العقل الذى وهبه الله لكل إنسان، وأمن المجتمع الثقافى لا يتحقق بفرض الوصاية على الإنسان، وتجريده من حقه فى الاطلاع، وحرمانه من متعة تقليب وجهات النظر، وإزالة الأدران وتنحية الأشواك عن وجه الحقيقة.

إننى أثق بالقارئ ووعيه.. أثق بالقراءة الحرة وقدرتها على تصحيح مسارها وتلافى أخطائها، وأشجب كل أشكال الوصاية والحجر على الأفكار.. وأرى أن الوصى مهما سمت مواهبه، لا يمكن أن يكون أوعى من القارئ، وأقدر على تنحية السم والعفن من غذائه الفكرى.. وأن ترك القارئ يكون مناعته الفكرية ذاتياً، أولى من افتراض قصوره المزمن، وتعطيل عقله، لممارسة التفكير بالنيابة عنه.. وأن الأمن الثقافى للمجتمع لا يمكن أن يتحقق بأفراد قاصرين، تعوزهم المناعة الفكرية فى وجه الاختراقات الثقافية الجارفة، فى عصر العولمة وثورة المعلومات وتقنيات الاتصال.

أولوية الكتاب

تُرى عن أى أولوية للكتاب يمكننى أن أتحدث؟! عن الدور النظرى الذى يلعبه الكتاب فى بناء الإنسان وإشادة الحضارات وإنهاض الأمم، فأملكم بحديث مكرر طالما سمعتموه وقرأتموه، قصائد فى مديح الكتاب خير جليس، ومحاضرات عن حاجة الإنسان للقراءة، وسرد تاريخى عن اهتمام الأمراء والحكام وبناة الحضارات السالفة بالعلم والعلماء، وإغداق العطايا على المؤلفين والمترجمين؟! أم عن الواقع العملى الذى يشغله الكتاب فى حياتنا، فأصدمكم بواقع مرير يعيشه الكتاب بيننا، وأؤنسكم بزفراته الحرى، وشكاواه الصارخة، وأناته الموجعة، وأزعجكم بأرقام مخجلة عن عدد العناوين التى تصدر فى الوطن العربى وعدد النسخ الذى يطبع منها، ونصيب الفرد من ذلك، وما يستهلكه من الورق المطبوع فى الكتب والصحف والمجلات، مقارناً بما يستهلكه الفرد وما ينتجه الناشرون فى الدول المتقدمة؟!

وعن أى إنسان يمكننى أن أتحدث؟! عن الإنسان الذى يخططون لإنتاجه فى معامل الاستنساخ بمواصفات نموذجية معينة وموحدة، يتحكمون فيها من خلال التلاعب بموروثاته، فيلبون طلبات الشركات والمؤسسات والحكومات بحسب احتياجاتها إلى جندى مغوار، أو مزارع قن، أو عامل حاذق، يضاهئون به خلق الله؟! أم عن الإنسان الذى خلقه الله بيديه فى أحسن تقويم، ثم نفخ فيه من روحه، وخصه بقسمات وطبائع خاصة به، وسوى بنانه وأفرده ببصمة لا يشاركه فيها أحد لتكون بمثابة توقيعه، ووهبه العقل وميزه به من سائر مخلوقاته، وأمره بإعماله فى الكشف عن قوانين الكون المسخر به، وهداه النجدين وخيره أن يسلك أحدهما بمحض اختياره، وحمله المسئولية أمانة أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان ثقة بنفسه واعتداداً. فأسجد الله له ملائكته تقديراً وإكباراً وحسن ظن به، فى أنه سوف يحسن اختيار طريق الخير رغم قدرته على اختيار طريق الشر.

ثم جعل منه الذكر والأنثى، وسيلة لحفظ نسله ونمائه، وجعل من آياته فيه اختلاف ألسنته وألوانه، وجعل منه شعوباً وقبائل وأمماً وحضارات، تتدافع وتتخاصم ثم تتحاور وتتعارف وتتفاهم، وعد ذلك الاختلاف ضرورة لتطور الإنسانية ونموها وتلاقح الثقافات وارتقائها (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) «البقرة ٢/ ٢٥١».

وعن أى كتاب أتحدث؟! عن الكتاب فى وعائه الورقى الذى يتأهب للرحيل، بعد أن أدى خدماته الجلية للإنسانية قرابة خمسمائة عام، وأمد المعرفة بوابل من النسخ ظل ينثرها بين أيدى الناس منذ اخترع جوتنبرج المطبعة عام ١٤٤٠، تربع خلالها على عرش المعرفة بلا منازع، حتى جاءته الوسائط الحديثة تجتذب إليها سمع الإنسان أصواتاً مسجلة، وتجتذب بصره صوراً مرئية، وتجتذب سائر حواسه حركات إلكترونية تأخذ بالألباب؟!

أم عن الكتاب فى وعائه الإلكترونى القادم بسرعة مذهلة، يغير ويبدل فى الكتاب كل شىء، شكله وحجمه، وطرق خزن المعلومات فيه وسبل استرجاعها.

يختزل مكتبة ضخمة تحتاج إلى مائة ألف متر من الأرفف لاستيعاب كتبها فى علبة صغيرة تحتوى على بضعة أقراص ليزرية، لا يتجاوز قطر الواحد منها ١٥ سم وسماكته أقل من ١ مم، ثم يعود فيختزل لك كل احتياجاتك اليومية من المعلومات ووسائط الإعلام والاتصال فى جهاز جيبى صغير يضع المعلومة بين يديك مثل خاتم سليمان كلمح بالبصر. يعد بإراحة المكتبيين من أعباء التخزين والأرشفة، والتصنيف، وإسعاد ربات البيوت بتوفير الجدران التى كان يحتلها الكتاب ويقول هل من مزيد، فيستبدلن به لوحات الفن والزينة، ويبشر أنصار الطبيعة وحماة البيئة، بإنقاذ شجرة من القطع مقابل كل نسخة مطبوعة من كتاب، وحماية البيئة من التلوث بآلاف الأطنان من الأحبار ورصاص الأقلام، ونفايات المطابع، وفضلات الصحف، والكتب المستعملة.

ما أريد أن أؤكده أننا نعيش فى عالم متميز، تجتاز فيه الإنسانية منعطفاً حاداً، ومثلما تدرجت فى عصور الرعى والزراعة والصناعة، ها هى ذى تدخل الآن عصر المعلومات، الذى تتنامى فيه العمالة الفكرية على حساب العمالة اليدوية، وتتبدل فيه مقاييس التقدم ومعايير ارتقاء الأمم، وتترك خصائصه آثارها العميقة على طرق التفكير، وأنماط العيش، وسبل التخاطب، وأساليب التربية والتعليم، وقواعد السلوك، وسائر العلاقات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، المحلية منها والإقليمية والدولية.

وككل التحولات الكبرى فى التاريخ سوف تضطرب القيم والموازين وأنماط السلوك خلال مراحل التحول، وسوف يقاوم الإنسان التغيير ويدافعه بحكم الاعتياد، إلى أن يستقر الجديد وتتثبت فعاليته وجدواه.

حالة عزوف

إننى أعرف أن أمة (اقرأ) باتت لا تقرأ. وأن إهمالها القراءة لم يعد سراً يجهله أعداؤها، بل هم يستيقنونه إلى درجة أنهم ينشرون مخططاتهم ونواياهم المبيتة ولا يخشون اطلاعهم عليها: فلقد سبق لدايان أن طمأن إسرائيل حين نشر بعض مخططاته إلى أن العرب لا يقرءون.

وأزمة الخليج عام ١٩٩٠ مرت دون أن نستطيع قراءتها فى ضوء التاريخ ولا فى ضوء الواقع، فضلاً عن المتوقع.. لقد كان كل شىء فى هذه الأزمة مبرمجاً ومخططاً له بدقة، ومعلناً عنه فى وقت مبكر، فى كتب ودراسات ترجمت إلى العربية ونشرت فى أوطاننا.. مررنا بها كأنها لا تعنينا، ثم نفذنا مضامينها كلها بدقة وأمانة كما أريد لنا. وأعرف كذلك أن مناهجنا التعليمية قد ربطت طلابنا بالمقررات الدراسية ومختصراتها، فقتلت لديهم روح البحث، وصرفتهم عن المطالعة خارج المنهاج، وكرهت إليهم القراءة والكتاب، حين حصرت هدفهما بالامتحان والشهادة. تنتهى الحاجة إليهما وتبدأ القطيعة معهما بالنجاح فى الامتحان وتحصيل الشهادة.

إن مناهج التربية والتعليم، هى المسئولة عن غرس عادة القراءة لدى الإنسان من أجل بناء مجتمع قارئ. وهى القادرة على تكوين القارئ النهم، الذى يعد الكتاب حاجة أساسية لتنمية عقله وفكره، مثلما يؤمن بأن الرغيف حاجة أساسية لنماء جسده، بل هو يشعر بأن معدته محدودة إذا تلقت من الطعام أكثر من حاجتها أصيب بالتخمة، بينما عقله غير محدود يلتهم كل ما يقدم له من زاد المعرفة، ويقول: هل من مزيد؟! فإن هى أرادت أن تستخدم طاقتها فى بناء الإنسان القارئ، أقبلت عليه منذ الصغر، توسع مداركه، وتفتح له آفاق المعرفة، وتغريه بها مستغلة ما فطر عليه من حب الاطلاع، والسعادة بالتعرف على المجهول، فتطارحه الأسئلة وتدفعه للتساؤل، ثم تضع بين يديه المراجع والمصادر، وتتركه يواجه تعب الولوج إليها، ويعانى مشقة البحث فيها، وينتابه الإحباط تارة والأمل أخرى، حتى يظفر بما يريد، وتغمره السعادة بما حصل عليه بجهده وتعبه وسهره.. عند ذلك ستقوم بينه وبين الكتاب ألفة ما بعدها ألفة، وسيشعر أن حياته مدينة للكتاب، وأنه لا يستطيع أن يعيش من دون كتاب، يصطحبه معه كل حين، يحيى به كل وقت انتظار فيزهق ملله، ويخصه بساعات من وقته يخلو بها معه.

أما إذا أرادت أن تضرب به مثل السوء، وتذهب به خارج دورة الحضارة، فتصرفه عن عادة القراءة، وتبغضه بالكتاب، وتشغله بسفاسف الأمور.. فإنها تعمد إلى ربطه بالمقررات، وصرفه عن المراجع، وقتل روح السؤال والتساؤل لديه، وإراحته من عناء التفكير ومشقة البحث، فها هو ذا الكتاب المقرر بين يديه، قد احتوى علم الأولين والآخرين، وما عليه إلا أن يقرأه آناء الليل وأطراف النهار حتى يحفظ كل حرف فيه، ويصبه فى ورقة الامتحان صباً. فينال الشهادة، وتنقطع بها صلته بالكتاب، بل يصبح الكتاب أبغض شىء إليه، لأنه كان الضيف الثقيل المفروض عليه، وها قد انتهت حاجته إليه.. أفتراه يبحث عن نظيره ليعكر عليه صفو هدوئه.

والمناهج، عندما تمارس هذا الدور، تلغى كل دور لمكتبة المنزل أو المدرسة، ولحصة المطالعة، ولواجب المطالعة الحرة، ولحلقة البحث، وتصنع من الكتاب أعدى عدو للإنسان.

خذ الكتاب بقوة!

وأعرف كذلك أن حالة العزوف القرائي والأمية الثقافية اللاحقة، قد أضرت بحركة النقد، وحدت من تداول الأفكار، وأدت إلى ركودها. فضمر الإبداع وتحجرت العقول، وغاضت الثقافة في المياه الآسنة.

وأعرف أيضًا كيف تقوقعت (الأيديولوجيات) في الوطن العربي، وفرضت الوصايات، وشحذت مقصات الرقباء، وروج لقرارات المنع والحجر على العقول، وأدخلت في قوالب جاهزة متباينة ومزاجية، وفرضت ثقافة الاتجاه الواحد، واحتكرت الحقيقة، وحجب الرأي الآخر، وهدأ الحوار، وغاب النقد، وساد الصمت، وضمر الإبداع، وابتلي الفكر بالعقم، وتقطعت أوصال الكتاب، فأوصدت دونه الأبواب، وحرم القارئ من حقه الطبيعي في الاطلاع. أعرف كيف اقتنصت وسائل الإعلام العابر والمعلومات السريعة، شريحة كبيرة من قراء الكتاب، بما تملكه من جاذبية وسائطها المتعددة في الصوت والصورة والحركة، فآثروها على الكتاب، وأسلموا إليها قيادهم وأوقاتهم، وفضلوا التحول إلى متلق يستمع ويشاهد مسترخيًا على أريكته، يتجرع ويحتسي ما يقدم له من دون كبير تدخل أو اختيار.. آثروا ذلك على معاناة القراءة الجادة، وما تتطلبه من تركيز ووعي، فتسطحت الثقافة، ولم يبق للكتاب إلا قارئ للمقررات على مقاعد الدرس، أو مثقف هاوٍ عاشق للكتاب لم يخدعه البريق. أعرف كيف انتحل العازفون عن القراءة الأعذار الواهية لتسويغ عزوفهم المنكر عن الكتاب وهجرهم المستهجن له، متعللين بغلاء سعره وضعف قدراتهم الشرائية ومحدودية دخلهم تارة، وبتعقد سبل الحياة وتعاظم هموم العيش وضيق الوقت تارة أخرى، وأن لو صح منهم العزم وصدقت النية لوفروا للكتاب الوقت والمال. أعرف ذلك كله، وأعرف أن هذه الإعاقة المزمنة التي حلت بالكتاب قد حجبته عن أداء دوره المنشود في بناء الإنسان، وأن العقاقير المسكنة وقصائد المديح المدغدغة للعواطف لم تنفع في علاج مشكلاته التقليدية.

الخروج من الإعاقة

لكنني واثق من أن الكتاب في عصر المعلومات، وانفجار المعرفة والاتصالات، سوف يتجاوز كل أزماته المزمنة ومشكلاته التقليدية. وأن اختراق المعلومة لكافة الحدود والسدود والحواجز والقيود، وغزارتها بما يشبه طوفان نوح؛ تنهمر بها الفضائيات من السماء، وتنبجس بها الشبكات العنكبوتية عيونًا من الأرض، وسهولة تخزينها وتصنيفها واسترجاعها، سوف يغير أذواق الناس وأنماط تفكيرهم وأساليب تعاملهم وتحصيلهم. وأن تعدد الخيارات أمام المتلقي ووفرتها بين يديه، سوف يكسر احتكارات المعرفة، ويضع الجميع أمام فرص متكافئة على عتبة سباق واحدة تشتمل على الغني والفقير، والقوي والضعيف، يفوز فيه من كان أحسن عملاً. ولسوف تسقط الوصايات الفكرية وممارسات القمع والحجر، وتنفتح القواقع الأيديولوجية والتيارات الفكرية والثقافات على بعضها بعضًا ويسود الحوار. ولسوف يعلو شأن الثقافة ويشتد تأثيرها ويزداد دور المثقفين. وسيتقن الإنسان السباحة في خضم المعلوماتية حين يجد نفسه ملقى في غماره. وسيواصل الإنسان كدحه لمعرفة الأسماء كلها التي علمها الله لأبيه آدم من قبل. وسوف يستعيد الكتاب دوره المنشود في بناء الإنسان، ولن يكون يومها خير جليس للإنسان، لأنه سوف يكون هو الإنسان.

هل أنا بذلك أسحب أزمة الكتاب من أيدي الدارسين والباحثين، وأترك حلها لحتمية التاريخ وسنة التطور، تحلها بعفوية وتلقائية من دون جهد إنساني ولا عناء. حاشا أن أفعل ذلك، وأنا أومن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إنما أردت أن ألفت النظر إلى التغيير الكبير في طبيعة الأزمة، في ظل ثورة المعلومات والاتصالات والعولمة، وأن المشكلات التقليدية المزمنة للكتاب التي لم نفلح في حلها، قد حلت محلها مشكلات جديدة ملحة، لم نعكف على دراستها بعد ولم نتبين ملامحها.

إن علينا أن ندرس خصائص المعلوماتية وتأثيراتها المتوقعة المترتبة عليها، وأن نتأهب للعبور إلى عصر المعلومات على بصيرة.. وأخشى ما أخشاه أن نسقط على جسر العبور بين المرحلتين فلا نحن نقرأ الكتاب التقليدي ولا نحن نقرأ كتاب المعلوماتية المقبل لا محالة.

لن يواجه الكتاب - في طريق رحيله - عن الورق، وتحوله إلى أوعيته الإلكترونية الجديدة - غير تشبث الإنسان بقديمه ومألوفه وعاداته، ورفضه الغبي لكل جديد، وسيتذرع لرفضه بألف حجة وحجة، وسيذرف دموع التماسيح أسفًا على فراق الكتاب، بعد صحبة حميمة استمرت مئات السنين. وهي ذرائع واهية، اعتاد الكتاب عليها، إبان كل رحلة يعتزم القيام بها إلى مسكن جديد، وما هي إلا مسألة زمن وأجيال.. يألف بعده الجيل الجديد ما أنكره الآباء، وتذهب أوعية الآباء ومألوفاتهم إلى متاحف التاريخ.. هكذا واجه الإنسان القديم آلات الطباعة متشبثًا بالنساخة اليدوية، زاعمًا أنها تنبض بفيض من روح الناسخ وفنه تارة، وأنها بدعة لم يقترف الآباء إثمها تارة أخرى، فتأخرت المطبعة عن خدمة الفكر في العالم الإسلامي زمنًا طويلاً، حتى تحجر هذا الفكر بين أيدي النساخ.. أما أنها ذرائع واهية، ودموع كاذبة، فهي كذلك عند الشعوب (النائمة) - على الأقل -، لأنهم يتذرعون بها لتسويغ عزوفهم القرائي الراهن، فلا يقرءون الكتاب في وعائه الورقي التقليدي، وتعوزهم الهمة لامتلاك ناصية قراءة الكتاب في أوعيته الإلكترونية الجديدة، والقدرة على التعامل معها.

سيذهب الكتاب التقليدي الورقي، ويحل محله الكتاب الجديد الإلكتروني - حتمًا - ويبقى الكتاب - في رأيي - كتابًا، يتغير فيه الشكل والوعاء، ويبقى المضمون، ولا يستقر من أوعيته في أيدي الناس، إلا ما ينفع الناس، ويكون أيسر استخدامًا، وأقل تكلفة، وأجدى نفعًا.

التعايش في مرحلة الانتقال

وسوف يتعايش الأسلوبان الورقي والإلكتروني، بمقدار ما يتمكن الورقي من الانسحاب والإلكتروني من الحضور في عملية إعادة انتشار تدريجية على خطين متقابلين، على نحو ما يتعايش قطارا ذهاب وإياب في نقطة التقاء تبدأ صغيرة، ثم تتطابق، ثم تضمحل، ثم يتباعدان بعد أن يتبادلا تحية الوداع.

وما يقال عن تعايش مشابه لتعايش الشاشة الكبيرة مع الصغيرة، والصحافة الورقية مع الإذاعة والتلفاز، فإني أراه تشبيهًا مع الفارق، وأنه سينقضي بانقضاء الحاجة إليه، بمعنى أن الشاشة الكبيرة ستبقى ما بقيت الحاجة إليها قائمة.. وأن التشبيه الأكثر تطابقًا مع موضوعنا هو: تعايش وسائط الإنارة بفوانيس الزيت والغاز مع وسائط الإنارة بمصابيح الكهرباء، وكذلك وسائط النقل على ظهور البغال، مع النقل بالسيارات والطائرات. إنها ما تزال متعايشة (أي موجودة بشكليها التقليدي والجديد)، ولكن بأية نسبة؟!

وليس المطلوب لتجاوز (الأزمة) - وأنا لا أرى أنها أزمة، بقدر ما هي صعوبة عابرة، مثل صعوبات السفر أو الانتقال إلى مسكن جديد - سوى:

١ - أن يخرج جيل الكتاب الورقي - الذي هجر الكتاب وتردى في أمية لحقت به منذ أن غادر مقاعد الدرس - من حالة عزوفه القرائي، ويتعرف من جديد على أهمية القراءة، ودورها في ارتقاء الأمم والأفراد على السواء، ويروض نفسه على تخصيص وقت يومي - مهما كان ضئيلاً - لقراءة جادة في كتاب مختار.. وأن يحاول الاطلاع - ولو بقدر يسير - على أوعية المعلومات الإلكترونية الجديدة، ويحاول تشغيلها، والتآلف معها، وعدم التوجس منها، حتى لا يبدو في أعين أولاده وأحفاده متخلفًا ومناهضًا للتقدم.

٢ - أن تغير المؤسسات التربوية ومعاهد التعليم ومناهجها باتجاه ثقافة الحواسب والبرامج الإلكترونية، فإنها ثقافة المستقبل، وأن تتعجل ذلك قبل أن يفوتها القطار، فتفقد سيطرتها على الأجيال واحترامها لها..

إن الأجيال القادمة، هي أجيال الكمبيوتر لا محالة، فتحت أعينها عليه، وتمرست أصابعها بنقر أزراره، وتوجيه فئرانه، واندمجت معه لعبًا وتعلمًا، وربما هربت إليه إن لم تجد في المدرسة والبيت ما يروي ظمأها منه.. هذا إذا لم يغير الكمبيوتر أساليب التعليم وأنماط التعلم ويلغي دور المدرسة نهائيًا، مستبدلاً بها التعليم عن بعد.

٣ - أن تجتهد دور النشر في الارتقاء بعملها على مسارين:

أولهما: مسار النشر التقليدي، فترتقي به في حسن الاختيار لموضوعاته، وتوضيح معاييرها في هذا الاختيار، وتغليب جانب الإبداع والتجديد والإضافة العلمية.. فتعدد مصادر المعرفة ووفرة إنتاج المعلومات، لم يتركا مجالاً للتكرار والاجترار والتقليد والمحاكاة، وكذلك تحسين تواصلها مع القارئ، وابتكار أساليب جديدة لجذبه إليها، ولفت نظره عن الوسائل الإعلامية الأخرى التي باتت أكثر إغراء.

وثانيهما: مسار النشر الإلكتروني، الذي يجب أن تستعد للتحول تدريجيًا إليه، قبل أن يفوتها القطار فتصبح من المهن المنقرضة التي انقضت حاجة الناس إليها إلا على سبيل الفولكلور.

ولست في ذلك أتحدث من فراغ، فالشركات المنتجة للبرامج (بما فيها الكتاب الإلكتروني)، شركات جديدة متخصصة لا علاقة لها بصناعة النشر، بل هي تنأى بنفسها عن أن تنسب إليها، وتكون جزءًا منها، وتنكر على الناشر التقليدي أن يطور نفسه باتجاه النشر الإلكتروني، وترى أنهما صناعتان منفصلتان متباينتان.

والمعلومات قد أخذت فعلاً ترحل عن الورق إلى الأقراص الممغنطة والإنترنت، بادئة بالموسوعات والمعاجم والأطالس، فتوقفت الموسوعة البريطانية عن صدورها التقليدي على الورق، ولحقتها لاروس وغيرها من الموسوعات الذائعة. وستتبعها أسفار أخرى بعد أن تختار أزياءها وأساليبها الجديدة التي ستحتال بها على القارئ، لتكسر الحواجز التي أقامها دونها، وتخترق صدوده عنها.

فلنصغ من جديد لنداء (اقرأ)

قد رأينا أثر (القراءة) في بناء الإنسان وتقدمه وارتقائه.. حتى إننا

خذ الكتاب بقوة!

نستطيع القول بثقة «إن القراءة للإنسان ضرورة لا غنى له عنها، ولا يمكنه العيش بدونها، فهى الغذاء لروحه، مثلما الطعام غذاء لجسده».. بل إن القراءة هى ما يميز الإنسان من الحيوان، إذ هما يشتركان فى حيازة الجسد وتوفير متطلباته، ويتمايزان فى انعدام قدرة الحيوان على التفكير، واعتماده على قواعد السلوك التى تمده بها غريزته وموروثاته (جيناته)، وامتلاك الإنسان أدوات المعرفة التى بها قد تأهل للاستخلاف فى الأرض، عندما تقبل - بشجاعة - عرض الأمانة، وحمل - بثقة واعتداد - مسئوليتها، فاستحق تكريم الله تعالى، وأمره الملائكة بالسجود له.

فأما تميز الإنسان من الحيوان - على الرغم من اشتراكهما فى استخدام الطعام وسيلة لنمو الجسد - فإنه واضح فى المراحل التى قطعها الإنسان منذ أن لم يكن شيئاً مذكوراً، حتى عصر المعلومات الذى يعيشه الآن، ماراً بكل عصور الصيد والرعى والزراعة والصناعة، يرتقى من مرحلة لأخرى فى طريق سعيه إلى الله (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) «الانشقاق ٦/٨٤».. بينما أمة النحل لو حذفت من تاريخها مليون سنة لما عثرت على تغيير يذكر فى طريقة كدحها وبناء خليتها لتودع فى حجراتها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، ولتكون واحدة مما سخره الله تعالى فى هذا الكون لخدمة الإنسان.. ومثلها أمة النمل، لو عزلت جيلاً منها عن أمهاته منذ أن تفقس بيوضه لما احتاج إليها فى تعلم طرق عيشه ودأبه ومثابرته، مستغنياً عنها بما أودعه الله تعالى فى جيناته من قواعد سلوكه.

وحده الإنسان، الذى يحفظ حصيلته من المعلومات المتراكمة لديه عبر الأجيال نتيجة التجارب والخبرات البشرية، يستفيد منها ويعالجها ويضيف إليها، كى يتطور ويرتقى، متسامياً بوتيرة متسارعة ليحقق حسن ظن الله به.

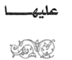
فبعد أن قبل التحدى وحمل الأمانة فى موقف مهيب قصه الله تعالى علينا بقوله: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً) «الأحزاب ٧٢/٣٣».

وبعد أن تحمل مسئولية أدوات المعرفة التى زوده الله بها، وأمره باستخدامها، وحذره من تعطيلها (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) «الإسراء ٣٦/١٧»، وفى الآية نهى صريح عن التصرف بغير علم، وإسقاط لدعوى الجهل بالتشريع، فلا تسمع دعوى الجهل بالقانون بعد نشره وبيانه للناس، وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من وسائل المعرفة: من سمع وبصر





أمة (اقرأ) باتت لا تقرأ. وإهمالها القراءة لم يعد سراً يجهله أعداؤها، بل هم يستيقنونه إلى درجة أنهم ينشرون مخططاتهم ونواياهم المبيتة ولا يخشون اطلاعهم عليها



وفؤاد، ومنحهم فرصة السؤال، إن عجزت أفهامهم عن إدراك الحقائق: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) «النحل ٤٣/١٦». بعد كل أولئك أعلن الله تعالى فوزه فى المسابقة على سائر الكائنات، وأمر الملائكة بالسجود له تكريماً وتعظيماً، وما كان ذلك إلا لأمور:

أولها: قدرته على تحصيل المعلومات ثم اختزانها واسترجاعها، فأنبأ الملائكة بأسمائهم، وعجزت الملائكة قائلة: (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا)، فلا طاقة لنا على تجاوز هذا الذى علمتنا.

والثانى: قدرته على مخض المعلومات وتمييز الخبيث من الطيب، ثم الاختيار بين النجدين بعد اتضاحهما له، وسلوك أحد الطرفين بمحض اختياره، أو بمعنى آخر قدرته على اختيار طريق المعصية، وتحمل النتائج المترتبة على اختياره الحر، فى حين أن الملائكة لا يملكون هذه القدرة، فلا يعصون الله ما أمرهم، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون به، وهم مبرمجون على سلوك طريق واحد لا يحيدون عنه، ولا فضل لهم ولا اجتهاد فيه فيحاسبوا عليه.

والثالث: قدرته على تنمية المعلومات وتوليد الأفكار، ثم السمو والارتقاء بها، ومتابعة تطوره مستفيداً من تجاربه، ليتمكن من تجنب طريق الفساد فى الأرض وسفك الدماء على الرغم من امتلاكه القدرة على السير فيه، مما أثار الدهشة والاستغراب لدى الملائكة، عند عرض (مشروع) خلق الإنسان عليهم، فلم يتبينوا حكمة الخالق منه، ولم يدركوا قدرة هذا الإنسان على تخطى الصعاب وتجاوز الأخطاء، والاستفادة من التجارب، وهو ما نستشفه من حسن ظن الله تعالى به عندما قال للملائكة: (إنى أعلم ما لا تعلمون).

ولك أن تفتح ملف هذا المشروع، وتقرأ قصة المسابقة الفذة والامتحان العسير الذى خاضه الإنسان، ومسألة تفوقه على الملائكة، وفوزه بجائزة التكريم الإلهى، فى قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) «البقرة ٣٠/٢-٣٣». وبعد ذلك كله كان النداء: (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم) «العلق ٩٦/ ١ - ٥». مؤكداً أولوية القراءة فى حياة الإنسان، وأنه لن يكون إنساناً، ولن يستطيع تحقيق الهدف من خلقه وهو (الكدح والتسامى) إذا لم يقرأ.

وتسألنى ماذا أقرأ؟

لقد أسعدنى سؤالك هذا، إنه ينم عن اتخاذك القرار بالإقبال على القراءة، ولابد أنك فكرت ملياً قبل اتخاذ قرارك، باحثاً عن وقت يومى - مهما كان ضئيلاً - تخصصه لها وتلتزم به، مثلما تلتزم بمواعيد الغداء والعشاء، وعن مبلغ - مهما كان زهيداً - تخصصه فى ميزانيتك لشراء الكتاب أسوة بما تخصصه لشراء الطعام والشراب.

لا يهمنى سؤالك: ماذا أقرأ؟! فأنا واثق من أنك تجد ما يطيب لك أن تقرأه بين آلاف الكتب المنثورة بين يديك فى المكتبات ومعارض الكتاب، وسوف تتكون لديك الخبرة الكافية لكى تحسن الاختيار، وتعرض عن الغثاثة والضحالة والاجترار، فلا تغتر بالعناوين وإثارتها، والأغلفة وأناقتها، بل تبحث عن المضامين، تتعرف عليها من مسرد الموضوعات، وتتصفح المقدمة فيتبين لك هدف الكتاب، ويتضح لك المكتوب من عنوانه.

نصيحتى إليك أن تستبدل بسؤالك ماذا أقرأ؟! سؤالاً مهماً كيف أقرأ؟!

ليكن اختيارك لما تقرأ حراً.. قد تخطئ فى الاختيار فسرعان ما ترمى الكتاب الذى لم يرق لك جانباً، مشمئزاً أو مختلفاً أو مغاضباً، وربما راجعت نفسك وبدا لك أنك تسرعت فى حكمك عليه بعض الشىء فتعود إليه متفحصاً مناقشاً وباحثاً متأملاً.. وقد تزل قدمك فتمضى مع كاتب فى طريق ملتو أو مسدود أو مشوش أو غائم أو معتم، فلا تقلق، بل واصل قراءتك فإن القراءة المستمرة تصحح أخطاءها، وابحث عن الرأى الآخر، فإن الرأى يصقل الرأى ويقوم المعوج، والأفكار كائنات حية تتكاثر بالتزاوج، وتنمو بالنقد والتصارع، وبارقة الحقيقة لا تنقدح إلا باحتكاك الأفكار وتصادمها.

لا تسلم قياد فكرك وعقلك لأحد، واخلع نفسك من كل وصاية، وانطلق فى قراءتك حراً طليقاً، ولا تغلق على نفسك باب التساؤل بذريعة الانضواء تحت إطار فكرى معين، فإن التفجر المعرفى من حولك فى عصر المعلومات لم يترك مجالاً للتقوقع، وباب التساؤل وحده طريقك إلى ارتياد آفاق المعرفة، واختبار صحة معلوماتك وترسيخ قناعاتك على هدى وبصيرة، وتنمية مناعاتك ضد كل الاختراقات الثقافية والفكرية فى عصر العولمة. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

كتاب النصيحة

كيكاوس بن وشمكير
تعريب: محمد صادق نشأت وأمين عبدالمجيد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٦٣صفحة



يتمتع هذا الكتاب بشهرة كبيرة داخل إيران وخارجها، وهو معروف باسم «قابو سنامة»، ومؤلفه هو الأمير كيكاوس، وقد ألفه من أجل ابنه «كيلاشاه»، وقد ألفه فى شيخوخته بعد أن خبر الناس وغرف من ينابيع الحكمة وتجارب الأيام، وهذه الترجمة هى الأولى إلى العربية، وهى تضع بين يدى القارئ صورة واضحة للحياة العلمية والاجتماعية فى العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، وهى صادقة بعيدة عن التكلف والمبالغة والخيال.

وأبواب الكتاب أربعة وأربعون، وقد قسمها المترجمان من حيث الموضوع إلى ستة أقسام: فى الأبواب التسعة الأولى يقف الأمير من ابنه موقف الواعظ الناصح، فيتحدث عن معرفة الله وخلق الأنبياء وزيادة الطاعة ومعرفة حق الوالدين، والكلام حسنه وقبيحه، وحفظ الأمانة، ويورد نصائح أنوشيروان العادل ثم يتكلم عن الشيخوخة والشباب.

والقسم الثانى يتحدث فيه عن آداب اللياقة وقواعد الحياة الخاصة التى تليق بالأمراء وعلية القوم، فيتكلم عن ترتيب الطعام والشراب وآداب الضيافة، والاستمتاع والذهاب إلى الحمام، والنوم والراحة، والصيد وغيرها.

والقسم الثالث يتناول المعاملات من جمع المال وشراء الرقيق والبيت والضياع والخيل والزواج وحق الولد واختيار الصديق وتدبر أمر العدو والعفو والعقوبة.

ويدور القسم الرابع حول العلوم والمهن التى يحتاج إليها المرء لكسب معاشه، وتدور حول طلب علم الدين والقضاء والتجارة والطب والهندسة والفلك والشعر والغناء وخدمة الملوك ومقاومتهم والفلاحة.

ويعالج فى القسم الخامس الشئون العليا فى الدولة، فيتحدث عن الحروب وشروط الوزارة والقيادة والملك.

ويختتم فى الباب الرابع والأربعين بالحديث عن المروءة ومفهومها عند كل طائفة من الناس، وآداب أهل التصوف والصنعة.

■

الفضاء المعلوماتى

حسن مظفر الرزو
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٤٩٤ صفحة



يستخدم مصطلح الفضاء المعلوماتى لوصف البيئة الافتراضية للإنترنت ووسائط الاتصال الرقمية الأخرى التى يكثر استخدامها فى مجتمع المعلومات اليوم. وهذه الدراسة تقدم معالجة معرفية لعدة مسائل تتعلق بهذا الفضاء عندما ينظر إليه ككيان وجودى متكامل أفرزته البيئة الشبكية الرقمية، وتسعى إلى تحليل مكوناته للتوصل إلى فهم جديد لفضاء يحيط بنا من كل جانب ويوشك أن يبتلعنا فى كيانه الفريد.

ويأمل المؤلف أن يسهم هذا الكتاب كنقطة بداية متقدمة على طريق تحليل ماهية الفضاء المعلوماتى. وأن يخط نهجًا يسعى إلى تكوين صورة واضحة المعالم عن هذه البيئة الجديدة التى أصبح مصيرنا ومستقبلنا مرهونًا بقدرتنا على التعامل معها، واستثمارها لإعادة تشكيل مفردات منظومتنا التقنية والثقافية والاجتماعية فى عصر المعلومات.

■

الأمن الإعلامى العربى

رفيق نصرالله
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ١٣٢صفحة



شهد الإعلام العربى انقلابات متلاحقة منذ سبعينيات القرن العشرين، وكانت الشاشة هى الزلزال الذى هز أركان الإعلام، ليصير المشاهد جزءًا من التحول اليومى، وخلال السنوات العشر الممتدة من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٥ كان واضحًا أن الآخر تمكن من إحداث شرخ فى بنية الإعلام العربى، وتعميم لغة أخرى أسقطت ما كان سائدًا من ثوابت ومسلمات، فظهر الإسرائيلى على الشاشة بلا حرج، وتحولت فضائيات عربية عديدة إلى مسرح مرئى يناقش كل القضايا بتداعياتها المختلفة والمتناقضة أحيانًا، دون الأخذ فى الحساب مستوى ثقافة الرأى العام العربى الذى عانى كبتًا سياسيًا لفترة طويلة، خاطبته هذه المحطات بكثير من الفوضى والحماس.

المؤكد أن المجتمع العربى يمر بمرحلة تحول فى السياسة والاقتصاد والاجتماع، وهو - بتعبير المؤلف - يلامس زمن العولمة دون أن يستعد لهذه الملامسة بخطط مسبقة، لهذا يبدو أن هذا التحول مفتوح ومرتجل، مفتوح على فقدان مقومات الحصانة وإمكانية الاحتفاظ بالموروث، وأمام هذا الواقع تحول الخطاب الإعلامى والممارسة الإعلامية إلى انعكاس لهذا الواقع، مفتقدًا المشاركة الحقيقية المنطلقة من رؤيته للمستقبل تنسجم وضرورة التحول.

فى ضوء هذه التصورات، يناقش المؤلف عديدًا من القضايا المهمة التى تتماشى فيها قضايا الإعلام بغيرها مما يعبر عنه أو يمثل انعكاسًا له، ومنها مصطلح الأمن الإعلامى، التكون الإعلامى الأيديولوجى، الإعلام العربى والقضية الفلسطينية، الشرق الأوسط الكبير وإعلام الفدرلة، فضائيات رجال الأعمال، الإعلام العربى فى زمن العولمة.

■

الغرق

يوسف الشارونى
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ١٤٧صفحة



بعد رحلة طويلة مع الإبداع جاوزت نصف القرن، أمضاها مخلصًا لفن القصة القصيرة وحده، فضلاً عن دراسات أدبية ونقدية جادة، ها هو العمل الروائى الأول ليوسف الشارونى، والذى يسميه «تحقيق روائى»، وهو يدور حول غرق العبارة المصرية «المحروسة» فى رحلة للحجاج المصريين بين ميناءى السويس وجدة، وقد سعى إلى التعرف على أبعاد الحدث وما وراءه من مآس إنسانية وحكايات ترسم فى مجملها لوحة بانورامية لعالم من البشر، ينتمون إلى بيئات مختلفة وطبقات اجتماعية متباينة، معتمدًا على المادة التى نشرتها الصحف عن الحادثة. وفى التحقيق الروائى إدانة لأشكال مختلفة من الفساد والإهمال والأنانية باتت تغطى حياتنا وتطبع سلوكنا اليومى.

ومنذ البداية، نكتشف أننا أمام الأسلوب المميز للشارونى، جمل تلغرافية قصيرة، احتشاد مكثف للأحداث والتداعيات والصور، إنه الأسلوب ذاته الذى يميز القصة القصيرة لا إطناب ولا تطويل دون مبرر فنى، وحتى حين يستخدم روايات عديدة لشهود عيان وأفراد الطاقم الفنى للباخرة وناجين من الكارثة وصحفيين، فإنه يتعامل معها بأسلوبه المقتصر وعباراته التى تشق طريقها إلى المعنى مباشرة دون مراوغات بلاغية، وهو أسلوب يتبدى بوضوح فى سرد تفاصيل الدقائق السبع للكارثة التى راح ضحيتها ٥٧٤ راكبًا بمن فيهم قائد السفينة وغالبية طاقمها، ولم تكتب النجاة إلا لـ ١٨٠ راكبًا فقط، أما قائد السفينة كريم كانو، فقد كان للعثور على جثته بين ضحايا الحادث أثر مدوى، إذ أعطى بعدًا جديدًا للحادث، لأن وجود جثته بين الغرقى يعد دليلاً دامغًا على التزامه بالواجب، وبتقاليد مهنة البحرية التى تلزم القبطان بأن يكون آخر من يغادر السفينة، لكن تبقى المآسى الإنسانية التى خلفها غرق السفينة، شاهد عيان لا ينزوى ولا توارى جثته التراب.

■

معارك فنية

نبيل حنفى محمود
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٧، ٢٠٤صفحات



شهدت الحياة الفنية عديدًا من المعارك التى ألقت بظلالها على الواقع الفنى المصرى عبر تاريخه الطويل، كان أقطابها موسيقيين وشعراء وفنانين ممن أثروا الحياة الفنية لسنوات طويلة.

المعركة الأولى التى يشير إليها المؤلف كان بطلها الشيخ زكريا أحمد، الملحن العبقرى، وطرفها الآخر محمد البحر الابن الأكبر للشيخ سيد درويش، الذى اتهم زكريا أحمد بسرقة أحد ألحان والده أو على الأقل مقطع كامل منها لتغنيه السيدة فتحية أحمد وهى مطربة مشهورة فى ذلك الوقت، وقد كتب البحر انتقاده فى مجلة المسرح وكان سنه وقتها لا يتجاوز السابعة عشرة، وبدا أن المجلة منحازة بشكل كامل إلى جانب ابن سيد

درويش، واستمرت المعركة التى دخل فيها أطراف عديدة، واتضح أن من أشعل شرارتها هو الشيخ يونس القاضى، وهو شاعر غنائى كتب العديد من الأغنيات بألحان كبار ملحنى عصره، وبالطبع لم يعدم الشيخ زكريا من يدافعون عنه ومنهم الفنان حامد مرسى، وانتهت المعركة وخرج منها زكريا أحمد أقوى مما كان، وانكشف الغرض من ورائها، كما يشير المؤلف، وهو أطماع الشيخ يونس القاضى فى إرث سيد درويش.

ثمة معركة مهمة أيضاً يوردها المؤلف بطلها عبدالحليم حافظ، الذى بدأ نجمه فى الصعود مع بداية الخمسينيات، فإذا به يخرج على الناس بتصريحات مهينة لفنان الشعب سيد درويش، استمرت المعركة فترة طويلة، وشارك فيها نقاد وكتاب وموسيقيون وصحفيون، أما لماذا ارتكب عبدالحليم هذه الحماقة، فثمة تفسيرات عديدة، بينها أنه كان مطرب ثورة يوليو الأول، وكان يشعر أنه مدين لهذه الثورة بالكثير، وأراد أن يعبر لها عن امتنانه بالنيل من فنان وموسيقى كان رمزًا لثورة ١٩١٩، التى بدا أن ثورة يوليو - أو هكذا تصور هو - تناصبها العداء.

أما التفسير الثانى فإنه كان يهاجم سيد درويش لحساب أستاذه وشريكه فى صوت الفن فيما بعد محمد عبدالوهاب، أما عبدالحليم نفسه فقد قال إنه لم يقصد الإساءة إلى سيد درويش، وإنما قال ما قاله مدفوعاً بسؤال استفزازى فى لقاء صحفى فحواه: لماذا لا تغنى أغانى سيد درويش، وكان رده أن زمن سيد درويش انتهى ولا مبرر لإعادة إحياء أغنياته.

معارك عديدة يتضمنها الكتاب تبرز فيها أسماء فنية كبيرة من نوع أم كلثوم والقصبجى ومحمود الشريف وبليغ حمدى وبيرم التونسى ومرسى جميل عزيز وجليل البندارى وكمال الطويل وفريد الأطرش وآخرين.

■

هموم سياسية

حازم الببلاوى
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٣٦٦صفحة



يضم الكتاب مجموعة من المقالات التى كتبها المؤلف، وهو فى الأصل اقتصادى ليبرالى مرموق، خلال السنوات الخمس الأخيرة. وجميعها تدور حول قضايا عامة شغلت المجتمع المصرى والعربى، وقد قسمها إلى سبعة فصول، يدور الأول منها حول النوازع البشرية، وبحسب المؤلف فإن الحديث عن السياسة وانشغالات الناس يتطلب معرفة النوازع التى تحرك البشر، ولذا فإنه يبدأه بمقال عنوانه «السيد والخادم»، عن العلاقة بين الحاكم والمحكومين، دون أن يعنى ذلك بالضرورة أن العلاقة بين الطرفين تسير دومًا وفق هذه الآلية، فقد تطورت الأمور إلى درجة أوجدت آلية أكثر ليونة من فكرة «ذهب المعز وسيفه»، التى كرسها المعز لدين الله الفاطمى، حيث قدم أوراق اعتماده للمصريين، وفى كثير من دول العالم الثالث، فإن القانون صار أداة طيعة يستخدمها الحاكم بديلاً عن أساليب قديمة كانت تصمه بالديكتاتورية والاستبداد. ويضم هذا الفصل عدداً من المقالات التى تمثل عزفًا على اللحن ذاته.

أما الفصل الثانى فهو برأى المؤلف جوهر الكتاب، وهو يعالج موضوع الديمقراطية والإصلاح السياسى، ويبدأ بمقال عنوانه «الديمقراطية بأيدينا لا بيد عمرو»، يدعو فيه المؤلف إلى الأخذ بالديمقراطية كمنهاج للحكم بصرف النظر عن الضغوط والمطالبات الخارجية، ويؤكد على أن جوهر الديمقراطية الليبرالية هو احترام حقوق الأفراد، وفى مقال «دروس الديمقراطية» إشارة إلى أن الديمقراطية ليست فقط الانتخابات وحكم الأغلبية، إنما هى قبل أى شىء آخر عدم تركيز السلطات. وفى مقال تال تحت عنوان «المال والسلطة»، إشارة إلى تأثير المال على السلطة. وفى هذا الفصل أيضاً دراسات عن المسئولية السياسية، والديمقراطية والتكنولوجيا، والإصلاح السياسى والإدارة السليمة.

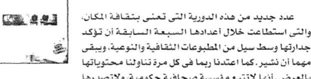
ويناقش الفصل الثالث «الشريعة والحياة» عدداً من القضايا ذات الصلة بهذا الموضوع المهم، مؤكداً على أنه لا كهنوت فى الإسلام، فالإسلام يدعو إلى الوحدانية دون وساطة بين المسلم وربه، ويناقش فى عدة مقالات متتالية مفهوم العلمانية، «عن العلمانية»، «العلمانية مع القراء»، «العلمانية والحريات الدينية»، «العلمانية والحجاب التركى»، وجميع هذه المقالات تؤكد أن المبدأ الأساسى للعلمانية هو ضمان حريات الأديان جميعها دون استثناء.

ويخصص الفصل الرابع لمفهوم «العروبة»، وبحكم التخصص يركز المؤلف على أسباب ضمان أساس النجاح فكرة التكامل الاقتصادى العربى، كما أن العروبة ذاتها إضافة وليست خصماً من الوطنية المصرية.

الفصل الخامس يحمل عنوان «الغرب وأمريكا» وهى محاولة للفهم فى زمن سيادة أمريكا على العالم، ويخصص المؤلف الفصل السادس للهموم الاقتصادية، أما السابع فيعرض لعدد من تجاربه الشخصية.

■

رحلة الصورة والمصوراتية



أمكنة (دورية)
العدد الثامن : يونيو ٢٠٠٧

عدد جديد من هذه الدورية التى تعنى بثقافة المكان، والتى استطاعت خلال أعدادها السبعة السابقة أن تؤكد جدارتها وسط سيل من المطبوعات الثقافية والنوعية، ويبقى مهما أن نشير، كما اعتدنا ربما فى كل مرة تناولنا محتوياتها بالعرض، أنها لاتتبع مؤسسة صحافية حكومية، ولاتصدرها شركة مساهمة وفق قوانين ملكية المؤسسات الإعلامية الجديد، إنما يصدرها مجموعة من شباب المثقفين، هم من اختاروا فكرتها البراقة بثقافة المكان، وهم من يحررونها وينجزون الصور الفوتوغرافية المصاحبة لموضوعاتها ويرسمون ماكيتاتها البسيطة من الألف للياء، ويشرف على تحريرها الشاعر علاء خالد وزوجته الكاتبة والمصورة الفوتوغرافية سلوى رشاد والأديب مهاب نصر، كما أنها تصدر. وهذه ميزة إضافية. من مدينة الأسكندرية، مستعيدة ماضى مدينة الثغر العريق، وقت أن كانت عنوانا للثقافة الإنسانية فى أكثر صورها رحابة.

العدد الجديد مهدى إلى روح الشاعر الشاب أسامة الدناصورى الذى توفى فى منتصف هذا العام، ويضم ملفا عنوانه «رحلة الصورة»، يكتب فيه عبد العزيز السباعى عن بدايات الفوتوغرافيا فى مصر، حيث وفد عدد من المصورين الفوتوغرافيين من كافة أرجاء العالم لتسجيل تاريخها وفنها وعاداتها، والتقطت أول صورة فوتوغرافية فى مصر لحاكم القاهرة فى ٧ يناير ١٨٣٩ ومدون عليها «هذا من عمل الشيطان».

ومنذ هذا التاريخ ذاع فن التصوير الفوتوغرافى فى مصر، وصار مهنة يحمل أصحابها صندوقا خشبيا يتجولون به على الأرصفة والمتنزهات بصحبة كاميرا «الألومنيت» للصور المائية، وشيئا فشيئا حل الأستوديو بديلا عن التصوير الشمسى، وتأسست العديد من الاستوديوهات فى القاهرة والأسكندرية مثل «برودواى»، أراكش، أرمان، لوتس، لافيترى وغيرها، وصارت مقصدا للعديد من الناس من أطراف المدينتين الكبيرتين والقرى المحيطة بهما، وتحول «المصوراتى» إلى «مزار» يقصده الراغبون فى تخليد لحظات بعينها، وهم فى أوج أناقتهم .

ويكتب الفنان التشكيلى الراحل هانى الجويلى عن «الصورة المومياء»: الصورة التى تذكرنا بمن أحببنا وبمن نحب.. من صادفنا ومن نكره، الأهل والغرباء، الصور الرائعة لأماكن زرناها والصور السيئة التى نرغب فى تمزيقها، الصورة التى تدفعنا للشراء أو الرثاء، ذاكرتنا هى متوالية الصور التى نملكها، لاتمحو ذاكرتك، قد تحتاجها يوما.

وتعقب المقال مجموعة من الصور المميزة التى التقطها الجويلى قبل رحيله، والتى تشير إلى موهبته المؤكدة فى هذا اللون من الفنون.

أما فؤاد الخورى فهو فنان لبنانى ولد فى باريس فى ١٩٥٢، ويعيش بين باريس ولبنان، وقد رصد فى أعماله الأولى الحرب الأهلية اللبنانية، فيكتب نصا عنوانه «اكتشاف الطريق» يكشف فيه عن إحساس عميق بثقافة المكان وعن تجربة انسانية «نزعت عن الفوتوغرافيا الشق المهنى وحولت العمل لأداة للتحدث والاستكشاف»، كما جاء فى التذييل المصاحب للمقال، وثمة مايفيد فى خبرة خورى الفريدة منها مثلا: «اكتشاف المكان يكون دوما على العكس من الرحلة السياحية وبرنامجها ويحمل عينى إلى مجمل التفاصيل»، «حين أدخل إحدى المدن انتهى بأن أعرف أحياءها المختلفة بشكل أفضل من الكثير من سكانها»، «بغير اعتياد علىّ أن أحمل معى صور من أحب»، «فى معظم القرى التى زرتها كنت أبدأ بشراء خريطة لدراسة تكوين المكان (...) وبسبب سكانها الذين غالبا مايكونون من المهمشين أو الوافدين الجدد قد تمثل هذه الأحياء خطرا ما، فكنت أكتفى لذلك بأن التقط الصور دون النظر عبر العدسة فى بعض الأحيان»، «الاختيار يتطلب انتباها خاصا لاسيما لو كان الأمر يتعلق بعمل مطلوب من جهة ما حيث يجب الموازنة بين مطالب الجهة وما نشعر به على أرض الواقع»، «لكى تكون صورة ما جيدة يجب أن تسعد فى نفس الوقت هؤلاء الذين التقطت لهم الصورة والذين يشاهدونها».

بالملف مقالات وتجارب أخرى عديدة لـ«رندا شعث»، و«فالتر بنيامين وآخرين»، وبالعدد مقالات عديدة يضمها ملفان كبيران هما «خيالات المدينة»، و«أساطير الحياة اليومية»، و«حوار مع شلة المنيل» يجريه علاء خالد مع المخرج مجدى أحمد على والفنان التشكيلى عادل السيوى والكاتب جلال الجميعى والقاص أمير سالم والناقد السنمائى محسن ويفى والسيناريست سامى السيوى.

عزومتى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٢٨ صفحة



وصفات سهلة لاتتضمن مكونات غربية، ولا تحتاج إلى أدوات مطبخ مميزة، بما يعنى أنها فى متناول ست البيت العادية، وقد تم تقسيمها بطريقة مبسطة كذلك على هذا النحو: المقبلات، السلاطات، الشوربة، اللحوم، الدجاج، الأسماك وفواكه البحر، المكرونات، الأرز، الخضروات، الحلويات، العزومات.

أما المقدمة فهى إرشادات عامة تساعد ست البيت على تنظيم الوقت وتوزيع المهام قبل وأثناء العزومة، كما تقدم بعض المعلومات عن تنسيق المائدة، واللمسات البسيطة التى تجعلها تبدو بشكل جميل وأنيق.

■

بستان المسرح

فريدة النقاش

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ٣٤٩ صفحة



يضم الكتاب مجموعة من الدراسات التى كتبتها المؤلفة عن المسرح منذ الستينيات وحتى اليوم. متابعات ورؤى لتجارب مسرحية، ودراسات عن روّاد وهبوا حياتهم لفن المسرح. التتابع الزمنى للمقالات التى نشرت فى صحف ومجلات مصرية وعربية، وقُدم بعضها إلى مهرجانات مسرحية، يكشف عن الحالة التى آل إليها المسرح منذ أواسط السبعينيات وحتى اليوم، خصوصاً إذا قورنت هذه الحالة بما كان عليه المسرح فى عقد الستينيات، فى الستينيات كان ثمة رسالة يلقى بها المسرح فى مواجهة جمهوره، منذ منتصف السبعينيات، تحول المسرح إلى حالة تجارية بائسة، دون أن ينفى ذلك وجود بعض المحاولات الجادة لتجاوز هذه الحالة الرديئة.

فى دراسة عن المسرح الشعبى تشير المؤلفة إلى مسرح نجيب سرور، خصوصاً مسرحية «منين أجيب ناس»، والتى يبنى فيها على قصتين إحداهما أسطورية والأخرى واقعية، الأولى هى قصة «إيزيس وأوزوريس»، والثانية «حسن ونعيمة»، وكلتاها تتحدث عن جمع الشتات وتوحيد أجزاء الجسد المبعثر، وبطريقته التى تكثف المسرح الشعبى مستفيداً من التراث بكل ما فيه من حواديت وأساطير وأمثلة وحكم وأشعار، يكشف لنا المؤلف عن الصراع الذى خاضه الشعب ضد ظالميه وغزاته.

وتقارن فى دراسة أخرى بين شهرزاد توفيق الحكيم وشهرزاد نعمان عاشور، وتشير إلى أن زمن توفيق الحكيم فى المسرحية يدور فى تلك الدورة المأساوية المتكررة التى لا تنتهى، بينما يتقدم زمن نعمان عاشور لاقتحام المستقبل، وتشير كذلك إلى أن الحكيم كان غارقًا فى مسرحه الذهنى بعكس عاشور الذى غاص فى قلب الواقع، فالزمن عنده هو تاريخ الناس، هو زمن الفعالية الإنسانية تلك التى لا يعنى بها الحكيم كثيراً.

دراسات عن المسرح العربى والعالمى وأخرى عن التجريب ومهرجانه الذى يعقد فى القاهرة منذ سنوات مع اهتمام خاص بالمسرح الفلسطينى، وبالقضية الفلسطينية كما عولجت مسرحياً، وعديد من القضايا الفكرية التى عنى بها المسرح الجاد.

■

ذاكرة الخيال المبجل

كريم محمد حسنين

القاهرة: المركز الدولى للإعلام، ٢٠٠٧، ١٦٠ صفحة



متتاليات من أدب الرحلات، عن الهند البلد الذى تتنوع فيه الديانات واللغات واللهجات والقوميات، والمؤلف أديب عراقى زار الهند للمشاركة فى فعالية ثقافية، فهام بها عشقًا وطاف بربوعها مستدعيًا صورة الشاعر الهندى الكبير طاغور الذى ينقل عنه فى المقدمة قوله: أنا هذا البخور الذى لا يضوع عطره ما لم يحترق/ أنا هذا القنديل الذى لا يشع ضوؤه ما لم يشعل.

يكتب عن إله القردة الذى خصصت له حديقة كبيرة، وعن نهر نارمادا المقدس، وقلعة ساهى باهى، ومدينة هيماجل التى تجمع الفنون الهندية المتنوعة والأديرة البوذية والمعابد الهندوسية، كما يكتب عن الموسيقى والفنون البصرية ورياضة اليوجا ذات الطبيعة الصوفية، وعن تاج محل وبوذا وعقيدة التناسخ، وعشرات من التفاصيل الأخرى عن هذا البلد شديد التنوع والثراء الثقافى الباذخ، ولا يغيب أبداً الزعيم الهندى العظيم غاندى الذى تجسدت فيه قيم الصمود والتسامح والإيثار فى أروع صورها.

■

حيرة العائد

محمود درويش

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ١٦٨ صفحة



فى الكتاب عشرات الكلمات التى قالها محمود درويش فى مناسبات شتى. معظم هذه الكلمات تتناول شخصيات أبدعت فى مجال أو أكثر من ياسر عرفات إلى إميل حبيبى وفدوى طوقان إلى نزار قبانى وسعدى يوسف ومحمد الماغوط إلى سمير قصير وممدوح عدوان وجوزف سماحة.

ويمكن أن نقسم الكتاب إلى ثلاثة محاور: هموم الوطن وشجون المنفى وهما شغل محمود درويش الشاغل، إضاءات على أعلام فى النضال والأدب والشعر والفن والسياسة، كلمات ألقاها المؤلف فى مناسبات تكريمية له. فى المحور الأخير يبدو المؤلف فى غاية التواضع وهو يلقى الضوء على محمود درويش الأديب والشاعر ناقداً وموضحاً ومحللاً.

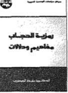
يقول: «قليلون هم الشعراء الذين يولدون شعرياً دفعة واحدة. أما أنا، فقد ولدت تدريجياً وعلى دفعات متباعدة. ومازلت أتعلم المشى العسير على الطريق الطويل إلى قصيدتى التى لم أكتبها بعد».

■

رمزية الحجاب: مفاهيم ودلالات

عايدة الجوهرى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٣٢٦ صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



إذا كانت إعادة قراءة التاريخ تشكل هدفًا أكاديميًا يبغى المعرفة ويطلب العلم لغاية فى حد ذاته، فإن إعادة قراءته من منظور دور النساء فيه يعتبر هدفًا سياسيًا واهتمامًا بالمشاركة الإيجابية فى الواقع الثقافى والاجتماعى من أجل إحداث تغيير نحو حياة ثقافية واجتماعية أكثر عدلاً وأكثر توازنًا لجميع أفراد المجتمع.

وطالما أن المعرفة، أو المعرفة التاريخية، مرتبطة بالقوة والسلطة السائدة، فإن عمليات الاستبعاد والتهميش تطال الفئات المحكومة، بما فيهن النساء، حتى صار التاريخ يسرد وكأن النساء خارجه، الأمر الذى خلق حاجة شديدة إلى خلق تراكم معرفى من الدراسات التى تبحث فى التاريخ العربى من منظور يأخذ فى الاعتبار التشكيل الثقافى والاجتماعى للجنس، والتى تستفيد من النظريات الحديثة فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتتناول التاريخ من زوايا عبر التخصصات المختلفة.

عام ١٩٢٨ تجرأت امرأة لبنانية فى العشرين من عمرها على التمرد على قانون يحجب النساء ويفرض عليهن نسق عيش يحجبهن عن المشاركة فى دورة الحياة، فلم تثر على الحجاب كزى مفروض بالقوة على النساء بقدر ما ثارت على الحجاب كوسم جندرى جنسانى للأجساد أكثر منه وسماً أيديولوجياً. هذه المرأة هى نظيرة زين الدين - نستعيدها لأنها مهمشة، وقلما تذكر، ولأننا نتساءل كيف واجهت امرأة ذاك العصر إشكاليات مازلنا نواجه بعضها.

■

النقراشى

هدى شامل أباظة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢٨٣ صفحة



يعيد هذا الكتاب الاعتبار لواحد من الشخصيات الوطنية فى التاريخ المصرى، والذى بدأ حياته باكراً عضواً فى التنظيم السرى الذى أنشأه «الوفد» لمواجهة رجال الاحتلال والقصر، ورغم نشاطه الوطنى المبكر، فإنه لم ينضم رسمياً للوفد إلا فى عام ١٩٢٧، وحين توفى سعد زغلول باشا، تحمس النقراشى وأحمد ماهر لأن يخلفه مصطفى النحاس وليس فتح الله بركات، ابن اخت سعد الذى لم يكن سعد يحبه كثيراً، وكانت وجهة نظر النقراشى وماهر، أن اختيار النحاس يعيد الوفد إلى طبيعته الأصلية بوصفه حزب الجماهير أو حزب الجلابيب الزرقاء كما كان يسمى، إذ ينتمى النحاس إلى هذه الفئة من الناس، كما أن عدم اختيار ابن أخت سعد زغلول، ينفى تماماً فكرة توريث الزعامة ويؤكد على الانتخاب الحر، غير أن الخلاف سرعان ما دب بين النقراشى والنحاس حين اعتلى الأخير زعامة الوفد، وكان مصدر الخلاف كما رآه النقراشى، هو رغبة النحاس فى أن

يحظى بما كان يحظى به سلفه من زعامة مقدسة لا تُسأل عما تفعل، وكان رأى النقراشى وماهر أن ذلك الزمن ولّى، وأن الظرف التاريخى الذى سمح لسعد زغلول بهذه المكانة قد تغيّر، واستمر الخلاف بين النحاس والنقراشى حتى أقاله النحاس من الوفد عام ١٩٣٧، ليؤلف مع أحمد ماهر الهيئة السعدية، أما الانشقاق الأكبر الثانى فكان بخروج مكرم عبيد باشا وتشكيله الكتلة الوفدية ١٩٤٧.

وقد شارك النقراشى فى عديد من الوزارات فى هذه المرحلة، وكان رئيسًا للوزراء حين قامت حرب فلسطين، وقد أيّد دخول مصر الحرب، وهو الذى تنسب إليه مجزرة كوبرى عباس التى جرت فى ١٩٤٦ حين انتفض الطلبة يتظاهرون ضد الاحتلال والسلطة، فأمر هو وكان وزيرًا للداخلية وقتها بفتح الكوبرى على الطلبة، مما أدى إلى إصابة أعداد كبيرة منهم، لكن المؤلفة وهى حفيدته، فهى تبرئه تمامًا من هذه الحادثة، بل ترى فيها كثيرًا من المبالغات، إذ لم يقع ضحايا بين الطلبة وإن كان بعضهم أصيب فى الاشتباكات مع الأمن، كما أن هذه المظاهرات كانت مدبرة لإحداث أكبر قدر من الفوضى فى أنحاء مصر لإفشال المفاوضات التى كانت جارية مع الإنجليز.

وكان قرار النقراشى باشا بحل جماعة الإخوان فى ديسمبر ١٩٤٨ بعد عديد من حوادث الاغتيال التى نسبت للجماعة، وهو الذى أدى إلى مقتله على يد أحد أفراد الجماعة بمبنى وزارة الداخلية، وقد ردت الداخلية باغتيال حسن البنا.

■

وعاء المعرفة

تقديم: إسماعيل سراج الدين

تحرير: خالد عزب

الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧، ٣٢٣صفحة



كان اكتشاف الحروب حدثًا بالغ الأهمية، عمل على تيسير التواصل بين الناطقين بها، فضلاً عن أنها سجلت عبر الوسائط البدائية التى استخدمها الإنسان، مثل البردى فى مصر الفرعونية، والألواح الطينية فى العراق، حضارة هؤلاء البشر الذين أبدعوا فى مناح عدة، وحفظت اللغة هذا الإبداع، وكشفت للمتأخرين حضارة الإنسان القديم.

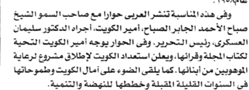
هذا يعنى أن الوسيط المادى الذى استخدمه الإنسان القديم، كان مهمًا بقدر أهمية اللغة ذاتها، كما أن المادة المستخدمة فى صناعة هذا الوسيط، تم اختيارها من البيئة المحيطة، فعلى ضفاف النيل كثر نمو نبات البردى، فاستخدم المصرى القديم سيقانه فى صنع لفائف من الورق قاومت العوامل البيئية المختلفة آلاف السنين، وفى بلاد ما بين النهرين بالعراق، كان الطمى هو الأكثر ذيوعًا، واستخدمه العراقيون فى صناعة ألواح الكتابة التى ظلت باقية حتى اليوم، وفى الصين استخدموا الأوراق النباتية والأقمشة البالية فى صناعة وسيط ظل صالحًا للاستخدام حتى الآن ونعنى به الورق، والآن، فإن الوسائط تطورت بشكل مذهل حتى وصلت إلى الإنترنت والمكتبات الرقمية، وهو تطور تدريجى أثمر هذه الثورة الهائلة فى عالم الاتصالات، ودون شك، فإن اختراع الطباعة كان هو الحدث الأهم فى تاريخ الكتابة، وقد بدأت محاولاتها الأولى فى الصين، إلا أن انتشار الطباعة كان على يد «جوتنبرج»، وهكذا كان من الممكن طباعة آلاف النسخ من كتاب ما، وهى المهمة التى اضطلع بها النساخون قبل ظهور الطباعة. وفى مصر، كان مؤسس نهضتها الحديثة محمد على باشا على وعى كبير بأهمية المطبعة لتواكب النهضة العلمية والثقافية التى عمل على نشرها فى البلاد، فكانت مطبعة بولاق هى التى ترجمت أفكار رواد النهضة من أبناء المصريين الذين أرسلهم محمد على باشا فى بعثات علمية إلى أوروبا، وكان لهذا أثره البالغ فى تنمية الوعى العام وإدراكه للمعارف والعلوم الحديثة، وأيضًا لحقوقه السياسية والإنسانية كما تبدت فى كتابات المبتعثين الأوائل.

يتتبع الكتاب قصة تدوين المعرفة منذ عصور ما قبل التاريخ، تلك التى كتب فيها الإنسان على جدران الكهوف، ثم مراحل التدوين على الألواح الطينية (العراق) والألواح المغطاة بالشمع (الإغريق)، فالتدوين على الورق (الصين)، حتى ظهرت الطباعة أولاً فى الصين، ثم على يد يوحنا جوتنبرج فى أوروبا وانتقالها إلى الشرق العربى.

ويخصص الكتاب فصولاً عن قصة الطباعة فى مصر منذ الحملة الفرنسية إلى نشأة مطبعة بولاق ودورها فى عهد سلاطين وولاة مصر منذ محمد على باشا الكبير، وأهم الإصدارات التى خرجت من هذه المطبعة، وفصل عن نشأة الصحافة المصرية مع جريدة الوقائع، ويختص الفصل السابع بأوعية المعرفة المرجعية عبر العصور مع التركيز على الوسائط الحديثة كالحاسب الآلى والإنترنت وعمليات النشر الإلكترونى، ويشير فى الفصل الأخير إلى مكتبة الإسكندرية كوعاء رقمى حديث.

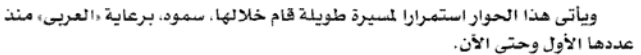
■

اليوبيل الذهبى لمجلة العربى



يحتفل الإصدار الجديد لمجلة العربى بمرور ٥٠ عاما على صدور المجلة، والتى كان عددها الأول قد صدر فى ديسمبر عام١٩٥٨.

وفى هذه المناسبة تنشر العربى حوارا مع صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، أمير الكويت، أجراه الدكتور سليمان العسكرى، رئيس التحرير. وفى الحوار يوجه أمير الكويت التحية لكتاب المجلة وقرائها، ويعلن استعداد الكويت لإطلاق مشروع لرعاية الموهوبين من أبنائها. كما يلقى الضوء على آمال الكويت وطموحاتها فى السنوات القليلة المقبلة وخططها للنهضة والتنمية.



ويأتى هذا الحوار استمرارا لمسيرة طويلة قام خلالها، سموه، برعاية «العربى» منذ عددها الأول وحتى الآن.

كما تصدر العدد أيضا تهنئة للعربى قدمها سمو ولى العهد الشيخ نواف الأحمد الجابر الصباح، وشهادة لسمو رئيس مجلس الوزراء ناصر المحمد الأحمد الجابر الصباح.

وفى هذا العدد التذكارى الخاص، اختارت العربى أن تجعل منه وثيقة حية، تحاول بها ان تتأمل أحوال ٥٠ عاما مرت من عمرها ومن عمر الوطن العربى، شهد فيها المواطن العربى أحلاما، وآمالا عريضة، وخيبات، كما شهدت الساحة السياسية الكثير من الأحداث العاصفة. تنشر العربى فى هذا العدد ملفا شاملا عن أحوال العالم العربى فى نصف قرن، عبر عدد من الدراسات والمقالات منها مقالا للدكتور غسان سلامة يتأمل فيه أهم الأحداث السياسية والتاريخية التى مرت بها المنطقة، ويكتب الدكتور محمد جابر الأنصارى عن عشرة كتب أثرت فى العقل العربى، بينما يتناول الدكتور صلاح فضل التمثيل الجمالى للحياة فى عشر روايات عربية، ويكتب كمال رمزى عن أهم الأفلام السينمائية العربية التى اقتبست من الروايات الأدبية فى خلال نصف القرن. أما جمال غيطاس فيكتب مقالا موسعا عن أبرز العلماء العرب فى نصف قرن.

تنشر العربى أيضا ملفا بعنوان «الشعراء.. طيور مغردة» يضم قصائد لم تنشر من قبل لعدد من أبرز الشعراء العرب ومنهم الدكتورة سعاد الصباح، ومحمد على شمس الدين، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وسيف الرحبى، ود.عدنان مصطفى، وعلى السبتى وزياد آل شيخ وغيرهم.

وأجرت المجلة سبقا صحافيا حيث بحثت طويلا عن فتاة الغلاف الذى تصدر العدد الأول لمجلة العربى، حتى توصلت للسيدة عواطف العيسى، وأجرت معها حوارا، شاملا. وخرج العدد الجديد يحمل صورة السيدة عواطف العيسى كشهادة توثيقية بصرية حاولت المجلة أن تلقى بها الضوء على التغيرات التى مر بها المواطن العربى فى نصف قرن.

وفى نفس السياق أجرى أشرف أبو اليزيد مواجهة حوارية مع سليم زبال، أحد أبرز المحررين المؤسسين لمجلة العربى، وله دور بارز فى إخراجها الفنى أيضا وصدورها بالشكل الذى عرفه القارئ العربى من الخليج للمحيط. كما أن سليم زبال كان أول من قام بالاستطلاعات الصحفية فى أرجاء العالم العربى تحقيقا لشعار «اعرف وطنك أيها العربى»، الذى أطلقه أول رئيس لتحرير المجلة الراحل الدكتور أحمد زكى.

وتضمن العدد مجموعة من شهادات الكتاب ورجال الثقافة والفكر الذين شاركوا بأفكارهم وأقلامهم على صفحات العربى ومنهم د. سعاد الصباح، والدكتور عبد الهادى التازى، ليلى العثمان، د.محمد الرميحى، مصطفى نبيل، سليمان الفهد، فاضل خلف، على عبد الكريم، د.محمود السمرة.

كما قدم إبراهيم فرغلى قراءة شاملة لأعداد العربى منذ أول أعدادها وحتى أحدث ما صدر منها، ملقيا الضوء على أهم ما قدمته المجلة لقرائها، والسمات المميزة لإنجازات كل من رؤساء التحرير الذين تعاقبوا عليها بدءا بالدكتور أحمد زكى، مرورا بالكاتب الصحفى أحمد بهاء الدين، ثم الدكتور محمد الرميحى ووصولا للدكتور سليمان العسكرى، الذى حققت المجلة فى عهده عددا من المزايا التحريرية على مستوى الشكل والمضمون.

وطارت العربى إلى بلدين عربيين الأول هو الجزائر حيث تابع الدكتور محمد المنسى قنديل، بصحبة المصور الفنان رضا سالم، أحوال العاصمة الثقافية للعالم العربى لهذا العام، وانعكاس المناسبة على الأوضاع الثقافية للجزائر بشكل عام.

أما أشرف أبو اليزيد فقد أجرى استطلاعا من البحرين، التى كانت الدولة التى استطلعت العربى أحوالها لأول مرة على صفحاتها قبل خمسين عاما، فكيف كانت وكيف أصبحت، هذا ما يحاول أن يكشفه المحرر والمصور الفنان حسين لارى.

وبينما كانت تمور العراق أحد الموضوعات التى احتفت بها العربى فى أول اعدادها، فإن الأحداث الساخنة الأخيرة حالت العربى من القيام بموضوع مماثل من العراق فى الوقت الراهن، وكان البديل هو التحقيق المميز الذى كتبه أسامة الرحيمى عن تمور الكويت فى «الوفرة»، و«العبدلى» بعد أن أصبحت واحدة من سلعها المهمة.

وكتبت فادية الزغبى موضوعا موسعا عن الدور الرائد الذى تقوم به المرأة الكويتية فى الاقتصاد الكويتى فى الوقت الراهن.

وبالإضافة لهذه الموضوعات وغيرها الكثير، فإن العربى حرصت على تقديم أبوابها الثابتة لقرائها، إضافة إلى العديد من الخدمات الصحفية، والمقالات التى تعطى لهذا العدد الخاص ثقلا خاصا ومميزا.

■

مدخل إلى البلاغة القرآنية

حلمي محمد القاعود

الرياض: دار النشر الدولي، ٢٠٠٧، ٣٢٠صفحة



كان العرب قبل ظهور الإسلام، أهل فصاحة وبلاغة، وحين نزل القرآن الكريم في الجزيرة العربية، مثّل تحدياً لهؤلاء الأقوام على أكثر من مستوى، فقد كان ثورة - إن جاز التعبير - على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة، أما التحدي المباشر للعرب فكان هذا الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن الكريم، الذي جاء ليهزم براعتهم وفصاحتهم. وكان عليهم أن يبرروا هذه الهزيمة بالادعاء أن هذا القرآن سحر، أو أنه أساطير الأولين أو أن صاحب الرسالة مجنون، فلما ثبت لهم أن الكتاب منزّل، وأنه ليس كلام بشر، لم يجدوا بداً من السيف والقتال.

في ستة فصول، يحاول المؤلف أن يبين لنا أسرار هذه البلاغة القرآنية محيطاً بها من كافة جوانبها: التاريخي، الأسلوبي، التطبيقي، ثم يخصص الفصول الثلاثة التالية لإعجاز القرآن وآراء العلماء فيه، وفضل القرآن الكريم على اللغة العربية، ثم القصة القرآنية في الختام.

والمؤلف يشير إلى عشرات المواضع على سبيل الاستدلال وتأكيد فكرته، وجميعها تدل على بلاغة القرآن في الحرف واللفظ والمعنى، أما القصة القرآنية بوصفها وجهاً من وجود الإعجاز القرآني ومظهراً من مظاهر بلاغته، فقد جاءت في إطار غير مسبوق في الفن القصصي الذي عرفته البشرية، حيث تمزج الغاية الدينية بالصورة الفنية أو القصصية، محققاً المتعة الأدبية وتعميق الفكرة في آن معاً، وكان سيد قطب هو أول من ركز على مجال القصة القرآنية في العصر الحديث، فقد تناول طبيعة القصة القرآنية وأغراضها وآثار خضوعها للغرض الديني، ومشاركة الديني للفني أو الفني للديني في بناء القصة وما فيها من رسم للشخصيات وتصوير، والقصص القرآني بنص الكتاب هو أحسن القصص، ومن صفاته أنه مستمر لا ينتهي تأثيره بمجرد الفراغ من تلقيه، وللقصة القرآنية أهداف عديدة يوردها المؤلف، منها إثبات الوحي والرسالة، التأكيد على أن الدين كله من عند الله، التوحيد، وحدة وسائل الدعوة، الأصل المشترك للدين، بيان انتصار الأنبياء وهزيمة المكذبين، التبشير والتحذير.

■

الفنون البصرية وعبقرية الإدراك

شاكر عبدالحميد

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٦٢٤صفحة



الفنون البصرية هي تلك التي تعتمد في إنتاجها وإبداعها وفي تذوقها وتلقيها على حاسة الإبصار، وهي تشتمل على الرسم والتصوير والنحت والعمارة وغيرها. وأما الإدراك فهو عملية يضفي العقل الإنساني خلالها المعنى على المدركات الحسية التي يتلقاها، ويركز الكتاب بين الفنون البصرية جميعها على خمسة أنواع هي: الرسم والتصوير الملون والنحت والعمارة والتصوير الفوتوغرافي، وبعد أن يقدم المؤلف تعريفات موجزة لهذه الأنواع الخمسة من الفنون البصرية وتطورها وأبرز مبدعيها، ينتقل في الفصل الثاني إلى المكونات البصرية وسيكولوجية الإدراك، ويدحض المقولة التي ترى أن الأبجدية التشكيلية في عصر العولمة، مختلفة عن تلك التي نادى بها الفنان المجري فيكتور فازاريللي في النصف الأول من القرن العشرين، وغيرها من المقولات التي تقوم في جوهرها على رفض القديم كله لصالح التقنيات الحديثة، مؤكداً على أن عالم الفنون البصرية يقوم على التراكم والتجاوز والكثرة، فالجديد في الفن لا يتناقض مع القديم، بل يتكامل معه، وهو إذ يستعرض العناصر التي يتشكل فيها العمل الفني: النقطة، الخط، الهيئة، الضوء، اللون، الملمس، الحيز المكاني، الزمان، الحركة، الكتلة، فإنه يؤكد على أنها مرتبطة برباط وثيق أو أن كلا منها يوصل بالضرورة للآخر.

في الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن الطفل وتفكيره البصري، مستنداً إلى رؤى ودراسات نظرية لرسوم الأطفال.

ويخصص الفصل الرابع للمخ والتفكير البصري وذكاء الإدراك، والخامس لفكرة المكان وتطور التفكير البصري عبر التاريخ، مشيراً كذلك إلى عديد من النظريات التي تناولت هذا الموضوع، وإلى تطبيقات عملية لبعضها، كما في حديثه عن مايكل أنجلو والجاذبية والنحت، والمكان في الفن الإسلامي، وفنون الفيديو آرت ومعجزة الصور المتحركة.

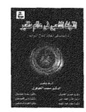
ويتناول الفصل السادس فكرة الخيال البصري بدراسة أعمال فيوز يلي وهنري روسو وجورجيو دي كيريكو ورينيه ماجريت وماكس إرنست وبول دلفو وشاجال، وأما الفصل السابع ففي الفنون البصرية بين التذوق والإبداع، والثامن للفنون البصرية والثقافة البصرية.

■

التراث الشعبي في عالم متغير

إشراف وتحرير: محمد الجوهري

القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٧، ٤١٨صفحة



منذ بدايات ثورة الاتصالات والتكنولوجيا الإلكترونية، انشغل علماء الفلكلور بتأثير هذه الثورة على التراث الشعبي، كما انشغل علماء الأنثربولوجيا بما يمكن أن يطرأ على الثقافة الإنسانية بسبب هذا التطور، لكن ثمة رأياً يميل إليه الدكتور محمد الجوهري المشرف على تحرير الكتاب، لباحث التراث الشعبي أحمد رشدي صالح، مفاده أن التغير لا يمكن أن يقضي على التراث الشعبي، فهذا التراث بما يتمتع به من مرونة وقدرة على إعادة التكيف في كل ظرف إنساني جديد، فيبدع تراثاً جديداً يحقق له الاستمرار.

وبشكل عام فإن الأشكال العديدة من التراث تتزامن وتتداخل في حياة الفرد، فالفرد إلى جانب فرادته التي تميزه عن الآخرى، فإنه عضو في جماعة ضمن أسرة أو ضمن اهتمامات مهنية وبينية لها سمات خاصة يكتسب منها ويضيف إليها، فمن هي الفئة الأكثر ميلاً إلى التجديد والتغيير في التراث، إنهم الشباب كما يشير المؤلفون، هم الأميل للجديد في الملبس والموسيقى والأدب، والأكثر استعداداً للاستجابة للمتغيرات التي تفرضها ثورة الاتصالات.

ويأتي بعد ذلك أصحاب الدعوات، أي الداعية إلى أفكار جديدة للتغيير في المجتمع، وهؤلاء قد يكونون أصحاب دعوات سلفية تدعو إلى الغوص أعمق في الماضي، أو أصحاب دعوات تغريبية لا ترى خلاصاً إلا في التشبه والتشبث بكل ما هو غربي، ويعد سكان المدن أو السكان الحضريون، هم الفئة الثالثة الأكثر ميلاً للتغيير في التراث وتجديده في مقابل الريفيين أو قاطني القرى.

إلى ذلك يلعب التعليم دوراً مهماً في إعادة إنتاج التراث، وتشير إحدى الدراسات إلى مرحلة الأسرة العلوية في مصر، فقد كان التعليم أحد أدوات نهضة مصر الحديثة، ومن خلاله تعرّف المصريون على أنماط مختلفة من الحياة وطرائق جديدة للعيش، وبدا هذا التأثير بوضوح في الأزياء على وجه الخصوص، ولا يضارع التعليم في هذا التأثير سوى وسائل الاتصال خصوصاً في العصر الحديث، حيث تفتحت آفاق رحبة على عالم واسع بكل ما فيه من قيم وعادات وأنماط سلوكية.

■

النظام القانوني لحرية التعبير

حسن محمد هند

القاهرة: الطوبجي للنشر، ٢٠٠٧، ٣٧٠صفحة



تنص المادة ٤٧ من الدستور الدائم لمصر الصادر في ١٩٧١ على أن حرية الرأي مكفولة، ولكل إنسان حرية التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو بالكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير في حدود القانون ضماناً لسلامة البناء الوطني.

وهكذا فإن الدستور بنصه جعل حرية التعبير حقاً لكل إنسان، لكنه نظم ممارسة هذا الحق في إطار قانوني يبينه المؤلف وهو مستشار بمجلس الدولة في الفصل الأول من الكتاب، حيث يناقش فيه المفهوم الدستوري لحرية التعبير والضوابط المنظمة لممارسة هذا الحق والقيود عليه.

في الفصل الثاني مبحثان عن التنظيم القانوني لحرية الصحافة في العالم وفي مصر، يتبعه بآخر عن اتجاهات القضاء في قضايا النشر. ويتعرض الفصل الرابع لواحد من الإشكالات التي تتجدد يوماً بعد آخر في شكل اعتصامات أو إضرابات يقوم بها عمال أو موظفون أو طلبة أو مجموعات احتجاج اجتماعي أو سياسي، ويتعرض المؤلف فيه للتنظيم القانوني للحق في التجمع، التنظيم القانوني لحق الأحزاب في ممارسة هذا الحق، التنظيم القانوني لحق الإضراب، حق تكوين النقابات، حق تكوين الجمعيات، وفي الفصل الأخير دراسة مفصلة حول حق نقد العمل العام، يناقش فيها المؤلف اتجاه كل من المحكمة الدستورية العليا ومجلس الدولة والقضاء المقارن والقضاء الجنائي في هذه المسألة.

وفي الختام يتحفظ المؤلف على اعتبار الصحافة سلطة رابعة إلى جانب السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، ويطالب المؤلف باستصدار قرار جمهوري بتشكيل لجنة عليا دائمة لتقييم الأعمال التي تتعرض لحرية العقيدة أو الجنس تتشكل من كافة القيادات الفكرية والعقائدية وممثلي الأزهر والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، كما يطالب بتعديل تشريعي يتضمن حظر فرض الحراسة بإجراء إداري، والنص على مشروعية الإضراب، وكذلك تعديل قانون العقوبات لإلغاء فرض عقوبة بدنية على الصحفي، اكتفاءً بالغرامة وهي عقوبة جنائية، وكذلك تعديل القانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ بإلغاء كافة القيود على حرية العمل النقابي.

■



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

ثقافة الاعتراف

في عدد نوفمبر ٢٠٠٧ نشرت صفحة «رسائل وآراء» رسالة من الأستاذ إسماعيل محمد عبداللطيف بعنوان (أحمد أمين في مذكرات جلال أمين) وفيها يستعرض الأستاذ إسماعيل عبداللطيف رأيه فيما كتبه الأستاذ جلال أمين عن والده الراحل أحمد أمين منتقداً ما كتبه الأستاذ جلال أمين عن والده فيما يخص الالتزام الديني من صوم وصلاة وحج، مخالفاً بذلك الصور الذهنية لدى العامة والتي كونوها عن الأستاذ أحمد أمين صاحب المؤلفات الشهيرة عن الإسلام وأستأذنكم أن يكون لي تعقيب على ما كتبه الأستاذ إسماعيل عبداللطيف.

في مجمل ثقافتنا العامة لا نعرف نحن الشعوب الشرقية على وجه العموم ما يمكن أن أسميه (ثقافة الاعتراف) ويبدو أن مرجع هذا الغياب لثقافة الاعتراف يعود إلى ما يمثله الاعتراف كحالة من حالات المنهي عنه دينياً كما تقول بعض النصوص على عكس المجتمعات الأوروبية التي يرتبط عندها الاعتراف ويقترن بفكرة التطهر وليس بفكرة (الجهر) كما هو الحال عندنا. مما أورثنا في النهاية إلى أننا أصبحنا أسرى للازدواجية باطن غير معلن وظاهر غير مكتمل ولم نتعود على الجهر بالحقائق، وعندما حدث أن جهر أحدنا بما رآه وعايشه كانت صدمة القارئ بما قرأه رغم أنه يعلم يقيناً صدق الراوي فيما روى.

تقول المقولة المشهورة والتي أوردها الأستاذ جلال أمين في كتابه (إن المذكرات التي لا تدين صاحبها لا تستحق القراءة)، وهذا أيضاً على عكس ما تعودنا عليه وألفناه، فنحن غالباً ما نقرأ مذكرات كتبت بيد أصحابها ولا هم لهم فيها إلا التمجيد والتصفيق لأنفسهم وما أكثر هذه النوعية من الكتابات في سوق كتابتنا الراكد وعندما خالف أحدنا هذه السُنة غير الحميدة أزعجنا الخلاف (وهو يزعجنا دائماً).

يقول الأستاذ إسماعيل عبداللطيف ما نصه (لقد صدمتني تلك الكلمات حتى لقد كدت أطوي الكتاب كمداً قبل أن أفرغ من قراءته وأسفت ولا أزال آسف. على مسلك الابن البار (صاحب السيرة) من أبيه، فقد عمد إلى فضحه بعد رحيله رغم أن الله ستره وكان حرياً بالابن أن يسترا أباه ولا يفضحه عسى الله أن يشمله بعفوه ورحمته وصفحه، وهو إذ فضحه فقد أخل بواجب الإحساس بالوالدين الذي فرضه الله قريناً لعبادته وألوهيته ووحدانيته، خاصة بعدما لحق الأب برحاب الله وتجرد من أي حول ولا قوة وانقطع عمله بموته إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، وهكذا فقد ضن الابن البار على أبيه بالستر فضلاً عن الدعاء). هذا ما كتبه الأستاذ إسماعيل وفيما كتب عين الحالة التي نتحدث عنها ونرصدها.

والعلة التي نقصدها هنا هي (التجريد)، فنحن في عموم ثقافتنا لا نعرف التجريد، لا نعرفه حتى في الخصومة فما بالنا بالقرابة. الأستاذ جلال أمي فعل في كتابه ما لا يفعله الكثيرون، لقد تجرد وعندما تجرد رصد، حتى إن منتقده لا يشك في صدق رصده ونحن أيضاً لا نشك في ذلك، ولكنها المشاعر التي تغلب العقل دائماً حتى لو كانت على حساب الحقيقة.

لقد قرأت كتاب الأستاذ جلال أمين بشغف ونهم ولم تكن هذه أول مرة أقرأ له فيها، بل إنني أستطيع أن أقول إنني من قرائه ومتابعيه.

وما كان يشدني في كتاباته دائماً هذه القدرة على الرصد والتحليل الموضوعي وإعلان رأيه حتى لو صدم الآخرين وحتى لو تصادم مع المألوف وما مذكراته الأخيرة إلا درة تاج هذا النهج، فلقد طبق ما يقول عن الآخرين على نفسه رصداً وجهراً، أليست هذه فضيلة يحمد عليها ألا يعد ما فعله سُنة غائبة عنا فكراً وعملاً.

الأستاذ جلال أمين لم يسئ لوالده ولكن الإساءة الحقة هي هذه الحالة من حالات تقديس كل ما سلف، حتى أصبح السلف بمثابة (تابو) مقدس لا يجوز الاقتراب منه إلا بالإشادة والتمجيد، مخالفين نحن في ذلك حقيقة بشريتهم وما يعتريها من ضعف لا يعيبهم.

إن الذي دفعني للتعليق على رسالة الأستاذ إسماعيل عبداللطيف عدة أسباب، أولها هو تقديري الشديد لصاحب السيرة وما يمثله من منهج في الفكر والرأي والكتابة، وثاني هذه الأسباب هو أن هذه الرسالة نكأت هذا الجرح الثقافي الذي يعتري حياتنا (من وجهة نظري على الأقل أليست الحياة وجهات نظر) أقول إنها نكأت جرحاً يتجسد في قبر كل ما يعيبنا مما أفقدنا القدرة على الرصد الموضوعي وبذلك فقدنا التشخيص السليم. فإذا كنا فقدنا صحة التشخيص فكيف لنا بصحيح العلاج.

نحن لا نمارس ثقافة الاعتراف إلا عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الآخرين نقول عنهم ما نشاء ولكن عند الحديث عن ذواتنا فرادى ومجتمعات فلا وجود إلا لثقافة (الاحترام) والتي هي في حقيقتها الاسم الخادع لثقافة (الكذب) إن لم يكن على الآخرين فعلى الأقل على أنفسنا. وما أقوله لا علاقة له بما يسمى (جلد الذات) هذه المقولة التي لا يراد لنا بها إلا الاستمرار في الغيبوبة، ومع ذلك فجلد الذات أشرف كثيراً من خداع الذات، هذا إذا كان ليس من الاختيار بينهما بُد.

محمد عبدالفتاح السروري
الإسكندرية
Elsorory@yahoo.com

■

حضارة الإبادة

تحية عطرة من محب لكم من المملكة العربية السعودية، محب لكم ولجهودكم الإعلامية المتميزة والمتمثلة في مطبوعتكم المتميزة بمحتواها وكتابها وسياقها الفكري وإخراجها، مطبوعة تمنيت لو أني اطلعت عليها منذ بدايتها قبل تسع سنوات ونيف، ولقد شد انتباهي في عدد شهر سبتمبر البحث المعنون: حضارة الإبادة لأستاذ الأدب الإنجليزي الدكتور عبدالوهاب المسيري والبحث المكمل له عن نزع القدسية عن الهولوكوست، بحثان جامعان يستحقان الثناء في العرض والتكامل الموضوعي، ولن أتبع ثنائي هذا بنقد لاذع أو مخالفة قاسية للكتاب الأفاضل، ولكن هذين المقالين شحذا زناد فكري في موضوع حول مستقبل أمتنا العربية والإسلامية، هل سوف يظل شبح الماضي يطارده والمؤامرة تحيطه إلى درجة تنسينا أو تشغلنا عن السوس الذي ينخر في جسم الأمة ويحاول قتل الحاضر ووأد المستقبل.

هشام محمد قزمان
باحث في الفكر الإبداعي/ جيولوجي

■

تصويبان

في عدد مايو ٢٠٠٧ نشرت مجلة «وجهات نظر» مقالاً مترجماً بعنوان «الثورة.. رأس المال.. الإمبراطورية.. العرب: عصور التحول» ونتيجة لخطأ مطبعي ورد اسم المترجم بشكل خاطئ والاسم الصحيح هو فايز الصياغ وهو عالم اجتماع من الأردن، زميل زائر في مركز الدراسات الاستراتيجية، الجامعة الأردنية، عمل أستاذاً، لعدة سنوات، في جامعة تورنتو الكندية. له مؤلفات ومترجمات بالعربية والإنجليزية في المجالات الاجتماعية والتنموية والثقافية.

كما سقط سهواً اسم المصور إيهاب عبداللطيف في المقال الذي نشرته المجلة في يونيو الماضي بعنوان «قاهرة الرواية العربية».

وإيهاب عبداللطيف مصور وفنان فيديو ومصمم إضاءة مسرحية. وقد اشترك في أوائل التسعينيات في تأسيس فرقة الشظية المسرحية.

المحرر

■

Crash Proof
(برهان الانهيار)
Peter D. Schiff, John Downes
Wiley, $27.95, 288PP, 2007



من وجهتى النظر الاقتصادية والمالية، الولايات المتحدة تبدو رائعة من الخارج، ولكن الحقيقة أن هناك كارثة توشك على الحدوث تحت السطح. ففى فترة قصيرة تحولت الولايات المتحدة من الدائن الأكبر بين دول العالم، إلى المدين الأكبر، وانخفضت قيمة الدولار، وقل تصدير المنتجات المحلية، مما ينذر بكارثة وشيكة على الاقتصاد الأمريكى.

لأكثر من عقد، محلل ومتوقع بورصة وول ستريت «بيتر شيف»، ساعد العديد من زبائنه فى إعادة تنظيم حقائبهم المالية وحماية مدخراتهم من انخفاض قيمة الدولار وانخفاض العائدات على المدخرات.

فى هذا الكتاب يساعد «شيف» القراء بتزويد بصيرتهم بنقاط الضعف التى تعترى دعائم الاقتصاد الأمريكى، مدلا على مجموعة من الإجراءات الواجب اتخاذها لحماية الاستثمارات الشخصية موضحا إياها فى ثلاث نقاط رئيسية، أولها هو إعادة التفكير فى محفظة الأوراق المالية ناصحا بضرورة استبدال حصص الدولار الأمريكى بحصص أخرى من العملات الأجنبية الأكثر استقرارا، وثانيها، الاتجاه إلى استثمار المدخرات الشخصية فى المعادن النفيسة كالذهب والفضة التى من شأنها ضمان الأمان للمدخرات، والثالث هو ضرورة وجود السيولة الكافية دوما لضمان وجود مال كاف للعيش ووجود احتياطى مناسب لشراء أى من الأصول بأسعار رخيصة.

■

The Post-Birthday World
(ما بعد عيد الميلاد)
Lionel Shriver
HarperCollins, $25.95, 528PP, 2007



هل يمكن لقبلة أن تغير مجرى حياة ثلاثة أشخاص؟

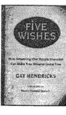
«ليونل شريفير» فى تلك الرواية تحكى عن قصتين متوازيتين لراسمة كتب الأطفال «ارينا ماكجوفلرن» التى تتمتع بحياة مستقرة فى لندن مع زوجها الأمريكى «لورانس» بمركز أبحاث كبير.

«رمزى أكتون» لاعب السنوكر العالمى والمطلق منذ عام، يحتفل بعيد ميلاده هذا العام مع أصدقائه القدامى «ارينا» و«لورانس».

فى تلك الليلة وجدت «ارينا» نفسها فجأة تتوق لتقبيل «رمزى» لتبدأ أحداث القصتين، لنرى ماذا يمكن أن يحدث إن قبلته، وماذا سيحدث إن لم تفعل.

■

Five Wishes
(خمس أمانى)
Gay Hendricks
New World Library, $18.00, 128PP, 2007



لن تستطيع أبدا أن تعرف متى ستحدث، متى ستصادف لحظة تحول درامى فى حياتك. فالحياة تتغير فى لحظات، فعندما تنظر إلى حياتك الماضية، تجد أن هناك محادثة قصيرة أو كتابا قرأته غير حياتك بأكملها.

«جاى هيندركس» لديه خبرة شخصية كبرى مع تلك التغيرات التى حدثت للإنسان، فهو قد صادف مثل تلك التغيرات نتيجة لمحادثة أجراها منذ عدة أعوام بإحدى الحفلات التى كان يحضرها، والآن هو يعيش الحياة التى طالما تمناها.

الكتاب دعوة لتغيير الحياة إلى الأفضل، وإلى إحداث لحظة التغيير إلى الأفضل دوما.

■

Three Cups of Tea
(ثلاثة أكواب من الشاى)
Greg Mortenson, David Oliver Relin
Penguin, $15.00, 368PP, 2007

بعض الفشل يؤدى أحيانا إلى نجاح ضخم، وفشل «جريج مورتينسون» المرض الأمريكى فى تسلق مجموعة جبال كى٢ التى تحوى ثانى أعلى جبال العالم، قاده إلى نجاح مذهل فيما بعد.

سقط «جريج مورتينسون» مريضا أثناء رحلة تسلقه، ولجأ إلى قرية باكستانية آوته لسبعة أسابيع، مما يدفعه ردا على هذا الجميل إلى وعدهم ببناء أول مدرسة لقريتهم، وينفذ وعده، ليقيم مدرسة تصبح مشروعا يعمم فيما بعد ليصل عدد مدارسه إلى خمسين مدرسة بباكستان وأفغانستان.

الكتاب يوضح تفاصيل دقيقة حول علاقة الأمريكى بأهل القرية ومسنيها، والمجاهدين ورجال طالبان والبنات الصغيرات اللاتى يمتلئن بالطموح، كما يجادل «مورتينسون» حول أهمية الحرب ضد الإرهاب موضحا، أن أكثر الطرق فاعلية للقضاء على الإرهاب هو توجيه الجهود الدولية جميعها للقضاء على الفقر وإيصال التعليم لغير القادرين عليه.

■

If I Did It
(لو كنت فعلتها)
Goldman Family, Pablo F. Fenjves, and Dominick Dunne
Beaufort Books, $24.95, 254PP, 2007



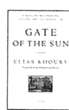
فى عام ١٩٩٤ كل من «رون جولدمان» و«نيكول براون» قتلوا بوحشية فى منزلهم بمدينة برينتوود الأمريكية بولاية كاليفورنيا، وحوكم بتلك القضية التى استحوذت على اهتمام الرأى العام الأمريكى «او جى سمبسون» الذى وجد من قبل هيئة المحلفين غير مذنب، مما دفع أهالى الضحايا إلى رفع قضية مدنية ضد «سمبسون» متهمين إياه بالتسبب فى موت «رون ونيكول» عن طريق الخطأ، وهو ما وجد مذنبا بشأنه.

بحلول عام ٢٠٠٦ أعلنت احدى دور النشر الأمريكية إصدارا لكتاب بقلم «سمبسون» يحكى عن تفاصيل ارتكابه لتلك الجرائم، إن كان ارتكبها. ولكن مع وجود رفض كبير من الرأى العام لتربح «سمبسون» من القضية والجريمة. مما دفع دار النشر إلى إلغاء إصدار الكتاب، وأصدرت محكمة حكما بنقل حقوق ملكية الكتاب إلى عائلة القتيلين.

عائلة الضحيتين اعتبرت الكتاب اعترافا بالقتل مما دفعها لنشره ملحقا بتعليقها راجين أن يعرف الرأى العام كله الحقيقة.

■

Gate of the Sun
(باب الشمس)
Elias Khoury , Humphrey Davies (Translator)
Picador, $15.00, 544PP, 2007



رواية باب الشمس لإلياس خورى، نشرت لأول مرة بالعربية عام ١٩٩٨عن دار بيروت للنشر، ثم ترجمت إلى العبرية والفرنسية، واختيرت ككتاب العام بصحيفة لوموند الفرنسية عام ٢٠٠٢. وحولت إلى فيلم سينمائى عربى من جزءين.

الرواية تدور أحداثها فى مستشفى مؤقت بمخيم شاتيلا للاجئين على أطراف بيروت، حيث يجلس الدكتور خليل بجوار سرير صديقه فاقد الوعى يونس، المقاتل الفلسطينى، ليتذكر حياتهما.

البداية عام ١٩٤٨، والحرب العربية الإسرائيلية، والانتهاك الإسرائيلى للأرض الفلسطينية، والنزوح الفلسطينى من الأراضى المحتلة، وبداية تكوين مخيمات اللاجئين.

تجسيد رائع للحياة الفلسطينية منذ ١٩٤٨ وحتى الآن.

■

Become a Better You
(كن أفضل مما أنت عليه)
Joel Osteen
Free Press, $25.00, 320PP, 2007



أمام أكثر من ٤٢٠٠٠ محتشد، وملايين المشاهدين عبر التلفاز، يلقى «جول أوستين» خطبته الأسبوعية المليئة بالحكمة والإلهام.

كتابه الأول «حياتك الأفضل الآن» الذى بيع منه أكثر من ٤ ملايين نسخة، وترجم إلى أكثر من ١٧ لغة، ساعد العديد من الناس على التقرب من الله عن طريق تنفيذ العديد من الروحانيات فى حياتهم اليومية.

فى هذا الكتاب (كن أفضل مما أنت عليه) يقدم «جول أوستين» ٧ طرق بسيطة وعميقة لتساعد القراء على اكتشاف أشياء أفضل فى حياتهم،

■

لاكتشاف ماذا ولدوا له، ووأهدافهم الشخصية والقدر.

يتكلم الكاتب مباشرة إلى القلب، مازجا تعاليم الإنجيل، والشهادات، والخبرات الشخصية لتنير حياة القراء.

■

World Without End
(عالم بلا نهاية)
Ken Follett
Dutton, 35.00$, 1024PP, 2007



بعد ثمانية عشر عاما من روايته الأولى الملحمية الأشهر على الإطلاق (أعمدة الأرض) التى تتحدث فى أكثر من ١٠٠٠ صفحة عن إنشاء كاتدرائية إنجليزية فى القرن الثانى عشر الميلادى، تأتى رواية ملحمية جديدة (عالم بلا نهاية) لتدور أحداثها فى القرن الرابع عشر الميلادى حول تطورات الأحداث لأبطال الرواية السابقة، وخاصة مع وجود العديد من الأحداث الجسام فى تلك الحقبة مثل الموت الأسود والحرب مع فرنسا.

تدور أحداث الرواية بين عامى ١٣٢٧ و١٣٦١ عن أربعة أطفال، تتطور الحياة بهم لتصبح واحدة منهم زوجة لقروى، وأخرى كراهبة، وأخر كبناء، وأخر كفارس. يتقاسمون تجربة مؤلمة تؤثر بطرق مختلفة فى حياتهم.

■

Love in the Time of Cholera
(الحب فى زمن الكوليرا)
Gabriel Garcia Marquez
Vintage, $14.95, 368PP, 2007



«غابرييل غارسيا ماركيز» الروائى الكولومبى المبدع، وصاحب جائزة نوبل فى الأدب ١٩٨٢ عن روايته (مائة عام من العزلة) التى ترجمت إلى ٢٣ لغة، مما أدى إلى ذيوع صيته بعدها، منبها العالم كله إلى أدب أمريكا اللاتينية.

«ماركيز» يعتمد فى فكرة روايته الأصلية على مقولته «أن هذا الحب فى كل زمان وفى كل مكان، ولكنه يشتد كثافة، كلما اقترب من الموت» وهى فكرة تأملية تدور حول الحب والخيال.

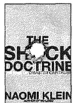
الرواية مليئة بالأحداث، حيث إنها تسرد قصة رجل وامرأة منذ فترة المراهقة وحتى بلوغهما ما بعد السبعين، واصفة لكل ما تغير حولهما من أحداث كالحروب الأهلية فى منطقة الكاريبى وانتشار مرض الكوليرا فى المنطقة.

الرواية تحكى عن قصة حب «فلورنتينو اريثا» لـ «فيرمينا اديثا» التى بدأت منذ لقائهما لأول مرة فى المدرسة الدينية فى مراهقتهما، ثم للفراق الدرامى الذى حدث بينهما لتتزوج الفتاة طبيبا جذابا، وتنسى حب «فلورنتينو» للأبد.

ولكن «فلورنتينو» يظل اثنين وخمسين عاما على عهده، محبا ومنتظرا لها، ومحاولا الوصول اليها، لتكلل محاولاته فى النهاية بالنجاح.

■

The Shock Doctrine
(مذهب الصدمة)
Naomi Klein
Metropolitan Books, $28.00, 576PP, 2007



كل من المعجبين والمنتقدين يتفقون على أن الراحل الحائز على جائزة نوبل «ميلتون فريدمان» كان اقتصادياً غير عادى، وكان ذا تأثير كبير. فى هذا الكتاب الكندية «كيلين» تهاجم مبادئ «فريدمان» لاقتصاديات السوق الحرة، التى دعا إلى تطبيقها على سلسلة من الدول منذ عام ١٩٧٥.

البداية كانت عندما اقنع «فريدمان» الديكتاتور التشيلى «أوغستو بينوشيه» إلى اعتماد اقتصاد السوق الحرة كبرنامج له، وهو ما تطور بعد ذلك لتصل التجربة للعديد من دول العالم.

«كيلين» تفسر تفسيرا مضادا لنتائج «العلاج بالصدمة» واضعة أساس أطروحتها التى ترى أن مذهب «فريدمان» يتطلب لتطبيقه أزمات قوية، مهاجمة للعديد من برامج الإصلاح التى استهدفت فصل الدولة عن الاقتصاد والتى طبقت فى العقود الثلاثة الماضية فى بوليفيا وبولندا وروسيا والصين والمملكة المتحدة، والعديد من الدول الأخرى.

ترى الكاتبة أن اقتصاديات تحرير السوق قد أوجدت ما يسمى برأسمالية الكوارث المعقدة وهى تعتمد على الشركات التى تزدهر بحدوث الكوارث، مدللة على قولها بدراسة بعض حالة لبعض الشركات العاملة فى أمريكا وإسرائيل.

■

Come On People
(هيا أيها الناس)
Bill Cosby, Alvin F. Poussaint
Thomas Nelson, $25.00, 288PP, 2007



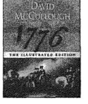


جاء العنوان الداخلى لذلك الكتاب بجملة (على الطريق من ضحايا إلى منتصرين) ليصف الهدف الرئيسى لذلك الكتاب، فالمؤلفان يقدمان رسالة قوية للمجتمع من أجل تقويته، ومن أجل عالم أفضل.

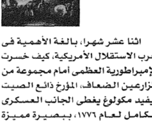
المؤلفان يتصديان لأزمات الناس الناتجة عن العديد من العوامل، كفقدان الثقة فى النفس، والهجر والغضب والخوف والحزن والشعور بالاستغلال، والشعور بفقدان الأمان، فمثل تلك المشاعر فى الأغلب من شأنها عرقلة قدرتهم على التقدم للأمام، ومن ثم يهدف المؤلفان إلى مساعدة أولئك الضحايا ليتحولوا إلى منتصرين.

■

1776
(١٧٧٦)
David McCullough
Simon & Schuster, $65.00, 256PP, 2007



اثنا عشر شهرا، بالغة الأهمية فى حرب الاستقلال الأمريكية، كيف خسرت الإمبراطورية العظمى أمام مجموعة من المزارعين الضعاف، المؤرخ ذائع الصيت ديفيد مكولوغ يغطى الجانب العسكرى الكامل لعام ١٧٧٦، ببصيرة مميزة وبأسلوب سرد قصصى لا يخلو من الإمتاع، يضيف منظورا جديدا لبداية الثورة الأمريكية، فهو على عكس من سبقوه، يؤرخ عاما وليس شخصا.



كان الوضع ينذر بحتمية الحرب فى أواخر ١٧٧٥، كفاح السياسيين البريطانيين والأمريكيين للوصول إلى تسوية لم ينجح، كان على الجانبين تحمل عدة ظروف قاسية، منها برد الشتاء القارس، الذى كان له دور كبير جدا فى حسم العديد من المعارك.

البريطانيون كانوا يتوقعون حسم المعركة سريعا، ولكن عزيمة الأمريكيين كان لها عامل معاكس لطموحات البريطانيين، العامل النفسى كان يصب فى مصلحة الأمريكيين، فكلما حققوا انتصارا ولو ضعيفا وهينا يزيد هذا من معنوياتهم، وعلى العكس كان يحبط البريطانيون كثيرا، فعلى سبيل المثال كان تراجع البريطانيين من بوسطن مذلا إلى أقصى حد، بينما استيلاء الأمريكيين على ترينتن ذات الأهمية الإستراتيجية المحدودة، كان مهما جدا لدى الأمريكان.

■

A Lifetime of Secrets
(حياة من الأسرار)
Frank Warren
William Morrow, $27.95, 288PP, 2007

لثلاثة أعوام ظل «فلرانك وارين» يدعو الناس من دول مختلفة وثقافات مختلفة إلى إرسال كروت بريدية إليه تحمل أشكالا مبتكرة وأسرارا لم يصرحوا بها من قبل، لينشرها فى مدونته على الإنترنت التى تعد معرضا فنيا دسما، ولينشر أيضا تلك الأعمال فى سلسلة من ثلاث كتب.

الكتاب يحوى اعترافات عدة تحمل العديد من المشاعر، من خيانة وندم وأمل وحب.

■

Thieves in Retirement
(لصوص متقاعدون)
Hamdi Abu Golayyel, trans. Marilyn Booth
AUC Press: LE 70

يمكن اعتبار حمدى أبو جليل الكاتب المصرى البدوى الوحيد قبل ظهور مسعد أبو فجر خاصة أنه لم يبتعد كثيرا عن

مجتمع البداوة قبل مجيئه إلى القاهرة كما أنه لا يكتب عن هذا المجتمع بنظرة المرشد السياحى. فى رواية لصوص متقاعدون لا يكتب أبو جليل عن المجتمع البدوى من الأساس ولكن الراوى شاب بدوى غادر مضارب قبيلته ليحيى فى أطراف القاهرة ويكون شاهداً على أنماط البشر التى تعيش من حوله وعلى علاقاتهم المتشابكة. يبدأ الراوى بكونه مخزناً لأسرار جيرانه المأساوية والكوميدية فى نفس الوقت. فهناك سيف الذى سيتحول جنسيا وجمال تاجر المخدرات والحكيمة التى تدير منزلها للدعارة والشيخ حسن كثير الذنوب. ولكن مع حرصه الشديد إلا أن أسرار الراوى تصبح مع الوقت معروفة لأبو الجمال صاحب المنزل المعروف بعدله وقسوته. مع أن أبطال العمل هم ممن درج على تسميتهم بالمهمشين إلا أن تناول الكاتب لهم لا يتضمن أى تعاطف أو استعلاء فالراوى يتأمل المجتمع المحيط به ويحاول أن يتكيف معه ويتقى شره فى نفس الوقت.

■

Leaves of Narcissus

(أوراق النرجس)

Somaya Ramadan

AUC Press: LE75



فازت الدكتورة سمية رمضان عام ٢٠٠١ بجائزة نجيب محفوظ التى تمنحها الجامعة الأمريكية لعمل روائى عربى سنويا عن روايتها أوراق النرجس. والرواية تدور حول مفاهيم الوطن والغربة والاغتراب الفعلى والنفسى. فالبطلة كيمى شخصية هشة تعانى من نوع من الفصام أو اختلال الهوية يجعلها لا تستطيع التفرقة بين آلام الآخرين وآلامها الشخصية. المعضلة بالنسبة لكيمى ليست فى وجودها هى إنما فى كيفية وجودها فى أوقات منفصلة ومتناقضة. على المستوى الأول لقراءتها فإن أوراق النرجس رواية عن شخص (البطلة) من الشرق يذهب للدراسة فى الغرب تماما كما كانت الكثير من الكتابات من قبلها لتوفيق الحكيم وطه حسين والطيب صالح. البطل هنا فتاة ووجهتها أيرلندا وهى جزء من الغرب ولكنها فى نفس الوقت دولة وقعت تحت الاستعمار مثلها مثل أغلب البلاد الشرقية.

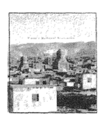
■

Architecture for the Dead

(عمارة من أجل الأموات)

Galila El Kadi and Alain Bonnamy

AUC Press: LE200



على عكس الشائع، لم تكتسب المنطقة المسماة بمدينة الموتى شهرتها من أن الأحياء يتخذون من أحواش المقابر أماكن للسكن فهى من قبل هذا التطور الحديث نسبيا كانت تضم بعض أجمل نماذج العمارة الإسلامية. تمتد تلك المنطقة المنقسمة إلى منطقتين على مسافة ١٢ كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب وتمثل بالتالى جزءاً أساسياً من أفق المدينة. تتنوع أحجام المقامات والأبنية التى بنيت فى هذه المنطقة على مر التاريخ بدءاً من العصور الوسطى وتفتخر باحتوائها على بعض أهم نماذج المعمار المملوكى على وجه التحديد. إن منطقة مدينة الموتى لا تضاهيها أى منطقة أثرية أخرى فى المنطقة وهى إلى حد بعيد غير موثقة حتى الآن. من هنا تأتى أهمية الكتاب الذى اشترك فيه المعمارية جليلة القاضى والمصور آلان بونامى. فهو يجمع بين التوثيق المعمارى الوصفى وبين الصور والخرائط والمخطوطات التفصيلية لكمية هائلة من الطرز المعمارية من المملوكى إلى المملوكى الحديث إلى الباروك والنيو فرعونى. كما تتنوع الأعمال المعمارية ما بين المبانى الحجرية الضخمة بقبابها ومآذنها المزركشة وبين الأعمال الخشبية الدقيقة والصغيرة وجميعها موثقة بتفاصيلها. كما أن الكتاب لا يغفل أماكن السكن الحديثة التى صنعها الناس داخل المدينة.

■

Egyptian Customs and Festivals

(العادات والمواسم المصرية)

Samia Abdennour

AUC Press: LE60



سامية عبد النور التى اشتهرت بكتابة وصفات غذائية وكتب طهى فى مصر هى فى الأصل فلسطينية تزوجت من مصرى وأتت لتعيش فى هذا البلد الغنى بأعياده وطقوسه الخاصة فى تلك الأعياد والمناسبات. كان أحد الأسئلة المهمة التى خطرت لها والتى قد تخطر على بال أى شخص يأتى للحياة فى مصر من بلد آخر هو كيف يحتفل المصريون بأعيادهم. والحقيقة أن الكثير من المصريين أنفسهم لا يعلمون أصول تلك الاحتفالات والمعانى الضمنية لطقوسها. بالنسبة للزائر توجد أسئلة من نوع، ماذا أتوقع أن أجد على المائدة المصرية فى المناسبات المختلفة وماذا أقول لزميلى المصرى إذا عطس وما الذى يفعله المصريون بالهون والغربال والكيس الذى يحتوى على سبعة حبوب عند ولادة طفل جديد. وتغطى الكاتبة العديد من الطقوس والمناسبات الخاصة بالزواج والوفاة والأعياد الدينية والصيام. كما أنها تفرد أجزاء من كتابها للطعام المنزلى والأطعمة المعتاد بيعها فى الشوارع والأماكن العامة. كما أنها تشرح ما يعتبره المصريون آداب التعامل وهى منطقة شديدة الحساسية فى الثقافات المختلفة حيث من المعتاد أن يكون فعل ما مقبولا تماما فى ثقافة ما، بينما يعتبر نفس الفعل فى ثقافة أخرى إهانة شديدة أو تصرفاً غير لائق اجتماعيا.

■

The Changing Middle Eastern Family

(العائلة الشرق أوسطية المتغيرة)

Kathryn M. Yount and Hoda Rashad

AUC Press: LE 120



يعرض كتاب العائلة المتغيرة فى الشرق الأوسط آراء أكاديمية متعددة حول انتشار الأفكار التنموية حول الأسرة والمجتمع فى ثلاث دول هى مصر وإيران وتونس. وتأتى أهمية المقارنة من التشابه بين الدول الثلاث بالرغم من اختلاف تاريخهم السياسى ونخبهم الثقافية ونظمهم القانونية. يعتمد الكتاب على استطلاعات رأى ومقابلات مع العامة فى الدول الثلاث. وقد قاست تلك الاستطلاعات رد الفعل لدى رجل الشارع للقضايا المختلفة بما فى ذلك تقبلهم أو رفضهم للأفكار المختلفة حول الزواج والطلاق وتعليم المرأة والإنجاب والحياة العائلية. إن الكتاب يملأ فراغا مهما فى البحوث الاجتماعية حول المنطقة بفحص تأثير الأفكار وليس العوامل الاقتصادية والاجتماعية على التطور التاريخى لمفهوم الأسرة. وتتنوع العلوم التى تعتمد عليها المقالات بين الأنثروبولوجيا والديموجرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع لتوثيق الطرق العديدة التى استجاب بها الأفراد للمؤثرات العالمية حول مفاهيم العائلة والأمة.

■

Cairo of the Mamluks: A History of Architecture and Patronage

(قاهرة المماليك: تاريخ من العمارة والرعاية)

Doris Behrens-Abouseif

AUC Press: LE250



حكم المماليك مصر لمدة قرنين ونصف القرن فى تجربة فريدة من نوعها يحكم فيها عبيد دولة ويتبادلون الإمارة فيما بينهم بسلسلة من الاغتيالات والمؤامرات. ومع ذلك فإن للمماليك إسهاماً مهماً جداً فى مجال المعمار حيث إن الغنى الثقافى الذى منحه لهم تنوع خلفياتهم العرقية كان محركا مهما فى التطوير الذى أحدثوه فى الزخارف المعمارية وفى تنوع وجمال مبانيهم ومنها الكثير الذى لا يزال جزءاً أساسياً من أفق القاهرة البصرى الحالى. وتوثق دوريس بهرانس أبوسيف، أستاذة الفن والعمارة الإسلامية فى كلية الدراسات الشرقية والأفريقية فى لندن بشكل شامل لأهم العناصر المؤثرة فى تطور المعمار المدنى المملوكى كما تبحث فى الأسباب الاجتماعية والسياسية التى دفعتهم لرعاية بناء المساجد والمدارس والمستشفيات والأضرحة. ويتضمن الكتاب صورا ملونة وخرائط والمخطوطات لستين نموذجا من أهم ما بناه المماليك فى القاهرة منشورة بترتيبها الزمنى بدءاً من الضريح الذى بنته شجرة الدر لزوجها، الحاكم الأيوبى الأخير لمصر للمدرسة المبهرة للسلطان حسن ومجمع السلطان الغورى آخر حاكم مملوكى قوى. وتعتمد دوريس أبوسيف فى كتابها على مراجع ووثائق عربية كما تعتمد على أحدث الدراسات المتخصصة لتقديم تاريخ حديث وشامل لمبانى القاهرة التى استحقت شهرتها.

■